الدكتور يوسف القرضاوي

الخصائص العامّة للإسلام

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم

الخصائص العامة
للإسلام

الطبعة الثانية

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مقـــدِّمَة

أحمدك ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهك، وسابغ نعمك. وأصلي وأسلم على محمد عبدك ورسولك، ورحمتك المهداة للعالمين، وعلى من دعا بدعوته، واهتدى بهداه إلى يوم الدين.

(أما بعد) فمنذ بضعة عشر عاماً كنت شرعت أكتب عن «حتمية الحل الإسلامي» في مواجهة الأصوات التي تعالت في مصر، وفي العالم العربي حينذاك، تنادي بما سموه «حتمية الحل الاشتراكي».

وكان من الأبواب التي قررت كتابتها: باب بعنوان «خصائص الحل الإسلامي» أخذ يطول ويمتد، حتى أصبح - بمساحته التي انتهى إليها - جديرا أن ينفرد به جزء من أجزاء سلسلة «حتمية الحل الإسلامي».

ولكني عند التأمل والتحقق، وجدت أن هذه الخصائص، ليست إلا خصائص الإسلام ذاته. ولعل الأولى بها أن تفرد في كتاب مستقل عن تلك السلسلة، التي لها طابع الرد أو المواجهة، ليبقى للكتاب طابعه الثابت الدائم.

ثم إني منذ حوالي خمس سنوات كنت قد دعيت إلى «ندوة التشريع الإسلامي» التي عقدت بمدينة البيضاء في ليبيا الشقيقة، بدعوة من الجامعة الليبية، وباشراف كلية الدراسات الإسلامية واللغة العربية بالبيضاء، وذلك لالقاء بحث تحت عنوان «الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان»[1].

---

(١) نشره المكتب الإسلامي في بيروت بعنوان: شريعة الإسلام: خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان، وذلك بعد توسيع وتعديل في البحث الأصلي.

وكان من الموضوعات التي فرضت نفسها عليَّ، لتأييد صلاحية الشريعة وخلودها: موضوع «خصائص الشريعة الإسلامية» الذي تبين لي عند التوغل في كتابته أنه جدير - أيضاً - أن يستقل في كتاب.

ثم رجحت فيما بعد أن أدمج خصائص الشريعة - أو التشريع - في الخصائص العامة للإسلام كله، بوصفه عقيدة، وعبادة، وخلقاً وتشريعاً.

وعلى هذا استقر رأيي، وإن كان هناك من المتصلين بي، من لا يزال يرى إفراد خصائص الشريعة بالنشر مستقلة، لأن كثيراً من المثقفين المشتغلين بالفقه والقانون، يهمهم الاطلاع على هذا الجانب خاصة.

وقد يعوقهم عن الاستفادة به، على الوجه الاكمل، اندماجه في الخصائص العامة التي قد لا يلتفت بعضهم إليها كثيراً، وقد أفكر في ذلك فيما بعد، إذا يسر الله تعالى.

ولما أنشئت كليتا التربية للمعلمين والمعلمات في قطر، ونيط بي تأسيس قسم الدراسات الإسلامية، وتدريس مادة «الثقافة الإسلامية» لجميع أقسام الكليتين، وكان ضمن منهج هذه المادة «خصائص الإسلام العامة» كانت فرصة لي لانضاج ما كتبته من قبل واعداده للنشر.

هذا، وكان الشهيد سيد قطب: قد أخرج - وهو في سجنه - كتابه القيم «خصائص التصور الإسلامي». وهو - كما يبدو من عنوانه - يعنى بجانب واحد من جوانب الإسلام الرحب، وهو جانب التصور والاعتقاد.

أي ما يوضح خصائص الفكرة الكلية للإسلام عن الله والكون، والحياة، والإنسان.

أما خصائص المنهج أو المذهب أو «النظام» الإسلامي كله - بما في ذلك العقائد، والعبادات، والأخلاق، والشرائع - فلم يكن ذلك هدفه في الكتاب، وإن عرض لشيء منه في بعض الأحيان تبعاً لا قصداً.

لهذا كان هذا الكتاب تتمة لكتاب الشهيد رحمه الله. ولا عجب أن

اقتبست بعض العناوين الرئيسة منه مثل: الربانية، والشمول، والواقعية، والتوازن، وإن لم ألتزم تفسيره لها تماماً. فقد أوسع أو أضيق، وقد أزيد أو أنقص.

مثال ذلك أنه تحدث عن خصيصة «الربانية» بمعنى ربانية المصدر والأساس، وأفاض في ذلك إفاضة بليغة. ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يلتفت إلى المعنى الآخر للربانية، وهو ما سميناه «ربانية الغاية والوجهة»، وهو معنى أساسي وخطير، وربما كان هو المتبادر إلى ذهن المسلم عندما تذكر كلمة «الربانية»، أو «الرباني».

كما أنه رحمه الله. ركز على معنى «الثبات» في الإسلام، وأكده تأكيدا قوياً. وهذا مقبول في جانب التصور والاعتقاد، كما أنه كان لازماً لمواجهة دعاة «التطور» المطلق في عالمنا، ولكن إذا تحدثنا عن الإسلام عقيدة وشريعة، ونظام حياة، أجد أن خصيصة الإسلام هي الجمع بين الثبات والمرونة معاً، وهذا ما أثبته هنا.

وقد تناولت بالشرح والتحليل هنا سبع خصائص، هي:

١ ـ الربانية.

٢ ـ الإنسانية.

٣ ـ الشمول، ونعني به شمول الزمان، والمكان، والإنسان، وهو في الواقع يضم خصائص ثلاثاً هي: الخلود، والعالمية، والاستيعاب.

٤ ـ الوسطية، أو التوازن.

٥ ـ الواقعية.

٦ ـ الوضوح.

٧ ـ الجمع بين الثبات والمرونة.

ولا أزعم أن هذه هي كل خصائص الإسلام العامة، فمن الممكن أن يزاد عليها، وربما فعلت ذلك في طبعة لاحقة إن شاء الله.

كما لا أزعم أني وفيت كل خصيصة منها حقها، ولكني اجتهدت

وحاولت، ولكل مجتهد نصيب (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب).

يوسف القرضاوي

القاهرة في ٢٣ صفر سنة ١٣٩٧ هـ
١١ فبراير سنة ١٩٧٧ م

الفَصْلُ الأوّل

الربّانيّة

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هي: الربانية.

والربانية ـ كما يقول علماء العربية ـ مصدر صناعي منسوب إلى «الرب»، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الرب، أي: الله. سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه «رباني» إذا كان وثيق الصلة بالله، عالماً بدينه وكتابه، معلماً له. وفي القرآن الكريم: (ولكن كونوا، ربانيين بما كُنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كُنتم تدرُسُون)[1]

والمراد من الربانية هنا أمران:

١ ـ ربانية الغاية والوجهة.

٢ ـ ربانية المصدر والمنهج.

١ ـ ربانية الغاية والوجهة:

فأما ربانية الغاية والوجهة، فنعني بها: أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة: (يا أيُّها الإنسانُ إنك كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فَمُلاقيه)[2]، (وأنَّ إلى ربك المنتهى)[3].

ولا جدال في أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل، نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو

(١) آل عمران: ٧٩.

(٢) الانشقاق: ٦

(٣) النجم: ٤٢.

مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته. فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات.

في الإسلام تشريع ومعاملات، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى، وعبادته، والسعي في مراضيه.

وفي الإسلام جهاد وقتال للأعداء، ولكن الغاية هي: (حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكون الدِّينُ كله لله)[1]

وفي الإسلام حث على المشي في مناكب الأرض، والأكل من طيباتها، ولكن الغاية هي القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه (كلوا مِن رِزق رَبكُم واشكُروا لهُ بلدة طيبة وربٌ غفُور)[2]

وكل ما في الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله، لا لأحد سواه. ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد.

ومعنى التوحيد: أن يعلم الإنسان أنه لا إله إلا الله، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة، فلا يشرك به أحداً، ولا يشرك معه شيئاً. وهذا معنى (إياك نَعبد وإياكَ نستعين)[3] التي يرددها المسلم في صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، كلما قرأ فاتحة الكتاب في ركعة من ركعات الصلاة.

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمدا - ﷺ - بهذه الحقيقة، وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس، فقال: (قل إنني هداني ربي إلى صِراط مُستقيم ديناً قِيَماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. قل إنَّ صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. قُل

---

(١) الأنفال: ٣٩.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) الفاتحة: ٥.

أغيرَ اللهِ أبغي رباً وهو ربُّ كل شيء)[1].

إن الإنسان لم يخلق لمجرد أن يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ثم بعد ذلك يموت أو ينفق كما تنفق الدابة، كالذين حكى القرآن عنهم أنهم: (يَتمتَّعون ويأكُلون كما تأكُل الأنعام)[2] إنما خلق الإنسان لغاية أسمى.

يقولون: إن الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، ولكن يبقى هنا سؤال يتحتم الإجابة عنه، هو: ولماذا يعيش العاقل؟ إن العيش ليس غاية في نفسه، تُقصد لذاتها، بل لا بد من هدف يعيش له الإنسان، فما هو؟

أما الماديون، فلا يجدون لهذا السؤال في فلسفتهم جواباً يشفي، وأما المؤمنون فيقولون: إن الإنسان يعيش ليعرف خالقه سبحانه، ويعبده، ويقوم بخلافته في الأرض.

فإذا كان الأحمق يعيش ليأكل، والعاقل يأكل ليعيش، فإن المؤمن يعيش ليعبد الله وحده.

يقرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح وجلاء، حين يذكر الغاية من خلق الجن والإنس فيقول تعالى: (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبُدون. ما أُريد مِنهُم مِن رزق وما أُريدُ أن يُطعِمُون. إنَّ اللهَ هو الرزاقُ ذو القوةِ المتين)[3].

بل يبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه، سماواته وأرضه، لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم القادر على كل شيء، العليم بكل شيء. وهذه المعرفة هي باب كل هدى، ومفتاح كل خير، يقول سبحانه: (اللهُ الذي خلَق سبعَ سماواتٍ ومن الأرض مِثلَهُن يتَنزَّلُ الأمرُ بَينهُن لتعلموا أنَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير وأنَّ الله قد أحاط بكل شيء علماً)[4].

الإنسان إذن لم يُخلق لنفسه، فكل شيء في هذا الكون قد خلق ليؤدي خدمة لغيره. وهو كذلك لم يخلق لخدمة شيء آخر من مخلوقات هذا الكون،

(١) الأنعام: ١٦١-١٦٤.
(٢) محمد: ١٢.
(٣) الذاريات: ٥٦: ٥٨.
(٤) الطلاق: ١٢

فكل ما في الكون سُخر لخدمته، كما قال الله تعالى: (ألم تَرَوْا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السّماواتِ وما في الأرضِ وأسْبَغَ عليكُم نِعمهُ ظاهرة وباطنة)[1]

كل ما في الكون قد خلق للإنسان. أما الإنسان نفسه فقد خلق لله جل جلاله.. لمعرفته وعبادته، وأداء أمانته في الأرض. وكفى بهذا شرفاً وفخراً، فهو سيد في الكون، عبدلخالقه وحده.

من ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجه ـ فوائد وأثاراً جمة في النفس والحياة، يجني الإنسان ثمارها في هذه الدنيا، فضلاً عن ثمراتها في الآخرة. وهي ثمار في غاية الأهمية.

فمن آثار هذه الربانية وثمراتها:

أولاً: معرفة غاية الوجود الإنساني:

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية، ويعرف لمسيرته وجهة. ويعرف لحياته رسالة، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى، ولعيشه طعماً ومذاقاً، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة في الفضاء، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه، فلم يعرفوا: لماذا وجدوا؟ ولماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟

كلا، إنه لا يعيش في عماية، ولا يمشي إلى غير غاية، بل يسير على هدى من ربه، وبينة من أمره، واستبانة لمصيره، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية.

إنه لا يقول ما قاله الشاعر الحائر المرتاب:

لَبِســـتُ ثـــوبَ العيشِ لم أُستشر وحـرت فيـــه بين شتى الفكـــر؟
وســوف أنضـو الثـــوب عني، ولم أدر: لماذا جئـت؟ أيـن المفـــر؟!

---

(١) لقمان: ٢٠

أو ما قاله الآخر:

جئتُ لا أعلمُ من أين ولكني أتيــــــت!

كلا .. فقد اتضحت وجهته الربانية، وعرف من أين جاء، ولم جاء، وإلى من فراره، وأين قراره. إن حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما رد به إبراهيم خليل الرحمن على عبدة الأوثان فقال: (فإنَّهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين. الذي خلَقني فهُو يَهدين. والذي هو يُطعِمُني ويَسقين. وإذا مَرِضتُ فهو يَشفين. والذي يُميتِني ثم يُحيين والذي أطمعُ أن يغفِرَ لي خطيئتي يومَ الدين)(١).

ثانياً: الاهتداء إلى الفطرة:

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها، أن يهتدي الانسان إلى فطرته التي فطره الله عليها. والتي تطلب الإيمان بالله تعالى، ولا يعوضها شيء غيره، يقول تعالى: (فأقم وجهكَ للدينِ حنيفاً، فِطرة اللهِ التي فَطر الناسَ عليها، لا تبديل لخلقِ الله)(٢).

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسباً رخيصاً. بل هو كسب كبير، وغنى عظيم، فيه يعيش المرء في سلام ووئام مع نفسه، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله، فالكون كله رباني الوجهة، يسبح بحمد الله: (وإن من شيء إلا يُسبِّحُ بحمده)(٣).

والحقيقة أن في فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم، ولا ثقافة ولا فلسفة، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا.

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر، والجوع والظمأ، حتى تجد الله، وتؤمن به، وتتوجه إليه.

هناك تستريح من تعب، وترتوي من ظمأ، وتأمن من خوف، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة، والاستقرار بعد التخبط، والاطمئنان بعد القلق، ووجدان

(١) الشعراء: ٧٧-٨٢.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الإسراء: ٤٤.

المنزل والأهل بعد طول الغربة، والضرب في أرض التيه.

فألقَتْ عصاها واستقر بها النوى كما قَر عيناً بالإياب المسافرُ

فإذا لم يجد الإنسان ربه ـ وهو أقرب إليه من حبل الوريد ـ فما أشقى حياته وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة، لن يجد نفسه ذاتها: (كالذين نَسُوا اللهَ فأنساهُم أنْفُسَهُم)[1].

فتصور إنساناً يعيش دون أن يجد نفسه، وهو في رأي نفسه، وفي نظر الناس بشر عاقل، سميع بصير، بل لعله جامعي مثقف، ولعله ـ فوق ذلك ـ، «دكتور» كبير في العلوم أو الآداب!

وكيف يجد نفسه من لم يعرفها؟ وكيف يعرفها من حُجبَ عنها بالغرور والكبر؟، أو شُغِل عنها باتباع الشهوات، والإخلاد إلى الأرض، والغرق في لذائذ الحس، ومطالب الجسد والطين؟

إن الإنسان خَلقٌ عجيب، جمع بين قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فمن عرف جانب الطين، ونسيَ نفخة الروح، لم يعرف حقيقة الإنسان.

ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه وريه مما أنبتت الأرض، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه من الإيمان ومعرفة الله، فقد بخس الفطرة الإنسانية حقها، وجهل قدرها، وحرمها ما به حياتها وقوامها.

قال ابن القيم[2] ـ رحمه الله:

«في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله».

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه.

---

(١) الحشر: ١٩.

(٢) في كتابه «مدارج السالكين».

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره، ونهيه، وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقة أبدا».

وهذا ليس كلام عالم فحسب، بل كلام ذائق مجرب، يقول ما خبره وأحس به في نفسه، وما رآه ولاحظه في الناس من حوله.

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التي لا تجد سكينتها إلا في الاهتداء إلى الله والإيمان به، والالتجاء إليه.

إنها الفطرة التي لم يملك مشركو العرب في جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعناداً:

(ولَئِن سَأَلتَهُم مَنْ خَلَقَ السماوات والأرضَ وسخَّر الشمسَ والقمرَ لَيَقُولُنَّ الله)[1].

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات، وقد تنحرف، وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء، أو الطاعة العمياء للسادة والكبراء. وقد يُصاب الإنسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده، ويستغني عن الله!!

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولا تموت، وتكمن ولا تزول. فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة وكوارثها ما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس في دفعه، ولا رفعه، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة. وتبرز الفطرة العميقة الكامنة، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس، داعياً ربه، منيباً إليه. كما قال تعالى:

(وإذا مَسَّكُم الضُّرُّ في البحر ضَلَّ مَن تَدعُون إلا إياهُ)[2].

---

(١) سورة العنكبوت: ٦١ وقد تكرر هذا المعنى في عدة سور.

(٢) الإسراء: ٦٧.

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم، والأديان، والحضارات فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين، ويتعبد، ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين:

«لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد».

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة في جميع الأعصار، هي تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم: (أن اعبُدوا الله واجتَنِبُوا الطاغوت)[١]، (اعبُدوا اللهَ ما لكمُ من إله غَيرُهُ)[٢].

أما وجود الله تعالى فكان أمرا مسلما به، مفروغا منه، لدى كافة الأمم في كل الأزمنة والعصور، ولم يجادل فيه الا قلة مسحوقة لا يقام لها وزن. ولهذا لم يَشْغَلْ رسلُ الله أنفسَهم باثبات وجود الله، واقامة الأدلة عليه، بل باثبات وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة دون غيره[٣]، وفي هذا يقول القرآن:

(وما أرسلنا من قَبلِكَ من رسُول إلا نُوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبُدون)[٤].

ثالثا: سلامة النفس من التمزق والصراع:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ ربانية الغاية والوجهة ـ سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات.

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى، وركز همومه في هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه.

(١) النحل: ٣٦.

(٢) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب في سورة الأعراف: الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، وقد تكرر بمعناه في عدة سور.

(٣) من كتاب: «الإيمان والحياة» للمؤلف ص ٩٤ ـ ص ٩٧.

(٤) الأنبياء: ٢٥.

ولا يريح النفس الإنسانية شيء كما يريحها وحدة غايتها، ووجهتها في الحياة، فتعرف من أين تبدأ، وإلى أين تسير، ومع من تسير.

ولا يُشْقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته، وتباين اتجاهاته، وتضارب نزعاته، فهو حيناً يُشرق، وحيناً يغرب، وتارة يتجه إلى اليمين، وطوراً يتجه إلى اليسار، ومرة يُرضي زيداً فيغضب عمرو، وأخرى يُرضي عمراً فيغضب زيد، وهو في كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومَنْ في الناس يُـرضي كـلَّ نفس   وبين هوى النفوس مدى بعيـد؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يُخاف ويُرجى، ولا إله إلا الله، يُجتْنب سخطه، ويُلتَمس رِضاه. وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه، ورضي بالله وحده رباً، وعليه يتوكل، وإليه يُنيب، وفي فضله يطمع، ومن قوته يستمد، وله يتودد، وإليه يحتكم، وبه يعتصم (ومَن يَعتَصِمْ بالله فقد هُدِيَ إلى صِراط مُستقيم)[١].

فأين هذا من المشرك بالله، الذي تعددت أربابه، وتضاربت وجهاته، وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد، وهم شركاء متشاكسون غير متوافقين، كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر، ويريد منه غير ما يريده. فهمه متفرق، وقلبه مشتت. يقول تعالى: (ضرب اللهُ مثلاً رجلاً فيه شُركاء متشاكِسُون ورجلاً سَلَماً لرجل[٢] هل يستويان مثلاً)[٣].

وقال يوسف عليه السلام لرفيقه في سجن عزيز مصر، وقد كانا كقومهم ممن يعبدون مع الله آلهة أخرى: (يا صَاحِبَي السجن أأربابٌ متَفَرِّقون خيرٌ أم الله الواحد القهار. ما تَعبُدون من دُونِه إلا أسماء سميتُموها أنتُم وآباؤكُم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبُدوا إلا إياهُ، ذلك

---

(١) آل عمران: ١٠١.

(٢) أي خالص الملكية لرجل واحد، لا شركة فيه ولا مشاكسة، فهو يعرف سيده، ويعرف ما يطلبه وما يرضيه، وكيف يرضيه. وهذا مثل المؤمن الموحد.

(٣) الزمر: ٢٩.

الدينُ القيم ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون)[1].

رابعاً: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

ومن ثمرات هذه الربانية: أنها ـ حين تستقر في أعماق النفس ـ تُحرر الإنسان من العبودية لأنانيته، وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية.

وذلك أن الإنسان «الرباني» يَقِفُه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه، ومتطلبات دينه. بين ما تدفعه إليه شهوته، وما يأمره به ربه. بين ما يمليه عليه الهوى، وما يمليه عليه الواجب، بين متعة اليوم، وحساب الغد، أو بين لذة عاجلة في دنياه، وحساب عسير ينتظره في أخراه.

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية، أفق الإنسانية المتحررة التي تتصرف بوعيها وإرادتها، لا بوحي بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية.

فإذا لم يرتق إلى هذا الأفق الوضيء، فإنه يظل رانياً إليه، حريصاً عليه، متشبثاً به. وإذا انحدر عنه يوماً، فسرعان ما يعود إليه تائباً من ذنبه مستغفراً لربه.

فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك، الذي لا يقع في خطيئة ولا خطأ. فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال. إنما الإنسان الرباني، هو الإنسان «الأواب» الذي يشعر بالتقصير كلما زلَّ، ويرجع إلى الله كلما أذنب: (إنه كان للأوابين غفورا)[2].

ولهذا عدد الله أوصاف المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض وكان منها: (والذين إذا فعلوا فاحِشة أو ظلموا أنفسَهُم ذكروا

---

(١) يوسف: ٣٩، ٤٠.
(٢) الإسراء: ٢٥.

اللهَ، فاستَغْفَروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون)[١].

ليس عجيباً إذن أن يتورط الإنسان في معصية الله، وتغلبه شهوته وهواه، فقديماً عصى آدم أبو البشرية ربه، وغره الشيطان حتى ارتكب ما نهاه الله عنه من الأكل من الشجرة، ولكنه ما أسرع ما تاب وأناب، وقرع باب ربه بالاعتراف والاستغفار: (ربَّنا ظلمنا أنفُسَنا، وإن لم تَغفِرْ لنا وترحَمنا لنكُونن من الخَاسِرين)[٢]. (فتلقَّى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه، إنه هو التوابُ الرحيم)[٣].

ولقد عصى آدم، وعصى إبليس، فغفر لآدم، ولم يغفر لإبليس، لأن معصيةَ آدم كان سببها الضعف والنسيان: (فنَسِيَ ولم نَجِد لهُ عزماً)[٤] ثم أعقبتها توبة نصوح تمحو أثر الذنوب، كما تمحو إشراقة الصبح ظلمة الليل، (ثم اجتباهُ ربُّه فتابَ عليه وهدى)[٥] أما معصية إبليس فكان سببها الكبرَ والتمرد على أمر الله: (قال أنا خيرٌ منه، خَلَقتني من نار وخلقْتَهُ من طين)[٦] ولم يعقبها إلا الإصرار على الضلال والإضلال: (قال فبما أغويْتَني لأقْعُدَنَّ لهم صِراطكَ المستقيم. ثم لآتيَنَّهم من بين أيديهم ومن خلفِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تَجدُ أكثرَهُم شَاكرين)[٧].

إن الإنسان الرباني قد تتاح له الشهوة الحرام، تعرض عليه بلا رقيب ولا حسيب من البشر، فيدعها حياء من الله، وحرصاً على أن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فيقول ما قال يوسف الصديق حين راودته امرأة العزيز عن نفسه: معاذ الله.

---

(١) آل عمران: ١٣٥.
(٢) الأعراف: ٢٣.
(٣) البقرة: ٣٧.
(٤) طه: ١١٥.
(٥) طه: ١٢٢.
(٦) سورة ص: ٧٦.
(٧) الأعراف: ١٧.

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له المال الحرام، عن طريق الرشوة السافرة أو المقنَّعة، أو استغلال المنصب والنفوذ، أو غير ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، فيرفضه، راضياً بالقليل، قانعاً بالحلال، موقناً أن كل لحم نبت من حرام فإن النار أولى به، وهو لا يُحب أن يشتري جهنم بشيء ولو كان ملك المشرق والمغرب.

حسبه أن يتلو قول الله تعالى: (قُل بفضل اللهِ وبرحمَتهِ فبذلك فَليفرحُوا هو خيرٌ مما يجمعون)[١].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له الجاه والمنصب الحرام عن طريق موالاة المعتدين، أي معاونة الظالمين، أو السير في ركب الطاغين، فيأبى عليه دينه، وينهاه إيمانه، متذكراً قول الله تعالى: (ولا تَركَنُوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكُمُ النارُ وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تُنصرون)[٢].

وإن الإنسان الرباني قد يتاح له أن يتمكن من خصمه، ويستطيع أن يُشفي منه نفسه، وأن يرد له الصاع صاعين، فينقع غلته بالانتقام منه، ويستمتع بقهره وإذلاله، ولكن ربانيته السمحة تأبى عليه إلا أن يقف موقف العفو والصفح والسماح، فيقول ما قال يوسف لإخوته: (لا تثريبَ عليكُم اليومَ، يَغفِرُ اللهُ لكُم، وهو أرحمُ الراحمين)[٣]

تفاوت الغايات والأهداف لدى الأفراد:

والناس تتفاوت غاياتهم وأهدافهم ـ أفراداً وجماعات ـ تفاوتاً بعيداً، ويختلفون فيها اختلافاً شاسعاً، يرتفع فيه بعضهم إلى أفق الملائكة، وينزل به بعضهم إلى حضيض الشياطين.

وهذا في الواقع هو الاختلاف الأكبر والأعمق بين الناس: أعني الاختلاف على الأهداف.

---

(١) يونس: ٥٨.
(٢) هود: ١١٣.
(٣) يوسف: ٩٢.

أما الاختلاف على الوسائل والطرائق، فهو أخف وأهون، بعد الاتفاق على الغاية والوجهة:

وقد قال أحد الشعراء:

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات!

وكان أولى به أن يقول: غير أن الصيود - جمع صيد - مختلفات، لأن الخلاف الأكبر بين البشر، ليس على نوعية الشباك التي بها يحصلون على صيدهم. بل على الصيد ذاته: ماذا يكون؟ وأين يكون؟ وكم يكون؟ وكيف يكون؟!!

وإذا نظرنا إلى الأفراد وغاياتهم وجدناهم أصنافاً عديدة متنوعة:

(أ) فمنهم من يعيش حياته، غارقاً في لذات حسه، دائراً حول مطامح نفسه، فأقصى غايته، وجل اهتمامه، ومحور تفكيره، يدور حول عبادة «ذاته»، يطوف بها كالوثني بصنمه، لا يخترق حجاب الحس إلى ما وراء المادة، ولا يرنو ببصره إلى شيء وراء دنياه العاجلة، وشهواته البهيمية، ومطالبه المادية الأنانية الآنية.

وفي سبيل هذه الغاية، لا يبالي أن يضحي بكل ما يعوقه، ويقف في سبيله من القيم والمثل والمعتقدات، وبكل من يعوقه، ويقف في طريق شهواته من البشر.

يفعل ذلك جهرة إن ملك القدرة عليه، وكان ذا جاه وسلطان، وقد يرتكبه سراً وخفية، فراراً من طائلة العقاب والقانون.

في سبيل شهواته وأهوائه، ومطامعه ومصالحه، لا يهمه أن يبذل العرض، أو يهدر الشرف، أو يضيع الأهل والولد، أو يبيع الصديق، أو يخون الوطن، أو يتمرد على العقيدة.

لا يحجزه عن ذلك ضمير، فقد مات ضميره وأهيل عليه التراب، ولا إيمان، فلا إيمان لمن كان إلهه هواه، وشهوته معبوده. ولا عقل، فإن شهواته

عطلت عقله، وأهواءه أغلقت منافذ تفكيره: (ومن أضلُّ ممن اتبعَ هواه بغير هُدى من الله)(١).

وقد عرفنا هذا الصنف «الأناني» وجربناه، وعانينا منه الأمرين، ولاقت الأمم قديماً وحديثاً على يديه الويلات بعد الويلات.

وعليه نبه القرآن الكريم في كثير من آياته، مثل قوله تعالى: (ولقد ذَرَأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقَهُون بها ولهم أعيُن لا يُبصِرُون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولٰئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون)(٢).

وفي سورة أخرى يقول: (أرأيتَ من اتخذ إلٰهَهُ هواهُ أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تَحسَبُ أنَّ أكثرهُم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هُم أضلُّ سبيلاً)(٣).

هذا الصنف البهيمي الأناني ـ عابد هواه ـ قد خرب أجهزة المعرفة التي منحه الله إياها من الأسماع والأبصار والقلوب، وعاش حياة أدنى مرتبة من حياة الأنعام وأضل سبيلا.

وإنما كانت كذلك لأمرين:

أولهما: أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود. فلم تر بقرة تمردت على أن تحلب، ولا جملاً تمرد على أن يُركبَ، وإنما تؤدي رسالتها في خدمة الإنسان.. تحرث الأرض، وتسقي الحرث، وتحمل الاثقال، وتدر اللبن، وتعطي من أشعارها، وأصوافها، وأوبارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

والثاني: أن هٰذه الأنعام لم تُؤتَ ما أُوتيَ الإنسان من المواهب الفكرية والروحية، ولم يسخر لها ما في السماوات وما في الأرض، ولم يبعث لها رسول، ولم ينزل عليها كتاب.

---

(١) القصص: ٥٠.
(٢) الأعراف: ١٧٩.
(٣) الفرقان: ٤٣، ٤٤.

وإنما الذي أُوتيَ هذا كله هو الإنسان، فإذا أهمل هذه النعم، ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب، كان ـ بلا ريب ـ أضل منها سبيلا.

(ب) ومن الناس من لا هدف له في الحياة إلا إذلال الناس، والإضرار بهم، والكيد لهم، كأن رسالته التي خلق لها هي الإفساد في أرض الله، والعدوان على خلق الله.

استحالت نعم الله في يديه إلى سياط للايذاء، وأسلحة للفتك، وآلات للتدمير.

هذا الصنف كالذي قبله، يعيش لدنياه العاجلة ولأنانيته البشعة ولكن يفترقان في المزاج فقط.

فإذا كان اتجاه الصنف الأول أنانياً شهوانياً، فهذا ترى اتجاهه أنانيا عدوانياً.

الصنف الأول فقد خصيصة الإنسان، واستحال إلى حيوان. وهذا الصنف فقد كذلك خصيصة الإنسان، ولكنه استحال إلى شيطان.

فالشيطان لا هم له إلا الإفساد والكيد والتضليل والإغواء. وهذا الصنف هو الذي لعنه الله وذمه في كتابه بقوله: (والذين ينقضُونَ عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمرَ الله به أن يُوصَلَ، ويفسِدون في الأرض، أولٰئك لهُمُ اللعنةُ، ولهم سوءُ الدار)[1]

هذا الصنف إذا تمكن من رقاب البشر يوماً ما بولاية أو رياسة أو نفوذ، وجدته نمروداً كنمرود إبراهيم يقول: أنا أحيي وأميت، كما يحي الله ويميت! أو فرعوناً كفرعون موسى، يذبح الابناء، ويستذل النساء! أو طاغية كنيرون روما أو غيره من جبابرة التاريخ.

فإذا لم يكن له سلطان نمرود ولا فرعون، كان طاغية صغيراً، أو ذليلاً

(١) الرعد: ٢٥.

لطاغية كبير.

والقرآن قد حكم بالإثم والهلاك على فرعون ووزيره وجنوده جميعا، لأن الذي يخلق فرعون الكبير إنما هم أعوانه من الفراعنة الصغار. قال تعالى: (إن فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطِئين)[1] وقال سبحانه: (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهُم أئمة يدعون إلى النار، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرُون. وأتبعناهُم في هذه الدنيا لعنَة، ويوم القيامة هُم من المقبوحين)[2].

قـد يغطي هذا الصنف الذي خَبُثَ باطنه بظاهر مزخرف، ولسان يخدع الناس بمعسول القول، وحلو الكلام.

فإذا سبرت غوره، لم تجد وراء هذا الظاهر إلا باطناً خراباً، وضميراً ميتاً، ونفساً متطاولة على الخلق، مستكبرة عن الحق، مقبلة على الشر، معرضة عن الخير. كذلك الذي وصفه القرآن فقال: (ومِنَ الناسِ من يُعجبُكَ قولُه في الحياةِ الدُّنيا، ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخِصَام. وإذا تولى سَعى في الأرض ليُفسِدَ فيها، ويُهلِكَ الحرث والنسلَ، واللهُ لا يُحب الفساد. وإذا قِيل لهُ اتق الله أخذته العزة بالإثم، فحسبُه جهنم، ولبئسَ المِهَاد)[3].

(حـ) وثمت صنف آخر غير هذا وذاك:

صنف لا يعبد نفسه، ولا يدور حول ذاته دوران الحمار في الرحا، أو الثور في الساقية!

إنه يعبد الله وحده لا شريك له، فهدفه مرضاته، وغايته محبته، والقرب منه وحسن الاتصال به، لا يريد إلا وجهه، ولا يبتغي إلا مثوبته. لا يحب ولا يبغض إلا فيه، ولا يعطي ولا يمنع إلا له.

أما الدنيا، فهي عنده أداة لا هدف، ووسيلة لا غاية، فهو يملكها ولا

---

(١) القصص: ٨.
(٢) القصص: ٤٠-٤٢.
(٣) البقرة: ٢٠٤-٢٠٦

تملكه، ويسخرها ولا تسخره، ويجعلها في يده، ولكن لا يملأ بها قلبه.

إنه يدعو ربه بما دعا به محمد عليه الصلاة والسلام: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا».

وهذا هو الصنف «الرباني» الذي عاش لله وبالله.

صلاته ونسكه لله، ومحياه ومماته لله، ونيته وعمله لله، وجهده وجهاده لله.

إنه يفعل الخير للناس، ويسدي المعروف للضعفاء والمساكين، ولكنه لا يطلب منهم ثمناً لمعروفه، لأن غايته أن يحمده الله لا أن يحمدوه، وأن يرضى عنه الله لا أن يُرضوه: (ويُطعِمون الطعامَ على حُبه مِسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله، لا نُريدُ منكمُ جزاءً ولا شكورا)[1].

إنه يكف يده عن الشر، ولسانه عن الأذى، ولا يقابل السيئة بالسيئة، بل يدفع بالتي هي أحسن، لا خشية من أحد بل خشية من الله جل جلاله.

ألم تر إلى ابن آدم المؤمن الخير، حين هدده أخوه بالقتل، لم يرد عليه السوء بمثله، بل قال في أدب وكرم: (لئِن بسطتَ إليَّ يدك لِتقتُلنِي ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخافُ الله رب العالمين)[2].

إنه يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويُصلح بين الناس، ويُميط الأذى عن الطريق.

إنه يعلم الجاهل، ويهدي الحائر، ويرشد الضال.. لا يطلب جزاءه إلا من الله، وشعاره في ذلك ما ذكره الله تعالى على ألسنة رسله، حين قال كل رسول لقومه: (وما أسألُكُم عليه من أجرٍ، إن أجري إلا على رب العالمين)[3].

إنه يضع رأسه على كفه، ويقدم روحه فداء للحق، ويبذل النفس والمال

---

(١) الإنسان: ٨، ٩.

(٢) المائدة: ٢٨.

(٣) الشعراء: ١٠٩.

ذياداً عن القيم والحرمات. ولكنه لا يفعل هذا ليذكر اسمه في قائمة الابطال، ولا ليرى مكانه، وتتحدث عنه اجهزة الأعلام، ولا ليحوز غنيمة دنيوية، ولكن لتكون كلمة الله هي العليا، وليوفي بالصفقة التي عقدها الله معه حين اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

والعجيب أن هذا الصنف الذي فني عن حظ نفسه من أجل حق ربه، والذي نسي ذاته وذكر الله وحده. هذا الصنف هو الوحيد الذي يعمل في الحقيقة من أجل نفسه: من أجل نجاتها وسعادتها.

إنه ـ عند التأمل ـ أوعى الأصناف وأحرصها على سعادة نفسها ولكنه ـ بنور بصيرته، وعمق تفكيره ـ لم يبع آجلاً بعاجل، ولا باقياً بفان. وقد قال أحد حكماء الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني. فكيف إذا كانت الدنيا هي الخزف الفاني، والآخرة هي الذهب الباقي؟!

والحقيقة التي لا ريب فيها، أن النسبة بين هذه الحياة الدنيا، وبين الآخرة، أكبر وأبعد وأعمق مما بين الخزف، والذهب بكثير وكثير. ولكن الأمثال تضرب للتقريب والتوضيح.

ولا شك أن أخسر الناس، وأظلمهم لنفسه، من حرمها سعادة الأبد، ونعيم الأبد، من أجل متعة عارضة، وشهوة زائلة.

وإن أربح الناس بضاعة من باع لذة فانية، أو شهوة عاجلة، واشترى جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: (فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قُرة أعيُن جزاءً بما كانوا يعملون)[١].

والواقع أن هذا الصنف لم يخسر دنياه حين آثر آخرته، فوجه لها إرادته، وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

لقد كسب الحياتين، وجمع الحسنتين: حسنة الدنيا، وحسنة الآخرة اللتين

---

(١) السجدة: ١٧.

يحرص عليهما المؤمنون، ويسألونها الله سبحانه: (ربنا آتنا في الدُّنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة)[1].

إن الربانية قد تحرم الإنسان من بعض اللذائذ العاجلة، وبعض المنافع القريبة، ولكنها تحميه بهذا الحرمان ـ من شرور ومخاطر كانت ستعود بالضرر المؤكد عليه، أو على مجتمعه، أو على الإنسانية.. كما سنشير إلى ذلك بعد.

وهي مع هذا تمنحه ـ في مقابل هذا الحرمان الجزئي الموقوت ـ سكينة نفسية، وطمأنينة روحية، لا تقدر قيمتها بمال، لأنها هي سر السعادة التي ينشدها كافة البشر، فلا يجدها إلا القليل.

وهي السعادة التي قال فيها بعض المؤمنين الذين ذاقوا حلاوتها:

«لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!»

لقد كان الصنف الأول هو الإنسان الحيواني.

وكان الصنف الثاني هو الإنسان الشيطاني.

أما هذا الصنف الثالث فهو الإنسان الرباني.

إن تسمية كل من الصنفين الأولين بالإنسان تسمية مجازية. أما الصنف الثالث فهو وحده الإنسان.

وسائل الإسلام لغرس الربانية في النفس والحياة:

والإسلام يسعى إلى غرس هذه الربانية في نفس كل مسلم وفي حياته، بوسائل شتى، وأساليب متنوعة.

طريق العبادات:

عن طريق العبادات المفروضة لزوماً، والمندوبة استحباباً: من صلاة تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات، هي للروح أشبه بالوجبات للجسم، تجعل المؤمن دائماً على موعد مع الله تعالى. كلما غرق الإنسان في لجج الحياة اليومية ومشاغلها، قام المؤذن ينادي الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على

(١) البقرة: ٢٠١.

الفلاح، فينتشل المسلم نفسه من دنياه ـ دنيا الصراع والمتاع ـ ليقف بين يدي ربه دقائق يفضي إليه فيها بذات نفسه، داعياً بالخير لنفسه ولأمته، مترقياً من المادية إلى الروحية، ومن الأنانية إلى الغيرية، سائلاً ربه بلسان الجماعة كلها: (اهدنا الصراط المستقيم)[1].

ومن صيام يتكرر شهراً في كل عام، يحرم المسلم فيه نفسه من شهوات الطعام والشراب والجنس، كل يوم من تبين الفجر إلى غروب الشمس، تربية للإرادة، وتدريباً على التقوى، وعلى كمال العبودية لله سبحانه. وفي هذا يقول الحديث القدسي: «الصيام لي وأنا أجزي به، يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أجلي، ويدع زوجته من أجلي، ويدع لذته من أجلي».

ومن زكاة يغالب بإخراجها شح نفسه، ويزكي بها ماله وروحه، ويشكر بها نعمة ربه عليه، وفي هذا يقول القرآن: (خذ من أموالهم صدقة تُطَهِّرهُم وتُزَكّيهِم بها)[2] ولهذا سميت «زكاة» لما توحي به هذه الكلمة من معاني الطهارة والنماء والبركة، على عكس كلمة «الضريبة» التي توحي بمعنى القهر والإجبار والغرامة. ولهذا يطلب من المسلم أن يؤديها طيبة بها نفسه، داعياً ربه أن يتقبلها منه قائلاً: «اللهم اجعلها مغنماً، ولا تجعلها مغرماً».

ومِن حج، يُفارِقُ فيه المسلم وطنه ومسقط رأسه، ويدع أهله وعشيرته، مهاجراً إلى الله، باذلاً من نفسه وماله، ومحتملاً المكاره والمشقة في ذات الله، حتى يصل إلى الأرض المقدسة، حيث أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض، وحيث ذكريات إبراهيم وإسماعيل، وهاجر عليهم السلام من قبل، وذكريات محمد ـ ﷺ ـ ودعوته من بعد.

هنالك يتجرد المسلم من ثيابه المعتادة ـ بما تحمله من مظاهر التفاوت والطبقية والعنصرية والإقليمية ـ ليلبس ثياباً أشبه بأكفان الموتى، مستعلياً على المادية ومظاهرها، متجهاً إلى الله بقلبه ولسانه، شعاره ونشيده: «لبيك اللهم

---

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) التوبة: ١٠٣.

لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » .

وفوق هذه الفرائض الأساسية الحتمية، التي هي الحد الأدنى لتكييف علاقة المسلم بالله ـ يفتح الإسلام باب التطوع بالخيرات، والتقرب إلى الله بالنوافل والمستحبات، من صلوات بعد الخمس المكتوبة، ومن صيام بعد رمضان المفروض، ومن صدقات بعد الزكاة الواجبة، ومن حج وعمرة بعد حجة الفريضة. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ويتسابق المتقون.

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري: عن الله تعالى: « ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها . . ، ولئن استعاذني لأعيذنه، ولئن سألني لأعطينه » .

ليس المقصود بهذه العبادات ـ فرضها ونفلها: أن تصل المسلم بخالقه لحظات أدائها فقط ثم ينفرط عقده بعد ذلك، ويخلد إلى الأرض، ويتبع هواه.

كلا، فإن مهمة هذه العبادات أن تغرس في ضمير مؤديها روح التقوى لله جل شأنه، وأن تمنحه شحنة روحية تذكره بالله كلما نسي، وتقوي عزمه كلما ضعف، وتنير طريقه كلما انطفأت من حوله المصابيح.

لا يرضى الإسلام أن يكون المسلم « ربانيا » في المسجد يركع ويسجد ويتشرع ويبتهل، فإذا خرج من المسجد انقلب من رباني إلى « حيواني »، أو « شيطاني » .

ولا يرضى من المسلم أن يكون « ربانياً » في « رمضان »، فإذا طويت أعلام رمضان طويت معه العبادة والطاعة لله، كأنما كان يعبد رمضان لا رب رمضان. ولهذا كان السلف الصالح من المسلمين يقولون: كن ربانياً ولا تكن رمضانياً .

ولا يرضى من المسلم أن يكون «ربانياً» طالما كان بجوار البيت الحرام، والمسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمشاعر المقدسة، فإذا أتم نسكه، وقضى حجه، وعمرته، وزيارته، وشرع في رحلة العودة، نسيَ «الجو الرباني»، و «المعنى الرباني»، وغرق في لجة الحياة المادية كما يغرق الغافلون.

أجل، لا يرضى الإسلام ذلك للمسلم، وإنما يريد له صلة دائمة بمولاه، في المسجد، والطريق، والبيت، والعمل، في رمضان وشوال وسائر الشهور، في جو المناسك الطهور في مكة، وعرفات، والمدينة، وبعد العودة إلى الأوطان، في كل مكان، وكل زمان، وكل حال.

ولهذا يوصي النبي - ﷺ - فيقول: «اتق الله حيثما كنت»[1].

ويقول القرآن: (ولله المشرقُ والمغربُ، فأينما تُولُّوا فَثَمَّ وجهُ الله)[2].

ويقول الرسول: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها وإن قل»[3].

طريق الآداب:

وهناك طريق آخر لغرس الربانية في ضمير المسلم وفي حياته. ذلك هو طريق الآداب اليومية التي تتخلل حياة المسلم: من الأكل والشرب، واللبس والتزين، والنوم واليقظة، والركوب والسفر، والجلوس والمشي، إلى غير ذلك من الأحوال الفردية والاجتماعية.

فالإسلام ينتهز فرصة هذه الأمور التي لا تخلو منها حياة الإنسان، ليربط المسلم عن طريقها بالله تعالى.

فإذا جلس على مائدة طعامه وأراد أن يبدأ الأكل، ذكر الله الذي هيأ له الأسباب حتى وصل إليه هذا الرزق الطيب، فكانت بدايته: «بسم الله».

وإذا أحس بالشبع، وفرغ من طعامه، كان ختامه: «الحمد لله» وإذا شرب

(١) رواه الترمذي.
(٢) البقرة: ١١٥.
(٣) رواه البخاري.

الماء قال: الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا!

وإذا لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي كساني هذا من غير حول مني ولا قوة. اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له.

وكذلك يقول هذا الدعاء عند كل نعمة يستفيدها.

وإذا ركب دابة أو سيارة أو نحوها قال: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مُقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

وإذا شرع في سفر قال: اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا.

وإذا عاد من سفره قال: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

وإذا وضع جنبه ليخلد إلى النوم قال: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه.

وإذا استيقظ لينطلق في موكب الحياة قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

حتى لحظة الاستمتاع بالشهوة الجنسية ـ وهي شهوة حيوانية عاتية ـ لا ينسى المسلم العنصر الرباني، الذي يخفف من سعار الشهوة، وينقل صاحبها إلى أفق أرفع، حين يقول إذا أتى زوجته: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا.

وهكذا كلما دارت ساقية الحياة بالمسلم، لم يغفل عن ربه، ولم ينس صلته به، بل يظل شاعرا بقربه منه، وأنسه به، ومعيته له، فالمعاني «الربانية» تدور معه حيثما دار، وتسير معه أينما سار.

طريق التربية والتكوين:

وثمت طريق ثالثة لغرس الربانية وتثبيتها، ولعلها أعظم الوسائل خطراً،

وأبعدها أثراً، وهي التربية.

فلا بد أن تقوم التربية في البيت أولاً - وفي المدرسة ثانياً - على غرس هذه الربانية في عقول الناشئة وضمائرهم، باستخدام أحسن الوسائل وأفضل الأساليب.

وإذا كان الأب مسؤولاً عن تغذية طفله مادياً، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال، أو للمرض، أو للموت، فهو مسؤول عن تغذيته روحياً، فلا يجوز له أن يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطراً من هزال البدن أو مرضه، أو حتى موته. وذلك حين يتعرض لموت «القلب» أو «الروح» وفي ذلك هلاكه للأبد!

ومن هنا كانت المسؤولية خطيرة «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهلِيكُم ناراً)[2].

ومن هنا أمر الآباء أن يدربوا أبناءهم على طاعة الله، وأداء فرائضه منذ بلوغهم سناً يقبلون فيها التعليم، وهي السابعة، والتشديد عليهم إذا بلغوا العاشرة كما جاء في الحديث: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر»، والأمر بالضرب هنا ليس مقصوداً به التعذيب أو التنكيل، ولكن لإشعار الصبي والصبية بمدى جدية الأب في طلبه للعبادة، وغضبه من عصيانه في ذلك، كما يغضب من أي أمر يطلبه من ولده فيرفضه، ولا يلقى له بالاً.

والأم شريك الأب في المسؤولية، فهي راعية في بيتها، ومسؤولة عن رعيتها، كما أكد ذلك النبي - ﷺ -، ولعل مخالطتها للصغار - وبخاصة البنات - وتأثيرها فيهم يكون أقوى من الأب في كثير من الأحيان.

والمدرسة مسؤولة كذلك عن تربية أبنائها وبناتها على معاني الربانية.

ولا يكفي المدرسة أبداً أن تزود التلميذ بالخبرات والمهارات، المادية والفنية، أو بالحقائق والمعلومات عن البيئة والحياة من حوله. ثم تدعه ضالاً جاهلاً

(١) متفق عليه.
(٢) التحريم: ٦.

بقضايا الوجود الكبرى، التي تحيره، وتلقي عليه أسئلة لا يجد لها جواباً من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وإلى أين يذهب بعد رحلة الحياة؟ وهل له من رسالة بين مجيئة وذهابه، أو بين حياته وموته؟ وما هي؟ومن يملك تحديدها؟ وما جزاؤها إن هو أداها على وجهها، أو فرط في أدائها؟

إن الإيمان بالله هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة بما يقنع العقول، ويريح الضمائر، ويشرح الصدور، أعني إيمان الإسلام خاصة، لأنه هو الذي خلا من أغاليط البشر، وأوهام البشر، وشطحات البشر، وتناقضات البشر.

والمدرسة التي لا تغرس الإيمان في النفس، لا تخرج إلا أجيالاً حائرة متناقضة، تركب سفينة الحياة، وتخوض عباب محيطها المضطرب، بلا ربان ولا مرشد، ولا خريطة ولا «بوصلة» ولا منار، لا تهتدي إلى شاطىء، ولا أمل في أن تهتدي.

إن التربية والتعليم من مهمة النبوة، وقد كان مما امتن الله به على العرب أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم: (يتلوا عليهم آياتِهِ ويُزكّيهم ويُعلمهُم الكتابَ والحكمة)(١)

وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إن الله بعثني معلماً ميسراً».(٢)

وأشاد بفضل المعلمين فقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلمي الناس الخير»(٣).

وأعظم خير يعلم للناس، أن يعرفوا ربهم، فيعرفوا بذلك مبدأهم ومصيرهم وسر وجودهم.

أي: يعرفوا أنفسهم على حقيقتها، فمن عرف ربه فقد عرف نفسه. كما أن من عرف نفسه ـ كما هي ـ فقد عرف ربه.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

طريق الإعلام والتوجيه والتثقيف الشعبي العام:

والتثقيف، والتوجيه والإعلام ـ بكل مؤسساته وأجهزته ووسائله ـ يجب أن ترعى هذه الربانية وتؤكدها.

المساجد، بخطبها، ودروسها، ومواعظها، وصلواتها، وما لها من إشعاع روحي وفكري وأخلاقي.

الإذاعة المسموعة والمرئية: ببرامجها الثقافية والترفيهية والإخبارية. وبكل ما تملكان من تأثير على الأفكار، والعواطف والعزائم.

الصحافة: اليومية والأسبوعية والشهرية والفصلية والسنوية، بصورها وكلماتها، بأخبارها وتعليقاتها.

الكتب، بكل أنواعها وألوانها وموضوعاتها: في العلوم والآداب والفنون، الشعر والنثر، والقصة والمسرحية، الكتب الأكاديمية والكتب الشعبية، دوائر المعارف والموسوعات، والوسائل والكتيبات.

المسرح والسينما، بما لها من تأثير عن طريق الحدث والصورة، والكلمة والحوار.

كل أدوات التأثير والتوجيه يجب أن تتعاون جميعاً في تحقيق «الربانية»، وتأكيدها وتثبيتها في النفس والحياة، هدفاً وغاية لسعي الإنسان، وحركة الإنسان.

ولا يجوز في نظر الإسلام أن يترك للمساجد وحدها مهمة تأكيد «الربانية» وتثبيت مبانيها، وتوضيح معانيها، في حين تعمل المؤسسات التوجيهية والإعلامية والتثقيفية الأخرى على إشاعة معان أخرى تناقض الربانية، أو تشكك فيها، أو تنتقصها من أطرافها.

وكيف يؤدي المسجد رسالته إذا كانت الأجهزة الأخرى ـ وهي تصابح الناس وتماسيهم بامكاناتها الرهيبة ـ تخفض ما يعليه، وتهدم ما يبنيه؟

وهــل يبلــغ البنيــانُ يــومــاً تمامــه   إذا كنــتَ تبنيـــه وغيرُك يهدِمُ؟!

على أن كل مؤسسة في مجتمع الإسلام لا تستمد حق بقائها فيه إلا بمقدار ما تسهم به في الحفاظ على ربانيته، التي هي أساس وجوده، سواء كان هذا الإسهام مباشرة أم غير مباشرة، من قريب أم من بعيد.

بل يأمر الإسلام بهدم كل مؤسسة لا تقوم على تقوى من الله ورضوان، ولو اتخذت صورة المسجد الذي تؤدى فيه الصلاة ظاهراً، كما أمر الله رسوله ﷺ بهدم مسجد الضرار الذي اتخذه المنافقون ضراراً، وكفراً، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.

طريق التشريع:

ويأتي دور التشريع، ليقوم بحياطة «الربانية»، وتقويتها، وحمايتها من كل أذى أو عدوان عليها، أو انتقاص منها.

ولهذا يرفض المجتمع المسلم الإلحاد والإباحية، ويعاقب على الردة والفسوق أعني على الجهر بهما.

فأما من استخفى بكفره أو بفسقه، فحسابه على الله، لأن المستخفي لا يضر إلا نفسه.

أما المجاهر المعالن فيضر المجتمع كله، عن طريق العدوى، أو تطاير الشرر. ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة تارك الصلاة والمجاهر بالإفطار في رمضان، وإن اختلفوا في تحديد العقوبة، حتى وصل بها بعضهم إلى حد القتل لتارك الصلاة خاصة، إذا أصر على تركها عمداً بلا عذر. أما من تركها استخفافاً بحرمتها، أو إنكاراً لفرضيتها، فهو مارق يعاقب عقوبة المرتدين بالإجماع.

وليس في هذا ـ أي عقوبة المرتد والإباحي، وهدم مؤسسات الكفر والنفاق ـ مصادرة للحرية، فإن حرية الفرد مقيدة بألا تمس نظام المجتمع، وأسسه العقائدية والاجتماعية. كما أن حرية المرتد في المجاهرة بردته تصطدم

بحرية المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم، وهم جمهور المجتمع وسواده الأعظم، فكانت رعاية حريتهم أولى.

★ ★ ★

٢ - ربانية المصدر والمنهج:

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية، وهو ربانية الغاية والوجهة، وبقي المعنى الآخر، وهو ربانية المصدر والمنهج. ونعني به أن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه، منهج رباني خالص، لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو إرادة شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور، والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده. كما قال تعالى يخاطبهم: (يا أيُّها الناسُ قد جَاءكُم بُرهان من ربكُم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)[١]، (يا أيُّها الناسُ قد جاءتكُم مَوعِظةٌ من ربّكم وشِفاءٌ لما في الصدور وهُدىً ورحمة للمؤمنين)[٢].

وقال يخاطب رسوله:

(وما أرسلنَاكَ إلا رحمةً للعالمين)[٣].

(ونَـزَّلنـا عليـكَ الكتـابَ تِبيـانـاً لكـلِّ شيء وهُـدىً ورحمة وبُشرى للمسلمين)[٤].

(كتابٌ أنزلناه إليك لتُخرِجَ الناسَ من الظُّلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صِراط العزِيز الحميد)[٥].

---

(١) النساء: ١٧٤.
(٢) يونس: ٥٧.
(٣) الأنبياء: ١٠٧.
(٤) النحل: ٨٩.
(٥) إبراهيم: ١.

موضوع الرسول في هذا المنهج الإلهي:

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج، ولهذا يُضاف إليه فيقال: منهج الله، أو «صراط الله» على حد تعبير القرآن العزيز، وإضافته إلى الله تعنى أن الله ـ جل شأنه ـ هو واضعه ومحدده، كما أنه غايته ومنتهاه.

أما الرسول ـ ﷺ ـ فهو الداعي إلى هذا المنهج أو هذا الصراط، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره. يقول تعالى مخاطبا رسوله: (وكذلكَ أوحينا إليكَ رُوحاً من أمرنَا ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناهُ نُوراً نَهدي به من نَشاءُ مِن عِبادِنَا، وإنك لتَهْدِي إلى صِراطٍ مُستقيم. صِراطِ اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصيرُ الأمور)[1].

ويقول تعالى: (وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ، قال الذين لا يَرجُون لِقَاءَنا ائتِ بقُرآن غير هذا أو بَدّلهُ، قُل ما يكونُ لي أن أُبَدّلَهُ مِن تِلقاء نفسي، إن أتبعُ إلا ما يُوحىٰ إليّ، إني أخاف إن عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ. قُل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لَبِثتُ فيكُم عُمراً من قبله، أفلا تعقلون؟!)[2].

ويقول: (والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكُم وما غوى. وما ينطقُ عن الهوى. إن هو إلا وَحي يُوحى)[3].

ومن تدبر القرآن وجد الرسول ـ ﷺ ـ فيه مجرد عبد مأمور تخاطبه سلطة أعلى منه، محيطة به، قادرة عليه، تملك عتابه ولومه إذا اجتهد فأخطأ في بعض الأمور، كما في قصة ابن أم مكتوم، وأسرى بدر، والمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك، وزينب بنت جحش، وغيرها. فالحقيقة أن القرآن هو كلام الله وحده وتنزيل رب العالمين.

فليس لمحمد ـ ﷺ ـ من هذا القرآن إلا التلقي والحفظ (سَنُقرِئُكَ فلا

---

(١) الشورى: ٥٢، ٥٣.
(٢) يونس: ١٥، ١٦.
(٣) النجم: ١ـ٤.

تنسى)[1] ثم التبليغ والدعوة: (يا أيُّها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[2] ثم التفسير والبيان: (وأنزلنا إليك الذكر لتُبينَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفكرون)[3].

والسنة التي بينت القرآن، هي نفسها وحي إلهي، ولكنه وحي غير متلو ولا معجز كالقرآن الكريم.

وما جاء في هذه السنة عن طريق الاجتهاد، فإن الله تعالى لا يقره على الخطأ فيه، بل ينزل الوحي مصححاً ومصوباً، أو مثبتاً ومؤكداً.

ميزة الإسلام بين المناهج القائمة في العالم:

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد في العالم، الذي مصدره كلمات الله وحدها، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر، وأغلاط البشر، وانحرافات البشر.

والمناهج أو الأنظمة التي نراها في العالم إلى اليوم ثلاثة، فيما عدا الإسلام طبعا:

١ - منهج، أو مذهب، أو نظام مدني بشري محض، مصدره التفكير العقلي، أو الفلسفي لبشر فرد، أو مجموعة من الأفراد، كالشيوعية، والرأسمالية والوجودية، وغيرها.

٢ - منهج أو نظام ديني بشري كذلك. مثل الديانة البوذية القائمة في الصين، واليابان، والهند، والتي لا يعرف لها أصل إلٰهي، أو كتاب سماوي، فمصدرها إذن فكر بشري.

٣ - منهج أو مذهب ديني محرف، فهو - وإن كان إلٰهياً في أصله - عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه، وحذفت منه ما هو فيه، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر، فلم يبق ثمت ثقة بربانية

(١) الاعلى: ٦.
(٢) المائدة: ٦٧.
(٣) النحل: ٤٤.

مصدره، وذلك كاليهودية والنصرانية، بعد ثبوت التحريف في التوراة والإنجيل نفسيهما، فضلاً عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية، بدلت المراد من كلام الله.

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذي سلم مصدره من تدخل البشر، وتحريف البشر، ذلك أن الله تعالى تولى حفظ كتابه، ودستوره الأساسي بنفسه، وهو القرآن المجيد، وأعلن ذلك لنبيه ولأمته فقال: (إنَّا نحنُ نزلنا الذكرَ وإنَّا له لحافظون)[1].

وكان وعد ربي حقاً، فقد صدقت القرون المتوالية ـ على رغم ما حل بالمسلمين فيها من كوارث مروعة، ونوازل هائلة ـ هذه النبوءة القرآنية. وبقي القرآن، كما أنزله الله، وكما تلاه محمد ﷺ، وكما نقله عنه أصحابه، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان، ولم تزل الأجيال تلو الأجيال تتوارثه، وتتعبد بتلاوته، وترتيله وحفظه وكتابته، ولا عجب أن ظل ـ كما كان ـ مكتوباً في المصاحف، متلواً بالألسنة، محفوظاً في الصدور منقولاً إلينا ـ بالتواتر اليقيني ـ نقلاً حرفياً، بنفس طريقة كتابته، منذ عهد الخليفة الثالث عثمان. رغم تطور طرائق الرسم والإملاء. وبنفس طريقة تلاوته منذ العهد النبوي، حتى أصوات الغن، والمد، والإظهار، والإدغام، والإقلاب، والإخفاء.

الإسلام منهج رباني خالص:

إن الإسلام منهج رباني، مئة في المئة (١٠٠٪).

عقائده وعباداته، وآدابه وأخلاقه، وشرائعه ونظمه، كلها ربانية إلهية. أعني في أسسها الكلية، ومبادئها العامة، لا في التفريعات والتفصيلات والكيفيات.

عقيدة ربانية:

عقائد الاسلام عقائد ربانية، مستفادة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم الذي أرسى دعائمها، ووضح

(١) الحجر: ٩.

معالمها، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن.

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع، ولا من إضافة هيئة من الهيئات، ولا من إملاء «بابا» من البابوات.

ليس لأحد من تلاميذ ـ محمد ﷺ ـ، ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار، أن يغير ويبدل في عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير، كما فعل سانت بولس في العقيدة النصرانية، حتى إن بعض الكتاب الغربيين المحدثين ليسمون المسيحية الحاضرة «مسيحية بولس» وليست مسيحية عيسى ابن مريم.

وليس لمؤتمر، ولا لمجمع، ولا لجماعة أيا كانت مكانتها أن تضيف شيئاً إلى العقيدة الإسلامية، أو تحذف منها شيئاً. على غرار ما فعلت المجامع المسيحية، ابتداء من «مجمع نيقية» الشهير سنة ٣٢٥م فما بعده من مجامع بعضها قرر ألوهية المسيح، وبعضها قرر موقع الروح القدس من الشركة الثلاثية المعروفة: الأب والابن والروح القدس، وبعضها أعطى البابا سلطة إصدار قرارات الحرمان، وصكوك الغفران، وبعضها، وبعضها.

أما العقيدة الإسلامية فلا تتلقى إلا من الوحي الإلهي.

إن العقيدة إنما هي قضايا صادقة أو هي حقائق عن الوجود ورب الوجود. فليست العقيدة من قبيل ما نسميه في المنطق والبلاغة «إنشاء»، إنما هي من قبيل «الخبر» لأنها خبر عن القضايا الكبرى في الوجود: عن الله وأسمائه وصفاته، عن عوالم الغيب، عن مستقبل الحياة والإنسان، عن الجزاء وأنواعه وصوره، وغير ذلك مما وراء الطبيعة المشاهدة مما لا يدركه الحس، ولا يهدى إلى تفصيله العقل.

ومن ثم لا يملك أن يخبر عن هذه القضايا إلا من يحيط بها علماً.

وليس ذلك إلا صاحب هذا الكون، وهو الله تعالى.

أما البشر المخلوقون، فلا يدخل علم هذه الغيبيات في اختصاصهم، وإذا

قالوا في ذلك شيئاً، كان قولاً بغير علم، وبغير برهان. وفي هذا يقول القرآن منكراً على المشركين معتقداتهم في الملائكة وغيرها: (وجعلُوا الملائِكة الذين هُم عِبادُ الرحمن إناثاً، أشَهِدُوا خَلْقَهم، ستُكتبُ شهادَتُهم ويُسئلون)[1]، ويقول سبحانه: (ما أشهدتُهم خَلقَ السماوات والأرض ولا خلقَ أنفُسِهم)[2]، ويقول الله تعالى: (يعلمُ ما بين أيديهم وما خَلفَهم ولا يُحيطون به علما)[3].

ولو أن بعض الناس حاول أن يحدث فيها شيئاً من عند نفسه، لكانت محاولته مردودة عليه بأمر صاحب الرسالة نفسه - ﷺ - الذي قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[4] أي باطل مردود عليه. ويقول تعالى: (اتبِعُوا ما أُنزِلَ إليكُم من ربكُم، ولا تتبعوا من دُونِه أولياء)[5].

عبادات ربانية:

والعبادات الإسلامية - أعني الشعائر التي يُتعبَّد بها لله تعالى - عبادات ربانية.

فالوحي الإلهي هو الذي رسم صورها، وحدد أشكالها، وأركانها وشروطها، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان، ومكانها فيما يشترط فيه المكان.

ولم يقبل من أحد من الناس - مهما كان مجتهداً في الدين، ومهما علا كعبة في العلم والتقوى - أن يبتكر صوراً، وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد في ذلك، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر.

ومن فعل شيئاً من ذلك فقد شرع في الدين ما لم يأذن به الله، وعد عمله بدعة وضلالة، ورد عليه عمله، كما يرد الصيرفي النقاد العملة الزائفة.

---

(١) الزخرف: ١٩.
(٢) الكهف: ٥١.
(٣) طه: ١١٠.
(٤) متفق عليه.
(٥) الأعراف: ٣.

فقد جاء الإسلام في مجال العبادة بأصلين كبيرين، لا يتساهل في واحد منها قيد شعرة:

الأول: ألا يعبد إلا الله. فلا عبادة لأحد سواه، ولا لشيء سواه، كائناً ما كان، في الأرض أو في السماء. عاقلاً أو غير عاقل. وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة.

والثاني: ألا يعبد الله إلا بما شرعه. وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه. وخاتمهم محمد ﷺ، الذي نسخ شرعه كل شرع قبله، والذي كتب الله له الخلود، وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة، وإن دفع إليها حُسنُ النية، وشدة الرغبة في زيادة التقرب إلى الله جل شأنه. ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطي العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت.

فالعمل المقبول له ركنان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون على سنة رسول الله.

أما محدثات العصور، ومبتدعات العقول، فلا مكان لها في دين الله، كما جاء في الحديث «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1] ويقول القرآن مُنكراً: (أم لهم شُركاء شرعوا لهم مِنَ الدينِ ما لم يأذن به الله)[2].

وبهذا سد الإسلام باباً من أوسع أبواب الغلو، والتحريف، والتنطع، ولم يعط للمبتدعات في العبادة حق البقاء، وإن ظهرت يوماً بفعل الجهل، والهوى أو استمرت زمناً بتأييد المستغلين للدين، أو المتاجرين باسمه.

ولهذا لم يخل قطر من الأقطار، ولا عصر من الأعصار، من إناس يدعون إلى السنة، ويقاومون البدعة، غير مبالين بما يصيبهم من الأذى في سبيل الله.

كما أن عبادات الإسلام الكبرى بقيت في جوهرها، وأصولها سالمة من

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) الشورى: ٢١.

التحريف، بعيدة عن يد المسخ والتبديل، التي تعرضت له العبادات في أديان أخرى.

آداب ربانية:

والآداب والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة في مخبرها ومظهرها عالمة بوجهتها وطريقها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى برسم المعالم الرئيسة لأدب المسلم، وخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحرير الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار وحفظ الفروج، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، والوفاء بالعهود، وترك المنكرات، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية، الفردية والاجتماعية.

حتى إننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: (واقصد في مَشْيِكَ)[1]، (الذين يمشون على الأرض هونا)[2]، (ولا تمش في الأرض مَرحًا، إنك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبال طولاً)[3].

---

(١) لقمان: ١٩.
(٢) الفرقان: ٦٣.
(٣) الإسراء: ٣٧.

وأدب التزاور إذا تزاوروا (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بُيوتاً غير بيوتِكُم حتى تستأنسوا وتُسلِمُوا على أهلها، ذلِكُم خيرٌ لكُم لعلكُم تَذكَّرُون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخُلُوا حتى يُؤذَن لكم، وإن قيل لكُم ارجِعوا فارجِعوا، هو أزكى لكُم، والله بما تعملون عليم)[1].

وأدب الجلوس إذا تجالسوا (يا أيُّها الذين آمنوا إذا قيل لكُم تفسَّحوا في المجالس فافسحُوا يَفسح الله لكُم، وإذا قيل انشزوا فانشِزوا، يرفَع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير)[2].

فضلاً عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالأكل والشرب، واللباس والتجمل، والنوم واليقظة، والدخول والخروج، والسفر والعودة، والتحية والاستئذان، حتى العطاس والتثاؤب، وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة.

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام، ليس هو اللذة ولا المنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العرف ولا المجتمع ولا التطور، ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية، مثالية وواقعية. وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي - في الأساس - هو الوحي الإلهي.

فالخير ما أمر الله به، والشر ما نهى الله عنه.

وبعبارة أخرى: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع.

وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحسين ما قبحه العقل، أو تقبيح ما يحسنه، فلم يُعْرف ذلك في الأخلاق الإسلامية، ولا في الشريعة الإسلامية كلها. فهي شريعة ملائمة للفطرة السليمة، موافقة للعقل الرشيد.

ولا غرو أن أطلق القرآن على أصحاب الأخلاق الفاضلة وصف (أولي الألباب) كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: (ذلكُم وصَّاكُم به لعلكُم تعقِلون)[3].

---

(١) النور: ٢٧، ٢٨.
(٢) المجادلة: ١١.
(٣) الأنعام: ١٥١.

ولذلك نجد الأخلاق في الإسلام، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم، والتكليف التعبدي، بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، في أخلاق مفهومة معللة بالحكم، والمصالح المترتبة عليه في الدنيا والآخرة، من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه: (يا بُنَيَّ أقِمِ الصلاةَ وأْمُر بالمعروف وانه عَنِ المنكَر واصْبِر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تُصعِّر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً، إن الله لا يُحِبُّ كلَّ مختال فخور. واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحَمِير)[١].

ومثل ذلك في سورة الإسراء: (فتَقعُد ملوماً محسوراً)[٢]. (إنه كان فاحِشةً وساء سبيلاً)[٣]. (إنك لن تخرِقَ الأرض ولن تبلُغ الجبال طُولا)[٤] الخ.

تشريعات ربانية:

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية، والاجتماعية والدولية، تشريعات ربانية: أعني في أسسها، ومبادئها، وأحكامها الأساسية، التي أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد، وأعدل المبادىء، بعيداً عن قصور البشر، وتطرفات البشر، وأهواء البشر، وتناقضات البشر.

وكانت هذه هي المزية الأولى للتشريع الإسلامي على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها، شرقيها وغربيها، ليبراليها، واشتراكيها. فهو التشريع الفذ في العالم الذي أساسه وحي الله وكلماته المعصومة من الخطأ، المنزهة عن الظلم: (وتمت كَلِمة ربِّكَ صِدقاً وعدلاً، لا مُبدِّل لكلماته، وهو السميع العليم)[٥]

---

(١) لقمان: ١٧-١٩.
(٢) الإسراء: ٢٩.
(٣) الإسراء: ٣٢.
(٤) الإسراء: ٣٧.
(٥) الأنعام: ١١٥.

وبهذا تقرر في الأصول الإسلامية أن المشرع الوحيد هو الله.

فهو الذي يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويكلف ويلزم، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعاً، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس. له الخلق والأمر، وله المِلك والمُلك[١]، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجعون.

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص ملزم، فهو في الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن، وليس مشرعاً أو حاكماً. حتى الرسول - ﷺ - نفسه ليس مشرعاً، وإنما وجبت طاعته، لأنه مبلغ عن الله. فأمره من أمر الله: (من يُطِع الرسولَ فقد أطاعَ الله)[٢].

فالحكم الشرعي - بما يتضمن من إيجاب أو استحباب. أو تحريم أو كراهة. أو إباحة - إنما هو لله تعالى. وليس لأحد غيره. ولهذا يعرف الأصوليون الحكم الشرعي بأنه: «خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييرا» ويعنون بالاقتضاء الطلب. سواء كان طلباً لفعل - وهو يشمل الوجوب والندب - أم طلباً لكف وترك. وهو يشمل التحريم والكراهة. كما يعنون بالتخيير الإباحة. وهو ما كان للمكلف خيرة في فعله وتركه.

فالمخاطب والمكلف والملزم، والآمر والناهي، ليس إلا الله عز وجل.

وقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله. وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله. وحرموا ما أحل الله، افتراء على الله.

وفي هذا يقول في شأن أهل الكتاب: (اتخذوا أحبارهُم ورُهبانهُم أرباباً من دُونِ الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليَعبدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عما يُشرِكُون)[٣].

---

(١) الملك والملك: الأولى بكسر الميم والثانية بضمها.

(٢) النساء: ٨٠.

(٣) التوبة: ٣١.

اعتبر القرآن هؤلاء الأحبار، والرهبان أرباباً، أو آلهة معبودين من دون الله، وما كانت عبادتهم إلا طاعته في إحلال ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، أي: اعطاءهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى. كما فسر ذلك النبي - ﷺ - لعدي بن حاتم الطائي.

فقد كان عدي تنصر في الجاهلية. فلما دخل على النبي - ﷺ - وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال: يا رسول الله. ما كُنا نعبدهم! (كأنه حصر مفهوم العبادة في الركوع والسجود والصلاة ونحوها) فقال النبي - ﷺ - : «ألم يكونوا يُحلّونَ لكُم الحرامَ فتحلوه. ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه؟! قال: بلى. قال: فتلك عبادتكم إياهم».

ولهذا نجد القرآن الكريم يعقب على كثير من الأحكام، والتشريعات بلفت الأنظار إلى ربانية مصدرها، لتطمئن الأنفس وتستريح الضمائر، وتنشرح الصدور للاستجابة والتنفيذ، ولا يتلكأ متلكىء أو يتوانى متوان في الطاعة لحكم الله.

من هذه التعقيبات قوله تعالى في ختام آية قسم الصدقات من سورة التوبة: (**فريضةً من الله، واللهُ عليم حكيم**)[١] ونحوها في ختام آية قسمة المواريث الأولى في سورة النساء: (**آباؤُكم وأبناؤُكم لا تدرون أيُّهم أقربُ لكم نفعاً، فريضةً من الله، إن اللهَ كان عليماً حكيماً**)[٢].

وفي ختام آية المواريث الثانية: (**وصيةً من الله، والله عليمٌ حليمٌ. تلك حُدود الله..**)[٣].

وفي آخر آية في سورة النساء، وهي متعلقة بالميراث أيضاً يختمها بقوله (يُبينُ اللهُ لكُم أن تضلوا، واللهُ بكل شيء عليم)[٤].

(١) التوبة: ٦٠.
(٢) النساء: ١١
(٣) ١٢، ١٣.
(٤) النساء: ١٧٦.

وفي سورة الطلاق يعقب على أحكام الآية الأولى بقوله: (وتِلك حُدود الله، ومن يتعد حُدودَ اللهِ فقد ظلم نفسه)[1] وبعد ثلاث آيات يذكر فيها بعض الأحكام ثم يقول: (ذلك أمرُ الله أنزله إليكم)[2].

وبعد أحكام النساء، والمؤمنات المهاجرات في سورة الممتحنة يعقب فيقول: (ذلكُم حكم الله يحكم بينكُم، والله عليم حكيم)[3].

وهذه التعقيبات وأمثالها ترشد وتذكر، وتنبه وتؤكد، على الأصل الذي تستمد منه هذه التشريعات، فهي ربانية سماوية، تصدر ممن لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

من ثمرات ربانية المصدر:

وإذا كان للربانية بالمعنى الأول ـ ربانية الغاية ـ تلك الثمرات والمزايا التي ذكرناها من قبل، فإن للربانية بالمعنى الثاني ـ ربانية المصدر والمنهج ـ مزايا وثمرات، لعلها أعظم خطراً، وأبعد أثراً.

وكل هذه المزايا والثمرات نتيجة لسبب واحد، هو كمال الله تعالى، صاحب هذا المنهج، ومصدره، أما المناهج والمذاهب الأخرى، فيلازمها نقص البشر، وعجز البشر، وقصور البشر.

١ ـ العصمة من التناقض والتطرف:

من هذه المزايا أو الآثار، العصمة من التناقض والاختلاف الذي تعانيه المناهج، والأنظمة البشرية، والمحرفة.

فالبشر ـ بطبيعتهم ـ يتناقضون، ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من زمن إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الإقليم الواحد من بيئة إلى أخرى، وفي الأمة الواحدة

---

(١) الطلاق: ١.
(٢) الطلاق: ٥.
(٣) الممتحنة: ١٠.

من شعب إلى آخر، وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد إلى آخر، بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر.

فكثيراً ما رأينا تفكير الفرد، في مرحلة الشباب يناقض تفكيره في مرحلة الكهولة، أو الشيخوخة، وكثيراً ما وجدنا أراءه ساعة الشدة والفقر، تخالف آراءه في ساعة الرخاء والغنى.

فإذا كانت هذه هي طبيعة العقل البشري، وضرورة تأثره بالزمان والمكان، والأوضاع، والأحوال، فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف، فيما يضعه من مناهج للحياة، سواء كانت مناهج للتصور والاعتقاد، أم للعمل والسلوك؟! إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب، وصدق الله العظيم إذ يشير إلى ذلك فيقول: (أفلا يتدبَّرون القرآن؟ ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً)[1].

ومن مظاهر هذا التناقض ما نراه ونلمسه في كل الأنظمة البشرية والدينية، الوضعية والمحرفة، من إفراط أو تفريط، كما هو واضح من موقفها من الروحية والمادية، أو من الفردية والجماعية، أو من الواقعية والمثالية، أو من العقل والقلب، أو من الثبات والتطور، وغيرها من المتقابلات، التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلاً الطرف الآخر، أو جائراً عليه.

والسر في هذا ـ بعد القصور البشري العام ـ أن تفكير الإنسان في وضع فلسفة أو منهاج، أو مذهب، غالباً ما يكون نتيجة ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ لرد فعل، وانعكاساً لأوضاع آنية وأحوال بيئية، تؤثر في تصوره للأشياء، وحكمه على الأمور، شعر أم لم يشعر، شاء أم لم يشأ.

ولا يستطيع منصف أن ينزه أكابر الفلاسفة، ـ وإن توافر فيهم الإخلاص

---

(١) النساء: ٨٢.

في طلب الحقيقة ـ، من التأثر بأزمانهم وبيئاتهم، **فضلاً** عن التأثر بوراثاتهم وأمزجتهم الشخصية.

٢ ـ البراءة من التحيز والهوى:

ومن ثمرات هذه الربانية في الإسلام: اشتماله على العدل المطلق، وبراءته من التحيز والجور واتباع الهوى، مما لا يسلم منه بشر، كائناً من كان.

أجل، لا يخلو بشر غير معصوم ـ مهما يعل كعبه في العلم والتقى ـ من التأثر بالأهواء، والميول، والنزعات الشخصية، والأسرية، والإقليمية، والحزبية، والقومية. وإن كان في ظاهر أمره يرغب في الإنصاف، ويحرص على الحياد.

فإذا كان لهذا البشر هوى معين، أو ميول خاصة، توجهه وتلون تفكيره، وتميل بحكمه إلى حيث يهوى ويحب، فهذه هي الطامة. فقد اجتمع فيها الهوى المتبع إلى القصور البشري الذاتي، فزاد الطين بلة: (ومن أضلُّ ممن اتبع هواهُ بغير هُدى مِن الله)[١].

وقد قال الله لنبيه داود: (يا داوود إنَّا جعَلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُم بين الناسِ بالحق ولا تَتَّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)[٢] وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل. المنزه عن التحيز والجور والانحراف.

ومقتضى ما ذكرناه: أنه لا يسلم منهج، أو نظام وضعه البشر، أو تدخلوا فيه. من التأثر بالأهواء المضلة عن سبيل الله، المتحيزة إلى جانب دون جانب، أو فريق دون فريق.

أما «نظام الله»، أو «منهج الله» فقد وضعه رب الناس للناس. وضعه من لا يتأثر بالزمان والمكان، لأنه خالق الزمان والمكان، ومن لا تحكمه الأهواء والنزعات، لأنه المنزه عن الأهواء والنزعات، ومن لا يتميز لجنس

---

(١) القصص: ٥٠.
(٢) سورة ص: ٢٦.

ولا لون ولا فريق، لأنه رب الجميع، وكلهم عباده، فلا يتصور تحيزه لفئة دون أخرى، ولا لجيل دون غيره، ولا لشعب على حساب غيره من الشعوب.

ومن ثم اعتبر القرآن ما عدا شريعة الله وحكمه «أهواء»، يجب الحذر منها ومن أصحابها. يقول تعالى لرسوله: (ثم جَعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواءَ الذين لا يعلمون)[1]، (وأن احكمُ بينَهم بما أنزل الله ولا تَتَّبع أهواءهم واحذرهم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)[2].

٣ ـ الاحترام وسهولة الانقياد:

ومن ثمرات هذه الربانية كذلك أنها تضفي على النظام، أو المنهج الرباني قدسية واحتراماً لا يظفر بهما أي نظام، أو منهج من صنع البشر.

ومنشأ هذا الاحترام والتقديس اعتقاد المؤمن بكمال الله تعالى، وتنزهه عن كل نقص. في خلقه وأمره. أنه تعالى أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه. كما قال في كتابه: (صُنع اللهِ الذي أتقنَ كل شيء)[3]. وكذلك أحكم كل شيء شرعه. وكل كتاب أنزله. كما قال تعالى عن القرآن الكريم: (كتابٌ أحكِمَت آياته ثُم فُصِّلَت من لدُن حكيم خبير)[4].

فهو الحكيم فيما خلق وقدر. والحكيم فيما أمر ونهى: (ما ترى في خلقِ الرحمن من تفاوت)[5]، ولا تجد في شرع الرحمن من تهافت. فتبارك الله أحسن الخالقين. وأحكم الحاكمين.

ويتبع هذا الاحترام والتقديس: الرضا بكل تعاليم هذا النظام وأحكامه. وتقبله بقبول حسن، مع انشراح الصدر، وإقناع العقل، وطمأنينة القلب. فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: (فلا ورَبك لا يُؤمنون حتى يُحكِّمُوكَ فيما

(١) الجاثية: ١٨.
(٢) المائدة: ٤٩.
(٣) النمل: ٨٨.
(٤) هود: ١.
(٥) الملك: ٣.

شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليماً)[1].

ويلزم من هذا الاحترام والتقديس وحسن القبول: المسارعة إلى التنفيذ والسمع والطاعة في المنشط والمكره، دون تلكؤ أو تكاسل، أو تحايل على الهرب من تكاليف النظام والتزاماته، والتقيد بأوامره ونواهيه.

ونكتفي هنا بضرب مثلين يبينان مواقف المسلمين والمسلمات في العهد النبوي، من شرع الله تعالى وأمره ونهيه.

أولهما: ما وقع من المؤمنين بالمدينة عقب تحريم الخمر.

وقد كان للعرب ولع بشربها وأقداحها ومجالسها، وقد عرف الله ذلك منهم فأخذهم بسنة التدرج في تحريمها، حتى نزلت الآية الفاصلة تحرمها تحريماً باتاً، وتعلن أنها: رجسٌ مِن عملِ الشيطان)[2] وبهذا حرم النبي - ﷺ - شربها، وبيعها، وإهداءها لغير المسلمين. فما كان من المسلمين حينذاك إلا أن جاؤوا بما عندهم من مخزون الخمر، وأوعيتها، فأراقوها في طرق المدينة إعلاناً عن براءتهم منها.

ومن عجيب أمر الانقياد لشرع الله أن فريقاً منهم حين بلغته هذه الآية كان منهم من في يده الكأس قد شرب بعضها، وبقي بعضها في يده، فرمى بها مِن فيه، وقال - إجابة لقول الله: (فهل أنتم مُنتهون)[3]: قد انتهينا يا رب!

ولو وازنا هذا النصر المبين في محاربة الخمر، والقضاء عليها في البيئة الإسلامية، بالإخفاق الذريع الذي منيت به الولايات المتحدة الأمريكية،[4] حين أرادت يوماً أن تحارب الخمر بالقوانين والأساطيل، لعرفنا أن البشر لا يصلحهم إلا تشريع السماء، الذي يعتمد على الضمير والإيمان قبل الاعتماد على القوة والسلطان.

---

(١) النساء: ٦٥.
(٢) المائدة: ٩٠.
(٣) المائدة: ٩١.
(٤) اقرأ هذه الموازنة بتفصيل في كتابنا «الإيمان والحياة» في موضوع «الإيمان والأخلاق».

وثانيهما: موقف النساء المسلمات الأول مما حرم الله عليهن من تبرج الجاهلية، وما أوجب عليهن من الاحتشام والتستر، فقد كانت المرأة في الجاهلية تمر كاشفة صدرها، لا يواريه شيء، وكثيراً ما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقراط آذانها فحرم الله على المؤمنات تبرج الجاهلية الأولى، وأمرهن أن يتميزن عن نساء الجاهلية، ويخالفن شعارهن، ويلزمن الستر والأدب في هيئاتهن وأحوالهن، بأن يضرب بخمرهن على جيوبهن، أي: يشددن أغطية رؤوسهن بحيث تغطي فتحة الثوب من الصدر، فتواري النحر والعنق والأذن.

وهنا تروي لنا السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كيف استقبل نساء المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي الأول، هذا التشريع الإلهي، الذي يتعلق بتغيير شيء هام في حياة النساء، وهو البيئة والزينة والثياب.

قالت عائشة: «يرحم الله نساء المهاجرين الأول، لما أنزل الله: (وليضرِبْن بخُمُرِهن على جُيُوبهن)[1]، شققن مروطهن ـ أكسية من صوف أو خز ـ فاختمرن بها»[2].

وجلس إليها بعض النساء يوماً، فذكرن نساء قريش وفضلهن، فقالت: «إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيمانا بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ـ المزخرف الذي فيه تصاوير ـ فاعتجرت به ـ شدته على رأسها ـ تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ـ ﷺ ـ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان»[3].

---

(١) النور: ٣١.

(٢) رواه: البخاري.

(٣) ذكره ابن كثير في آية النور عن ابن أبي حاتم.

هذا هو موقف النساء المؤمنات مما شرع الله لهن، موقف المسارعة إلى تنفيذ ما أمر، واجتناب ما نهى، بلا تردد، ولا توقف ولا انتظار، أجل لم ينتظرن يوماً أو يومين أو أكثر حتى يشترين، أو يخطن أكسية جديدة تلائم غطاء الرؤوس، وتتسع لتضرب على الجيوب، بل أي كساء وجد، وأي لون تيسر، فهو الملائم والموافق، فإن لم يوجد شققن من ثيابهن ومروطهن، وشددنها على رؤوسهن، غير مباليات بمظهرهن الذي يبدون به كأن على رؤوسهن الغربان، كما وصفت أم المؤمنين»[1].



٤ ـ التحرر من عبودية الإنسان للإنسان:

ومن ثمرات هذه الربانية ـ فوق ذلك كله ـ تحرر الإنسان من العبودية للإنسان.

ذلك أن العبودية أنواع وألوان، وإن من أشدها خطراً، وأبعدها أثراً لهو خضوع الإنسان لإنسان مثله، يحل له ما شاء متى شاء، ويحرم عليه ما شاء كيف شاء، ويأمره بما أراد، فيأتمر، وينهاه عما يريد فينتهي. وبعبارة أخرى يضع له «نظام حياة»، أو «منهج حياة»، فلا يسعه إلا الإذعان والتسليم والخضوع.

والحق أن الذي يملك وضع هذا النظام، أو المنهج، والزام الناس به، واخضاعهم له هو الله وحده، رب الناس، ملك الناس، إله الناس. فمن حقه وحده أن يأمرهم وينهاهم، وأن يحل لهم ويحرم عليهم، بمقتضى ربوبيته تعالى وخلقه لهم، وإنعامه عليهم بكل أجناس النعم وأصنافها وأفرادها: (وما بكُم من نعمةٍ فَمِنَ الله)[2].

فإذا ادعى بعض الناس لأنفسهم ـ أو ادُّعي لهم ـ هذا الحق، فقد نازعوا

---

(١) من كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للمؤلف: ص ٣٤٠ ـ ص ٣٤٢.
(٢) النحل: ٥٣.

الربوبية حقها، وزاحموا الألوهية في سلطانها، واتخذوا من عباد الله عباداً لهم، وهم مخلوقون مثلهم، يجري عليهم من سنن الله ما يجري عليهم.

ولا غرو أن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها، ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم، الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم، أمراً ونهياً، وتحليلاً وتحريماً، دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة، وقد دمغ القرآن أهل الكتاب لذلك بالشرك وعبادة غير الله.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: (اتخذُوا أحبارهُم ورُهبانَهُم أرباباً من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم وما أمروا إلا ليعبُدوا إلهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون)[١].

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله، وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله، وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع، وذلك في قوله تعالى: (يا أهل الكتاب تَعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكُم ألا نعبُد إلا الله ولا نُشرِك به شيئاً. ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمون)[٢].

وبهذه الآية كان يختم النبي ﷺ رسائله إلى ملوك النصارى وأمرائهم.

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) آل عمران: ٦٤.

الفَصْلُ الثّانِي

الإنسَانيَّة

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية: الإنسانية.

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة في معتقداته وعباداته، وتشريعاته وتوجيهاته، إنه دين الإنسان.

بين الربانية والإنسانية:

وربما خيل لكثير من الناس ـ لأول وهلة ـ أن هناك تناقضاً بين إثبات خصيصة «الربانية» وخصيصة «الإنسانية» في وقت واحد.

فالظاهر والمفهوم والمفترض في أذهانهم أن ثبوت إحدى الخصيصتين ينفي الأخرى، ويطردها، شأن كل متضادين لا يجتمعان، فإذا وجد الله لم يبق مكان للإنسان!

وإذا كنا قد قلنا في خصيصة «الربانية»: إنها تعني ـ من ناحية ـ ربانية الغاية والوجهة. على معنى أن حسن الصلة بالله تعالى وابتغاء مرضاته هو غاية الانسان وهدف الاسلام.

كما تعني ـ من ناحية أخرى ـ ربانية المصدر والمنهج، على معنى أن الإسلام منهج إلهي، صاحبه وشارعه هو الله وحده، وإنما الرسول مبلغ عنه ـ فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان.

وأين يكون مكان الإنسان ما دام الله هو الغاية. ومرضاته هي الهدف والوجهة، ومادام الله أيضاً هو واضع المنهج إلى تلك الغاية؟

فإذا أضفنا إلى ذلك وجوب الإيمان بقدر الله تعالى، فقد انتفى ـ في نظر هؤلاء ـ كل دور للإنسان.

إن إثبات قدر الله يلغي دور إرادة الإنسانية، وإثبات شرع الله يلغي دور التفكير الإنساني، وماذا يبقى للإنسان إذا ألغى دوره إرادياً وفكرياً؟ وهل الإنسان إلا إرادة وفكر؟!!.

هذا ما يخالج تفكير بعض الناس، الذين يفهمون قدر الله وشرعه، ودور الإنسان معهما، ذلك الفهم المغلوط، معتمدين على النظرة «الجبرية» للقدر، والنظرة «الظاهرية» للشرع، وكلتاهما خاطئة كما سنبين بعد.

ليس الإنسان نداً لله:

على أن الخطأ الأول والأساسي في موقف هؤلاء النظر إلى الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان، وهؤلاء ينسون ما هو الله؟، وما هو الإنسان؟

والحقيقة التي لا ريب فيها أن الله هو صاحب هذا الكون، وربه، ومدبره (قل أغير اللهِ أبغي رباً وهو ربُّ كلّ شيء)[١].

والإنسان هو مخلوق حادث من مخلوقات الله جل شأنه، ولا يتصور أن يكون المخلوق نداً للخالق، ولا الحادث مضاهياً للأزلي، ولا الفاني كفواً للأبدي الباقي: (قل هو اللهُ أحد، الله الصمد. لم يلد ولم يُولد. ولم يكن له كفواً أحد)[٢].

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق ذو مكانة خاصة، وله شأن ودور في هذا الوجود، والذي منحه هذه المكانة، وجعل له هذا الشأن والدور هو خالقه ذاته، هو الله تبارك وتعالى.

لننظر للإنسان إذن على هذا الأساس. وبهذا المنظار.

إنه مخلوق، ولكنه أكرم المخلوقات على الله تعالى، وهو الوحيد من بينها

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) سورة: الإخلاص.

ـ على كثرتها ـ الذي اختاره الله ليكون خليفته في الأرض. وكرمه بالعقل، وهداه السبيل وعلمه البيان، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً.

لا تنافي بين الربانية والإنسانية:

إذا عرفنا ما ذكرناه من حقائق اتضح لنا:

أن الإسلام مع ربانيته في غايته ووجهته هو إنساني أيضاً في الغاية والوجهة ومن هنا نقول: إن للإنسان مكاناً، أي مكان في غايات الإسلام العليا، وأهدافه الكبرى، مع تقرير غايته الربانية، وإبرازها وتثبيتها، إذ لا تنافي بين الغاية الربانية، والغاية الإنسانية، بل هما متكاملتان..

أجل. لا تنافي ـ في نظر الإسلام ـ بين الربانية والإنسانية، فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التي قام عليها الإسلام.

فالله هو الذي كرم هذا الإنسان، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة. وسخر له ما في الموات، وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وإذا كان مصدر الإسلام «ربانياً» فإن «الإنسان» هو الذي يفهم هذا المصدر، ويستنبط منه، ويجتهد على ضوئه، ويحوله إلى واقع تطبيقي ملموس.

وإذا كانت الربانية هي غاية المجتمع المسلم كما هي غاية الفرد المسلم فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان، وفوزه بالنعيم المقيم في جوار رب العالمين.

وإذا كانت الربانية هي رسالة المسلم، فإن أهداف هذه الربانية هي تحقيق الخير للإنسان والسمو به، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط.

والمعاني الربانية التي توجه المسلم، من الإيمان والتوحيد والإنابة والرجاء والخوف.. الخ، هي في حقيقتها معان إنسانية، لأنها جزء من كيان الإنسان

كما فطره الله، وهي سر من أسرار قوله تعالى: (ونفختُ فيه من روحي)[1].

وفكرة الإسلام: أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ربانياً حقاً، دون أن يكون إنسانياً، كما لا يستطيع أن يكون إنسانياً حقاً، دون أن يكون ربانياً.

إن الربانية - باعتبارها غاية ووجهة - تقتضي إخلاص النية والعمل والوجهة لله وحده، وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد، وغاية السعي وراء كل حركة، وكل قول أو عمل.

ولكن المقصود بهذا كله هو تحرير الإنسان، وإسعاد الإنسان، وتكريم الإنسان وحماية الإنسان، والسمو بالإنسان.

فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الإسلام عليها، ويسعى إليها، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد في تحقيقها.

إيجابية الإنسان أمام القدر الإلٰهي:

والذي يراه الدارس للإسلام أن إثبات القدر الإلهي لا ينفي إيجابية الإنسان فوق هذه الأرض ودوره في هذا الكون.

فإن الله الذي خلق الإنسان هو الذي منحه العقل، ومنحه الإرادة، ومنحه القدرة، فهو بالعقل يفكر، وبالإرادة يرجح، وبالقدرة ينفذ، وهذه كلها منح من الله للإنسان. فهو قادر بقدرة الله، ومريد بإرادة الله. وهذا معنى: (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)[2] فالإنسان يشاء، لأن الله شاء له أن يشاء، وهو معنى: «لا حول ولا قوة إلا بالله، أي: أن الإنسان له حول وقوة، يجلب بهما النفع، ويدفع بهما الضرر، ولكن حوله وقوته ليسا من ذاته ولا بذاته، بل حوله وقوته بالله، ومن الله.

وعلى هذا الأساس أمر الله الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه

---

(١) الحجر: ٢٩.
(٢) الإنسان: ٣٠.

الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب، ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة، ما كان لتحميله أمانة التكاليف معنى، ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي، والحكمة الإلهية، ولا كان هناك معنى لاستخلافه في الأرض، واستعماره فيها كلما قال تعالى: (هو أنشأكُم من الأرضِ واستعمركم فيها)[1]، أي: طلب إليكم عمارتها.

إن الإنسان مخلوق لله، ولكنه مخلوق متميز بمواهبه، وملكاته، وقواه، الروحية، والعقلية، والمادية، التي أهله الله بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكاليف، وهي أمانة بلغت من العظم والثقل مبلغاً عبر عنه القرآن بهذه الصورة الفنية البليغة حين قال: (إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرضِ والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقنَ مِنها وحملها الإنسان)[2].

إن الإنسان مخلوق مكلف مسئول، وعليه أن يكدح حتى يلقى ربه، فيجزيه بكدحه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولهذا وجه الله إليه الخطاب بقوله: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فمُلاقيه)[3].

ولا ينبغي للإنسان أن يغره شي. أو يخدعه خادع عن ربه وما له عليه من حق، وإن كان نفر من بني الإنسان للأسف غرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، واستحقوا أن يناديهم ربهم بهذا النداء العاتب: (يا أيها الإنسانُ ما غركَ بربكَ الكريم. الذي خلقك فسواكَ فعدَلَكَ. في أي صورة ما شاء ركَّبك)[4].

بين العقل الإنساني والوحي الإلهي:

وإذا كان الإسلام منهجاً إلهياً وضعه رب الناس للناس. فليس معنى هذا هو إلغاء دور الإنسان أمام هذا المنهج، وتنحيته من طريقه، والحكم

---

(١) هود: ٦١.
(٢) الأحزاب: ٧٢.
(٣) الانشقاق: ٦.
(٤) الانفطار: ٦-٨.

عليه بالسلبية المطلقة تجاهه، فليس له إلا التلقي والتنفيذ والتسليم، دون أن يقول لِمَ؟ أو كيف؟ إذ لا تكافؤ بين الوحي الإلهي والعقل الإنساني، فإذا قال الوحي كلمته، فليس على العقل إلا الإذعان والتسليم.

وهذا في الواقع غير سليم.

فإن القدر الإلهي لم يلغ دور الإنسان، وفاعليته في الكون، مع وجود يد الله تعالى فيه، ومع انعدام التكافؤ بين الإرادة الإلهية، والإرادة الإنسانية، أو بين قدرة الخالق، وقدرة المخلوق.

وكذلك لا يلغي الوحي الإلهي دور العقل الإنساني، وإيجابيته في فهم الوحي، والاستنباط منه والقياس عليه، وملء ما سكت عنه من فراغات تشريعية.

إن وجود النص الإلهي المقدس، ليس عائقاً للعقل عن التحليق والإبداع فقد ترك الوحي للعقل مجالات عديدة يثبت فيها ذاته، ويبرز قدراته.

لقد ترك الوحي للعقل أموراً كثيرة في مجالات متعددة:

(أ) ترك للعقل في مجال العقيدة أن يهتدي إلى أعظم حقيقتين في هذا الوجود:

الحقيقة الأولى: وجود الله ووحدانيته ـ فوجود الله ـ كما تهدي إليه الفطرة السليمة ـ يقتضيه كذلك النظر الصحيح، والعقل الصريح، ولا غرو إذا أقام القرآن الأدلة من الكون ومن النفس على وجود الله سبحانه وتعالى: (إن في خلق السماوات والأرضِ واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)[1].

(أم خُلِقُوا من غير شيء أم هُم الخالقون. أم خَلَقُوا السموات والأرض، بل لا يُوقنون)[2].

---

(١) آل عمران: ١٩٠.
(٢) الطور: ٣٥، ٣٦.

ويتبع ذلك الأدلة العقلية التي ذكرها القرآن على وحدانية الله بقوله تعالى: (لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا، فسبحان الله ربِّ العرشِ عما يَصِفون)[١]. (أمِ اتَّخذوا من دونهِ آلهةً، قل هاتوا بُرهانكُم)[٢].

وفي موضع آخر يقول:

(ما اتَّخذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إله، إذن لذهب كلُّ إله بما خلَق ولعلا بعضُهم على بعض)[٣].

الحقيقة الثانية: ثبوت الوحي والنبوة والرسالة. فالعقل هو الذي يثبت إمكان ذلك ووقوعه بالفعل، وأن هذا الشخص المعين رسول من عند الله. العقل هو الحكم الأول والأخير في هذه القضية، ولا مدخل هنا للاستدلال بالنقل ونصوص الوحي، إذ كيف يستدل بما لم يثبت بعد؟ ولهذا قال علماء الإسلام: إن العقل أساس النقل، ذلك أن العقل ـ بعد اقتناعه بوجوده تعالى وكماله سبحانه ـ يعلم أن من تمام حكمة الحكيم، ورحمة الرحيم ألا يترك عباده سدى، وألا يدعهم في بحر لجي من الجهالة والعمى والغي، وهو قادر على أن يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور عن طريق مبلغين عنه.

والعقل بعد أن يعلم ذلك، لا يسلم لكل من ادعى أنه رسول من الله، بل يطالبه بما يثبت صحة دعواه وأنه لا يمثل نفسه، وإنما يمثل إرادة الله الذي أرسله، فيطالبه بالآية المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

والعقل هو الذي يميز بين الآيات المعجزة الحقيقية، التي لا تظهر إلا على أيدي رسل الله حقاً وبين مظاهر الخفة، والشعوذة التي تظهر على أيدي السحرة والدجالين.

والعقل هو الذي يعرف وجه دلالة المعجزة الخارقة على صدق من أظهرها الله على يديه، وأنها تصديق من الله له في دعواه، فهي بمثابة قوله: «صدق

(١) الأنبياء: ٢٢.
(٢) الأنبياء: ٢٤.
(٣) المؤمنون: ٩١.

عبدي فيما يبلغ عني» والله تعالى لا يصدق الكاذب، لأن تصديق الكاذب كذب، والكذب محال على الله تعالى. كل هذه مقدمات عقلية محض ولولاها ما ثبت الوحي أصلاً، ولا قام الدين رأساً.

والعقل ينظر في سيرة كل شخص يدعي الرسالة، ويتأمل في صفاته وأخلاقه، وأقواله، وأعماله، ومدخله، ومخرجه، ليعرف منها: هل هو أهل لاصطفاء الله، أم ليس كذلك فيرفضه ويعرض عنه، ومن أجل ذلك احتكم القرآن في إثبات صدق رسالة محمد (ﷺ)، إلى العقول المفكرة وحدها، فقال في صرامة ووضوح: (قل إنما أعظُكُم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تتفكروا، ما بصاحِبِكم من جِنَّة، إن هو إلا نذير لكم بين يديْ عَذَابٍ شديدٍ)[1].

وقال يخاطب الرسول: (قل لو شاءَ الله ما تلوتُهُ (أي القرآن) عليكُم ولا أدراكُم به، فقد لبِثتُ فيكُم عُمراً من قبله، أفلا تعقلون)[2].

(ب) وترك الوحي للعقل في مجال التشريع أن يجول ويصول في فهم النصوص، فيفرع على الأصول، ويقيس على الفروع، ويستنبط الأحكام، ويكيف الوقائع، ويرى القواعد في جلب المصالح، ودرء المفاسد، ورفع الحرج وتحقيق اليسر، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان.

ولا عجب بعد، أن اختلفت المشارب، وتعددت المذاهب، وتنوعت الأقوال، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي، ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي.

(جـ) وترك للعقل في ميدان الأخلاق أن يصدر حكمه، وفتواه في كثير من الأعمال، التي يلتبس فيها الخير بالشر، ويشتبه الحلال بالحرام، ولم يغفل شأنه، بجانب الوحي، كمصدر للإلزام الأدبي، ومقياس للحكم الخلقي.

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) يونس: ١٦.

فإن الشريعة نفسها، بعد أن بينت الحلال الصريح، والحرام الصريح تركت المنطقة التي تختلط فيها الأوصاف، ويشتبه فيها الحكم، وفوضت لكل امرىء أن يستفتي فيها قلبه، ويتحرى فيها طمأنينة نفسه، أخذا بالأحوط والأسلم. هكذا قضى الرسول الحكيم حيث يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه»[١]، ويقول: «استفت قلبك واستفت نفسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وان أفتاك الناس وأفتوك»[٢].

(د) ثم ترك الوحي للعقل بعد ذلك أن يجول في آفاق هذا الكون العريض ما شاء، صاعداً إلى الأفلاك، وهابطاً إلى الأرض، ومتأملاً في النفس: (قُل انظُروا ماذا في السمواتِ والأرض)[٣]، (وفي الأرضِ آيات للموقنين. وفي أنفُسِكُم أفلا تُبصرون)[٤].

ترك له أن يكشف من ظواهر هذا الكون ما استطاع، وأن يسخر من قواه ما قدر عليه فكل ما فيه سخره الله لمنفعته: (وسخَّر لكُم ما في السمواتِ وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرُون)[٥]، (وسخَّر لكُم الفُلكَ لتجري في البحر بأمره، وسخَّر لكُم الأنهار. وسخر لكُم الشمسَ والقمرَ دائبين، وسخر لكم الليلَ والنهارَ. وآتاكُم من كلِّ ما سألتمُوه)[٦].

(هـ) ترك له أن يبتكر، ويخترع في وسائل الحياة، وأمور الدنيا ما شاء، ما دام ملتزماً حدود الحق والعدل، «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» (ولا تنْسَ

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه الإمام أحمد، والدارمي بإسناد حسن.
(٣) يونس: ١٠١
(٤) الذاريات: ٢٠، ٢١.
(٥) الجاثية: ١٣.
(٦) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

نصيبَكَ من الدُّنيا)[١].

(و) ترك للعقل أن يستفيد من تجارب الآخرين، وينتفع بتراث السابقين، ومعارف اللاحقين: (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[٢]، (أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لَهم قُلوب يعقِلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنَّها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور)[٣]، (ائتوني بِكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين)[٤] (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[٥] «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها»[٦].

وبهذا كله يتبين أن الوحي الإلهي لم يشل الفكر الإنساني ولم يجمده، بل كان له هادياً ومعيناً في بعض المجالات، وترك له الحرية الكاملة والاستقلال المطلق في مجالات أخرى، وإنها لكثيرة ورحيبة.

القرآن.... كتاب الإنسان:

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه، كتاب الإنسان. فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان.

إن كلمة «الإنسان» تكررت في القرآن ٦٣ ثلاثاً وستين مرة، فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل «بني آدم» التي ذكرت ست مرات، وكلمة «الناس» التي تكررت ٢٤٠ مئتين وأربعين مرة في مكي القرآن ومدنيه.

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الإسلام - محمد ﷺ - خمس آيات من سورة العلق ذكرت كلمة «الإنسان» في اثنتين منها، ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان.

---

(١) القصص: ٧٧.
(٢) الحشر: ٢.
(٣) الحج: ٤٦.
(٤) الأحقاف: ٤.
(٥) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.
(٦) من حديث رواه الترمذي، وابن ماجه.

هذه الآيات هي: (اقرأ باسم ربِّكِ الذي خلق. خلقَ الإنسانَ من علق. اقرأ وربُّك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسانَ مالم يعلم)[1].

دلالة الآيات الأولى من الوحي:

(اقرأ باسم ربك الذي خلق).

إن هذه الآيات الكريمة التي تكتب في أقل من سطرين، والتي بدأ بها الوحي الإلهي تاريخاً جديداً للبشرية، تعبر أوضح التعبير عن نظرة الإسلام إلى الإنسان وعلاقته بالله تعالى، وعلاقة الله تعالى به، إنها خطاب لمحمد (ﷺ)، ولكل إنسان يفهم الخطاب من بعده.

الإنسان في هذه الآيات مأمور أن يقرأ، والقراءة هنا رمز لكل عمل نافع يقوم به الإنسان، وإنما خص القراءة بالذكر، لأنها نقطة الانطلاق للإنسان. ومفتاح رقيه، ولأن العمل في الإسلام يجب أن يقوم على العلم،والعلم مفتاحه القراءة.

وأمر الإنسان بالقراءة معناه قدرته على أن يفعل، وقدرته على أن يترك أيضاً. وهذا يعني إثبات مسؤوليته، ودور إرادته. فالآلة لا تؤمر ولا تنهى.

ولم يؤمر الإنسان هنا بمجرد قراءة، بل بقراءة مقيدة «باسم ربه» الخالق، والقرآن هنا حريص على التعبير عن ذات الله سبحانه وتعالى في هذا المقام باسم «الرب» مضافاً إلى ضمير المخاطب وهو الإنسان، وذلك لما يوحي به اسم الرب من معاني التربية والرعـاية والترقية في مدارج الكمال، وما توحي به الإضافة والخطاب من القرب والاختصاص والتكريم.

وقد تكرر اسم الرب هكذا مرتين، مع وصفه مرة بالخالقية، ومرة بالأكرمية (وربُّك الأكرم) فعلاقة الإنسان ليست بمجرد رب، ولا برب كريم فقط، بل برب أكرم بل بالرب الأكرم على الأطلاق. لأنه يعطي بغير حساب، وبغير عوض ولا مقابل.

---

(١) العلق: ١-٥.

وذكر القرآن من دلائل أكرميته تعالى أنه: (الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم)، فالله تعالى بالنسبة إلى الإنسان «معلم» والإنسان متعلم ما لم يكن يعلم هذه ميزته استعداد للتعلم بالقراءة والكتابة بالقلم.

هذا أول نص نزل به الوحي الإلهي على محمد ﷺ، وهو نص فريد ورائع حقاً، فقد حرص على تأكيد أمور معينة من أول لحظة منها:

١ - إن الإنسان مخلوق مكلف.

٢ - العناية بشأن الإنسان حيث ذكر مرتين.

٣ - أول ما أمر به الإنسان القراءة.

٤ - تعظيم شأن القرآن حيث أمر بها مرتين.

٥ - أول أداة ذكرها الوحي: القلم.

٦ - أول ما وصف الله به نفسه: الرب - الخالق - الأكرم - المعلم.

٧ - أول ما وصف به الله الإنسان: القدرة على التعلم.

محمد.... الرسول الإنسان:

وإذا نظرنا إلى الشخص الذي جسد الله فيه الإسلام، وجعله مثالاً حياً لتعاليمه، وكان خلقه القرآن، نستطيع أن نصفه بأنه «الرسول الإنسان»، وسيرته ليست سيرة إله، ولا بعض إلـه، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم، بل هي سيرة النبي الإنسان.

والقرآن الكريم حريص كل الحرص في شتى المناسبات على تأكيد إنسانية الرسول محمد ﷺ، بمثل قوله تعالى: (قل إنما أنا بَشَر مِثلُكُم يُوحَى إليَّ أنما إلهكُم إله واحد)[1].

ويرد على المشركين المتعنتين من مقترحي الآيات الكونية ما يتصور منها وما لا يتصور، مثل أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وعنب،أو يسقط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.. الخ.

---

(١) الكهف: ١١٠.

هذه السلسلة من المقترحات السخيفة العجيبة، فيطلب من الرسول أن يرد عليهم بهذه الكلمة الموجزة (سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً)[1].

ولما استبعد بعضهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم، يمشي على الأرض وافترضوا أن يكون الرسول ملكاً ينزل من السماء، رد عليهم القرآن فقال: (قل لو كانَ في الأرضِ ملائكة يمشون مطمئنين، لنزَّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)[2].

ولهذا رأيناه ﷺ يأكل ويشرب ويتزوج وينجب، ويفرح ويحزن، ويرضى ويسخط، ويصيب ويخطىء، ويذكر وينسى، ويمارس ما يمارسه كل بشر عادي إلا ما كان فيه إثم أو دناءة مما لا يليق بمنصب الرسالة، وبهذا صلح أن يكون قدوة للبشر كل البشر: (لقد كان لكُم في رسول الله أسوة حسَنة)[3].

الجانب الإنساني في دعوات الرسل:

ويلفت القرآن الكريم نظرنا إلى أن الأنبياء الذين بعثهم الله دعاة إلى توحيده، وكان أول نداء لهم إلى أقوامهم (أن اعبُدوا الله ما لكُم من إله غيره)[4]، لم تهمل دعوتهم الجانب الإنساني، بل عملت على إصلاحه، ومقاومة الفساد والانحراف في الحياة البشرية.

فهذا هود عليه السلام ـ كما ينكر على قومه الشرك بالله ـ ينكر عليهم العبث، والانحراف، والبطش والجبروت (أتبنُون بكل رَيع آية تعبثون. وتتَّخذون مَصانعَ لعلكُم تخْلُدون. وإذا بطشتم بطشتُم جبارين)[5].

وصالح يحذر قومه من الطغاة المفسدين: (فاتقوا الله وأطيعون ولا تُطيعوا أمر المسرفين. الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون)[6].

---

(١) الإسراء: ٩٣.
(٢) الإسراء: ٩٥.
(٣) الأحزاب: ٢١.
(٤) المؤمنون: ٣٢.
(٥) الشعراء: ١٢٨ـ١٣٠.
(٦) الشعراء: ١٥٠ـ١٥٢.

ولوط يقول لقومه: (أتأتون الفاحِشَةَ ما سبقكُم بِها من أحد من العالمين)[1] (أتأتُون الذُكران من العالمين. وتذرون ما خلَق لكُم ربُّكم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون)[2].

وشعيب يقول لقومه: (يا قوم اعبُدوا اللهَ مالكُم من إلهٍ غيرهُ، ولا تَنقُصُوا المكيَال والميزان، إنِّي أراكم بخيرٍ وإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقِسط، ولا تَبخسُوا الناسَ أشياءَهُم ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدين. بقيةُ الله خيرُ لكم إن كُنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ)[3]. فهنا نجد شعيباً يبدأ قومه بدعوتهم إلى التوحيد الذي هو أساس البناء في الرسالاتِ الإلهية كلها، ويستغرق هذا منه جملة واحدة، ثم يسهب ويفيض في دعوتهم إلى العدل في معاملاتهم الاقتصادية،والأعراض عما كانوا عليه من التطفيف والبخص والإفساد، وهنا يردون عليه في جهل ساخر، أو في سخرية جاهلة، إذا (قالوا، يا شعيبُ أصلَواتُكَ تأمُرُكَ أن نَّترُكَ ما يعبد آباؤنا، أو أن نفعَل في أموالِنا ما نشاءُ، إنك لأنت الحليمُ الرشِيدُ)[4].

وهكذا نجد دعوات الرسل، لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني، وما تتطلبه من علاج وإصلاح. ولكن ما موقف دعوة الإسلام من الجانب الإنساني؟!

الجانب الإنساني في رسالة الإسلام:

إن كل دارس للإسلام في كتابه وسنة رسوله، يتبين له بجلاء: أنه وجه عناية بالغة إلى «الجانب الإنساني» وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه، وتوجيهاته، وتشريعاته.

وإذا نظرت في الفقه الإسلامي وجدت «العبادات»، لا تأخذ إلا نحو

---

(١) الأعراف: ٨٠.
(٢) الشعراء: ١٦٥، ١٦٦.
(٣) هود: ٨٤-٨٦.
(٤) هود: ٨٧.

الربع أو الثلث من مجموعه، والباقي يتعلق بأحوال الإنسان من أحوال شخصية، ومعاملات، وجنايات، وعقوبات، وغيرها.

على أنك إذا تأملت العبادات الكبرى نفسها، وجدت إحداها «إنسانية» في جوهرها، وهي عبادة «الزكاة»، فهي تؤخذ من الإنسان الغني؛ لترد على الإنسان الفقير. هي للأول تزكية وتطهير، وللثاني إغناء وتحرير.

والعبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنساني تلمحه في ثناياها.

فالصلاة عون للإنسان في معركة الحياة: (يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)[1].

والصوم تربية لإرادة الإنسان على الصبر في مواجهة المصاعب، وتربية لمشاعره على الاحساس بآلام غيره، فيسعى إلى مواساته. ولهذا سمى النبي - ﷺ -، شهر رمضان «شهر الصبر» و «شهر المواساة»[2].

والحج مؤتمر رباني إنساني، دعا الله فيه عباده المؤمنين: (ليشهَدُوا مَنافِعَ لَهُم ويذكُروا اسم اللهِ في أيامٍ معلومات)[3]، فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنساني في أهداف الحج.

وفوق ذلك نجد النبي ﷺ يرفع إلى درجة العبادة كل عمل يؤديه المسلم، يترتب عليه نفع مادي لإنسان، أو سرور نفسي لإنسان.

ولا يكاد مسلم يجهل الأحاديث النبوية التي تقرر أن: إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأن أمرك بمعروف صدقة، ونهيك عن منكر صدقة، وحملك الرجل الضعيف على دابته صدقة، وإصلاحك بين اثنين صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة.. الخ ما جاء به الحديث من ألوان البر الإنساني، والخدمة الاجتماعية.

بل إن النبي ﷺ ليرتفع بهذا اللون من البر والخدمة الإنسانية اليومية، إلى

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) كما في حديث سلمان عند ابن خزيمة.

(٣) الحج: ٢٨.

منزلة الواجب الذي يؤاخذ من تركه عمداً وهو قادر عليه .

روى الشيخان عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: « على كل مسلم صدقة » فقال أصحابه: يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يتصدق به، وقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟!

أي: أنهم حسبوا الصدقة محصورة في إعطاء شيء من المال للمحتاج، فبين لهم سعة مفهوم الصدقة التي يأمر بها كل مسلم، حتى من لم يجد ما لا يتصدق به، فقال: يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟! قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف، أو الخير، قالوا: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها له صدقة.

وأكثر من ذلك، أن الرسول ﷺ يجعل هذه الفريضة الإنسانية الاجتماعية اليومية على كل سُلامى من جسم الإنسان، أي كل مفصل من مفاصله.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان « كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة ».

وفي بعض الأحيان تجد الأحاديث النبوية تعطي قيمة لبعض الأعمال الإنسانية. ترفع بها درجتها على الاشتغال بالقربات الدينية. وذلك في الأعمال التي تتسع دائرة النفع بها للخلق، أو يدرأ بسببها شر كثير عن الناس، مثل إصلاح ذات البين، وعدل الوالي في ولايته. ونحو ذلك..

نقرأ في الحديث الشريف: « ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين » فإن فساد البين هي الحالقة »[1] يعني حالقة الدين، لا حالقة الشعر كما جاء في إحدى الروايات[2].

---

(١) رواه أبو داوود، والترمذي، وابن حبان في صحيحه.
(٢) رواه الترمذي.

ونقرأ كذلك «ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة»[(١)].

ونقرأ كذلك هذا الحديث العجيب:

«أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له، ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام»[(٢)].

إنسانية الإنسان:

ولقد عرف العالم فيما عرف من مذاهب وفلسفات وأفكار، يضرب بعضها بعضاً اتجاهين فكريين يناقض أحدهما الآخر:

اتجاه يؤله الإنسان يجعله إله نفسه، لا رب خلقه، ولا إله يدبر أمره ولا حساب ينتظره، ولا آخرة يصير إليها، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

واتجاه آخر، ينظر إلى الإنسان على أنه مجرد «حيوان»، حيوان متطور، أو حيوان «منتج»، أو حيوان «اجتماعي».

المهم أنه حيوان، وأساسه هو هذه «الحيوانية»، ومن زاويتها ينظر إليه ويتعامل معه، ويفسر سلوكه، وتحدد علاقاته.

أما الإسلام، فلا يرفع الإنسان إلى مقام الألوهية، ولا يهبط به إلى درك الحيوانية.

فليس إلهاً من وجد بعد أن لم يكن، ومن يموت بعد عمر يقصر أو يطول، من ولد بغير اختياره، ويموت بغير اختياره، ويعيش بين الولادة والموت تحكمه سنن كونية لا يملك لها دفعاً، فهو - رغم ما منح من عقل وإرادة ووسائل - عاجز مقهور أمام كثير من الأشياء والأحداث والمواقف،

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، والأوسط عن ابن عباس، واسناد الكبير حسن، كما في الترغيب.

(٢) رواه الأصبهاني من حديث ابن عمر واللفظ له، ورواه ابن أبي الدنيا عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولم يسمه، وأشار المنذري إلى ضعفه في «الترغيب والترهيب» وذكر الألباني في «صحيح الجامع الصغير وزيادته»: أنه حسن.

والعاجز المقهور كيف يكون إلهاً، وصفة الإله أنه القادر القهار؟

ومع أنه ليس إلهاً، فليس حيواناً. إن نفي الإلهية عن الإنسان لا يعني إثبات الحيوانية له، فالإنسان جنس متميز، كرمه الله بالعقل، وبالإرادة، وبالروح.

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان:

الإنسان ـ إذن ـ في نظر الإسلام مخلوق متميز، مخلوق مكرم، ميزه الله وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ويحسن هنا أن نذكر بعض مظاهر التكريم الإلهي للإنسان.

(أ) استخلافه في الأرض:

لقد أعلن الإسلام كرامة الإنسان، فاعتبره خليفة الله في الأرض، وهي منزلة اشرأبت إليها أعناق الملائكة، وتشوفت إليها أنفسهم، فلم يعطوها، ومنحها الله للإنسان: (وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعِلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسْفِكُ الدماءَ، ونحن نُسبّحُ بحمدِكَ ونُقدِّسُ لك، قال إني أعلمُ ما لا تعلمون. وعلَّم آدمَ الأسماءَ كُلها ثم عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كُنتم صادقين. قالوا سُبحانكَ، لا عِلمَ لنا إلا ما عَلمتَنَا، إنكَ أنتَ العليم الحكيم. قال يا آدمُ أنبئهُم بأسمائِهِم، فلما أنبأهُم بأسمائِهِم قال ألم أقُل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تُبْدُون وما كنتم تكتمون)[١]

لقد كرم الله الإنسان بالخلافة في الأرض، وهيأه لها بالعقل والعلم الذي تفوّق به على الملائكة.

(ب) خلقه في أحسن تقويم:

وأعلن الإسلام كذلك أن الله كرم الإنسان بالصورة الحسنة وبالخلقة

(١) البقرة: ٣٠-٣٣.

الحسنة، كما قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)[1] (وصَوَّركُم فأحسنَ صُوركَم)[2].

وقد كان النبي - ﷺ - يكرر هذا الدعاء في سجوده: «سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين».

(جـ) تمييزه بالعنصر الروحي:

وفوق ذلك كله كرمه بالروح العلوي الذي أودعه الله بين جنبيه، فهو قبس من نور الله، ونفخة من روح الله، استحق به أن تنحني له الملائكة إجلالاً وإكباراً لمقْدَمِهِ بأمر الله، كما قال تعالى لملائكته: (إني خالق بشراً من طين. فإذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيه من روحي فقعُوا لهُ ساجدين)[3].

وهذه النفخة الروحية الإلهية ليست خاصة بآدم أبي البشر، كما قد يتوهم بعض الناس، فإن بنيه ونسله جميعاً قد نالهم حظ منها، كما قال تعالى بعد أن ذكر خلق آدم: (ثم جعل نسلَهُ من سُلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون)[4].

فلم يكن هذا التكريم والاحتفال لشخص آدم عليه السلام، وإنما كان تكريماً للنوع الإنساني في شخصه. فإن الله ميزهم بما ميزه من مواهب العقل والعلم والروح، واستخلفهم كما استخلفه في الأرض، ولهذا أعلن القرآن كرامة البشر كافة حين قال: (ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهُم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[5].

وهذا كله يثبت أن الإنسان نوع متفرد متميز عن سائر الحيوانات، فإنها - وإن شابهته في عناصر تكوينها الطيني - تخالفه ويخالفها في التكوين المعنوي، إذا لم يكرمها الله بما كرمه به من الروح والعقل، لأنها لم تُكَلَّف ما

(١) التين: ٤.
(٢) التغابن: ٣.
(٣) سورة ص: ٧١، ٧٢.
(٤) السجدة: ٨، ٩.
(٥) الإسراء: ٧٠.

كلفه من عمارة الأرض وخلافة الله فيها.

فهي مجرد أداة له في مهمته، ليسخرها في حاجته.

ولا ريب أن إيحاء هذا المعنى في نفس الإنسان، غير إيحاء الذين ينظرون إليه على أنه ليس إلا حيواناً «تطور»، وترقى حتى صار إلى ما هو عليه الآن[١].

(د) تسخير الكون لخدمة الإنسان:

وكان من تكريم الله للإنسان - في نظر الإسلام - أنه جعل الكون كله في خدمته. وسخر لمنفعته العوالم كلها السماء والأرض، الشمس، والقمر، والنجوم، الليل والنهار، الماء واليابس، البحار والأنهار، النبات والحيوان والجماد، كلها مسخرة لمصلحة الإنسان وسعادة الإنسان، كرامة من الله له، ونعمة منه عليه.

يقول تعالى مخاطباً بني الإنسان: (اللهُ الذي خلق السمواتِ والأرض، وأنزل من السماءِ ماءً فأخرَج به من الثَّمرات رِزقاً لكُم، وسخَّر لكُم الفُلكَ لتجري في البحر بأمره، وسخر لكُم الأنهارَ، وسخر لكُم الشمسَ والقمرَ دائبين، وسخرَ لكُم الليلَ والنهَار. وآتاكم من كلِّ ما سألتُموه، وإن تعدُّوا نِعمة الله لا تُحصوها)[٢].

(الله الذي سخر لكُم البحر لتجري الفُلك فيه بأمره، ولِتَبْتَغوا من فضلِه

---

(١) كما هو مذهب داروين الذي لم يقم عليه دليل صحيح، وإنما روجته الصهيونية لحاجة في نفسها، كما اعترفوا به في (بروتوكولات حكماء صهيون)، وحتى أتباع داروين من بعده لم يستطيعوا إلا أن يخالفوه ويثبتوا بالعلم «تفرد الإنسان»، وهؤلاء هم الذين يطلق على مذهبهم اسم «الداروينية الحديثة». انظر: في تقويم نظرية داروين كتاب الأستاذ قيس القرطاس «نظرية داروين بين مؤيديها ومعارضيها»، وكتاب «الإنسان في القرآن الكريم» للأستاذ عباس العقاد، و «الإنسان بين المادية والإسلام» للأستاذ محمد قطب.

(٢) إبراهيم: ٣٢-٣٤.

ولعلكُم تشكرون. وسخَّر لكُم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[1].

(ألم تَروْا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السماوات وما في الأرض وأسبَغ عليكم نِعمَهُ ظاهِرة وباطنة)[2].

وتسخير الكون للإنسان يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: أن الطاقات الكونية كلها مهيأة ومبذولة للإنسان، لا يستعصي شيء منها عليه إذا تيسرت سبله، ورعيت سنن الله فيه. فعليه أن يبذل جهده ويعمل فكره، في فتح مغاليقها، واكتشاف مخبوئها، ليستخدمها فيما يعود عليه بالخير والسعادة.

وثانيهما: أن الإنسان هو واسطة العقد في هذا العالم، وإن صغر حجمه، بالنسبة للمكان، أو قصر عمره، بالنسبة للزمان. فلا يجوز للإنسان إذن أن يؤله شيئاً في هذا العالم، أو يتعبد له رغباً أو رهباً، والذين عبدوا بعض الأشياء، أو المظاهر أو القوى الكونية، في العالم العلوي أو السفلي، قلبوا الحقائق، وحولوا الإنسان من سيد سخر له الكون، إلى عبد ذليل، يسجد لنجم، أو شجرة، أو بقرة، أو حجر من الأحجار، أو غير ذلك مما سجله التاريخ من أوهام البشر وضلالاتهم إذا انحرفوا عن هداية الله، على عكس ما أراد الله للإنسان، وما أراده من الإنسان.

تميز «الإنسانية» في الإسلام:

ولا ريب أن هناك أدياناً، ونحلاً، ومذاهب، وفلسفات تهتم بالإنسان وتحرص على سعادته، وقد تعلن وتفاخر بأنها «إنسانية».

ولكن العيب المشترك في هذه الديانات، والمذاهب أنها لم تعرف الإنسان معرفة محيطة به، وإنما نظرت إليه من زاوية معينة، أو من جانب خاص،

---

(١) الجاثية: ١٢، ١٣.
(٢) لقمان: ٢٠.

غافلة عن الجوانب الأخرى، برغم أهميتها في وجوده، فجارت على الإنسان باسم الإنسان.

إن بعض الأديان والفلسفات نظرت إلى الجانب الروحي في الإنسان، غير عابئة بجانبه العقلي، وجانبه الحسي والمادي. بل ربما دعت إلى تعذيب الجسم في سبيل سعادة الروح.

وبعض المذاهب والفلسفات لم تنظر إلا إلى الجانب المادي في الإنسان، ولم تبال بغيره، ولم تعترف به، فالإنسان كائن اقتصادي، أو حيوان منتج، لا أكثر.

وبعض المذاهب والفلسفات «ألّهت» الإنسان، واعتبرته كائناً مستقلاً، «يقوم وحده» مستغنياً عن الله، فأساءت إلى الإنسان من حيث أرادت الإحسان إليه، وجعلته «نباتاً شيطانياً»، خرج إلى الوجود من غير زارع، ولغير هدف، إلا أن ييبس ويصبح هشيماً تذروه الرياح، أو تأكله النار.

وبعض المذاهب ـ كالرأسمالية ـ تدلل الإنسان الفرد، وتطلق له العنان، حتى يتحطم في النهاية ـ باسم الحرية ـ دون أن تجعل للمجتمع حقاً في مراقبته ومحاسبته، وتقويمه من أجل مصلحته هو في النهاية، ومصلحة المجتمع من ورائه.

وبعض آخر ـ كالشيوعية ـ، يضغط على الإنسان الفرد، ويكبله بقيود شتى، ويحرمه من كثير من الحريات، وكثير من الحقوق الطبيعية ـ باسم المجتمع ـ حتى يكاد يسحقه سحقاً.

أما الإسلام، فقد تميز عن هذه الأديان والفلسفات بنظرته الشاملة المحيطة لماهية الإنسان، والنفاذ إلى أغوار طبيعته، والاعتراف بكل جوانبه وخصائصه، دون ميل أو شطط، أو إهمال لناحية لحساب أخرى.

بين إنسان المسيحية وإنسان الإسلام:

إن الأديان السماوية كلها قد جاءت لتحرير الإنسان، وإسعاده، والسمو

به، ولكن أصابها الغلو أو التحريف والتزييف، بما بدل جوهرها، وأخرجها عن رسالتها، ونظراً لأنها كانت رسالات مرحلية موقوتة لم يكتب الله لها الخلود، ولم يتكفل بحفظها، كما تكفل بحفظ القرآن، بل استحفظها أهلها، فضيعوا وبدلوا.

وأبرز مثل لذلك المسيحية التي جاءت لإنقاذ الإنسان من سيطرة العقلية اليهودية في ماديتها، وشكليتها وعنصريتها. فلم تلبث أن حُرِّفت بالحذف والزيادة حتى أصبحت ـ في القرون الوسطى ـ غلاً في عنق الإنسان، وقيداً في رجله.

اعتبرت الإيمان ضداً للعقل. فكان شعارها: اعتقد وأنت أعمى.

واعتبرت الجسم عدواً للروح، فأهملت الأجسام إبقاء على الأرواح.

واعتبرت العمل للحياة منافياً للتعبد لله، فابتدعت نظام الرهبنة، والانقطاع عن الحياة.

واعتبرت الإنسان ملوثاً بالخطيئة من يوم يولد، لأنها لازمة لوجوده، ورثها من أبيه الأول.

وحجرت على الإنسان أن يتصل بربه إلا بوساطة كاهن بيده مفاتيح الجنة، وملكوت السماء.

(هـ) إلغاء الوساطة الكهنوتية بين الله والإنسان:

ذلكم هو إنسان المسيحية في صورتها التاريخية المعروفة، أما إنسان الإسلام، فهو شيء آخر.

لقد كان من دلائل تكريم الله للإنسان في نظر الإسلام، أنه فتح له باب التقرب إليه سبحانه وتعالى أنى شاء، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون في ضميره، ويقفون حجاباً بينه وبين ربه. يقول الله تعالى مخاطباً لرسوله الكريم: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا

دعان)[1] ويقول في آية أخرى: (وقال ربُّكم ادعوني أستَجِب لكُم)[2]. (فاذكُروني أذكرْكُم وأشكروا لي ولا تكفرون)[3].

ويعلن الحديث القدسي أن من تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إلى الله ذراعاً تقرب الله إليه باعاً[4].

لا حاجة بالإنسان إذن إلى وساطة كاهن، يصل عن طريقه إلى الله، ولا يقبل الله منه عبادة بغير توسطه، ولا يستطيع التوبة من ذنب ارتكبه إلا بالجلوس أمامه في ذل، وخنوع على كرسي الاعتراف المشهور. فليس في الإسلام كاهن ولا كهنوت.

وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء، وأين شاء، بعيداً عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسمسرة بين الله وعباده.

يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب إليه من حبل الوريد، دون وسيط أو شفيع وقد قال تعالى: (وإذا سَألَكَ عبادي عني فإنِّي قريب)[5].

ويستطيع أن يصلي ويتعبد في أي مكان، وحده أو مع غيره، دون حجر أو تضييق، فالأرض كلها له مسجد، والله بين يديه حيث كان: (فأينَمَا تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله)[6].

ويستطيع أن يناجى الله مباشرة في أي ساعة من ليل أو نهار، فليس على بابه حاجب ولا بواب[7].

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين، دون العصاة والمذنبين.

كلا، فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه، ووقف

---

(١) البقرة: ١٨٦.
(٢) غافر: ٦٠.
(٣) البقرة: ١٥٢.
(٤) من حديث رواه البخاري.
(٥) البقرة: ١٨٦.
(٦) البقرة: ١١٥.
(٧) انظر: كتابنا «العبادة في الإسلام» موضوع «تحرير العبادة من رق الكهنوت» ص ١٤٨ ـ ١٥٦ ط خامسة.

على عتبته ضارعاً مستغفراً، وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب. يقول تعالى:

(والذين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّهَ فاستغفروا لِذنُوبهم، ومن يَغفِرُ الذنوبَ إلا الله؟ ولم يُصِرّوا على ما فعلوا وهُم يعلمون)[١].

وفي الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم»[٢].

وفي القرآن الكريم: (قُل يا عبادي الذين أسرفُوا على أنفُسِهم لا تقنطُوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفِرُ الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم)[٣]، وما أجمل وأرق هذاالنداء (يا عبادي)، فرغم خطاياهم وإسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته، ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم إلى ذاته القدسية، إيناسا لهم، وتحبباً إليهم.

(و) الاعتراف بالكيان الإنساني كله:

وكان من تكريم الإسلام للإنسان أن اعترف به كله كما فطره الله: جسمه وروحه، عقله وقلبه، إرادته ووجدانه، فلم يغفل حق جانب من هذه الجوانب لحساب آخر.

١ ـ ولهذا أمره بالسعي في الأرض، والمشي في مناكبها، والأكل من طيباتها، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده فيها، وحثه على النظافة، والتجميل والاعتدال، ونهاه عن المسكرات، والمفترات وكل ما يضر تناوله، وفاء بحظ جسمه.

٢ ـ وأمره بعبادة الله وحده، والتقرب إليه بأنواع الطاعات، من صلاة، وصيام، وصدقة، وزكاة، وحج وعمرة، وذكر ودعاء، وإنابة وتوكل،

(١) آل عمران: ١٣٥.
(٢) رواه مسلم من حديث أبي ذر المشهور.
(٣) الزمر: ٥٣.

وخوف ورجاء، وبر وإحسان، وجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من ألوان العبادة الظاهرة والباطنة ـ وفاء بحق الروح.

٣ ـ وأمره بالنظر والتفكير في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وفي مصاير الأمم، وسنن الله في المجتمعات، كما أمره بطلب العلم، والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت منه، وأنكر عليه الجمود والتقليد للآباء والكبراء، كل ذلك وفاء بحق العقل.

٤ ـ ولفته إلى جمال الكون بأرضه وسمائه ونباته وحيوانه، وما زانه الله به من مظاهر الحسن والبهجة، ليشبع حاسة الجمال في نفسه، ويشعر في أعماقه بعظمة ربه، الذي أحسن كل شيء خلقه. كما أنه أباح له التمتع بألوان من اللهو وترويح النفس، دفعا للسآمة عنها، فإنها تمل كما تمل الأبدان، وتتعب كما تتعب، وفي هذا رعاية لجانب الوجدان والعاطفة.[١]

(ز) تحرير الإنسان من اعتقاد وراثة الخطيئة الأولى:

ومن كرامة الإنسان في الإسلام: أنه أزال عنه وصمة التلوث بالخطيئة، التي يولد عليها كل إنسان، كما هي دعوى المسيحية، التي زعمت أن خطيئة آدم ـ بالأكل من الشجرة المحرمة ـ ورثت لبنية ذكوراً وإناثاً، فلا يولد مولود إلا وفي عنقه هذه الخطيئة، ولا ينجو إنسان من إثمها وتبعتها إلا بكفارة وفداء، ولم يتحقق هذا الفداء إلا بصلب المسيح ـ فيما زعموا ـ ومن ثم كانت حتمية الإيمان بالمسيح فادياً مخلصاً!.

أما الإسلام فقد ألغى هذا كله، وأعلن أن «كل مولود يولد على الفطرة»[٢] غير ملوث بخطيئة، أو مثقل بذنب.

كما قرر الإسلام بوضوح وحسم مسؤولية الإنسان عن نفسه، فلا يجوز في منطق العدل الإلهي أن يحمل الابن وزر أبيه، أو الحفيد وزر جده: (ولا

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام في الإسلام» فصل: «اللهو والترفيه».
(٢) من حديث رواه البخاري.

تَكسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليّها، ولا تَزِر وازِرَة وِزر أُخرى)[١].

على أن معصية آدم نفسها، قد غسلتها التوبة، وانتهى أمره بالاجتباء والهداية من ربه، كما قال تعالى: (وعصى آدم ربّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهدى)[٢].

يقول الدكتور نظمي لوقا، المسيحي المصري في كتابه «محمد: الرسالة والرسول»: إن أنس لا أنسى ما ركبني صغيراً من الفزع والهول من جراء تلك الخطيئة الأولى وما سيقت فيه من سياق مروع، يقترن بوصف جهنم، ذلك الوصف المخيف لمخيلة الأطفال، وكيف تتجدد فيها الجلود كلما أكلتها النيران، جزاء وفاقاً على خطيئة آدم بإيعاز من حواء. وأنه لولا النجاة على يد المسيح الذي فدى البشر بدمه الطهور!، لكان مصير البشرية كلها الهلاك المبين!.

«وإن أنس لا أنسى القلق الذي ساورني وشغل خاطري عن ملايين البشر قبل المسيح: أين هم؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة؟!

«والحق انه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القاتمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضي المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق، بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث.

«إن تلك الفكرة القاسية تسمم ينابيع الحياة كلها، ورفعها عن كاهل الإنسان منة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقاً، ورد اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه»[٣].

---

(١) الأنعام: ١٦٤.
(٢) طه: ١٢١، ١٢٢.
(٣) «محمد: الرسالة والرسول».

تقرير حقوق الإنسان:

وقبل أن تسمع أذن الدنيا عن حقوق الإنسان باثنتي عشر قرناً أو تزيد، ويوم كان العالم كله لا ينظر للإنسان إلا من جهة ما عليه من واجبات يطالب بأدائها، وإلا كان عليه من العقاب ما يستحق. جاء الإسلام ليقرر جهرة أن للإنسان حقوقاً ينبغي أن تُرعى، كما أن عليه واجبات ينبغي أن تؤدى.

وكما أنه يُسئل عما عليه، يجب أن يُعطى ماله، فكل واجب يقابله حق. كما أن كل حق يقابله واجب.

وهذه الحقوق ليست منحة من مخلوق مثله له، يمن بها عليه إن شاء ويسلبها منه متى شاء.

كلا، ليست منحة من إمبراطور أو ملك أو أمير، أو حزب أو لجنة. إنما هي حقوق قررها الله له بمقتضى فطرته الإنسانية. فهي حقوق ثابتة دائمة بحكم الطبيعة والشريعة جميعاً.

من هذه الحقوق: حق الحياة، حق الكرامة، حق التفكير، حق التدين والاعتقاد، حق التعبير، حق التعلم، حق التملك، حق الكفاية من العيش، حق الأمن من الخوف.

وسأقتصر هنا على الحديث الخاطف عن بعض هذه الحقوق، طلباً للاختصار، وللتفصيل مجال آخر.[١]

حق الحياة للإنسان:

قدس الإسلام حق الحياة وحماه بالتربية والتوجيه، وبالتشريع والقضاء، وبكل المؤيدات النفسية والفكرية والاجتماعية. واعتبر الحياة هبة من الله لا يجوز لأحد أن يسلبها غيره. لا يجوز لحاكم أن يسلب حياة المحكوم. ولا لسيد

---

(١) وقد ألفت في ذلك كتب يمكن الرجوع إليها من أراد التفصيل، أذكر منها: حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبدالواحد وافي، وحقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالي.

أن يسلب حياة عبده، ولا لزوج أن يسلب حياة زوجه، ولا لوالد أن يسلب حياة ولده.

ولا غرو أن أنكر القرآن على أهل الجاهلية من العرب الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم. وأدوا البنات خاصة مخافة العار، وقتلوا البنين والبنات جميعاً من أجل الإملاق الواقع، أو خشية الإملاق المتوقع، وجعل القرآن ذلك من أكبر الآثام: (وإذا المؤودة سُئِلت. بأي ذنب قُتلت)[1]. (ولا تقتلوا أولادَكم خَشْيَةَ إملاق، نحن نرزقُهُم وإياكُم، إن قَتْلَهُم كان خِطئاً كبيراً)[2].

لم يفرق الإسلام في حق الحياة بين أبيض وأسود، ولا بين شريف ومشروف، ولا بين حر وعبد، ولا بين رجل وامراة، ولا بين كبير وصغير، حتى الجنين في بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها، حتى الجنين الذي ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه، لأنه نفس محترمة، لا يحل الاعتداء عليها. ولما جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، وأقرت عنده أنها زنت وأنها حبلى من الزنى، وطلبت إليه أن يطهرها بإقامة حد الله عليها، قال لها: اذهبي حتى تلدي، فلما ولدت جاءت بطفلها، مطالبة باقامة الحد مرة أخرى، فقال لها: اذهبي حتى تفطميه. ولم ينفذ فيهـا العقوبة إلا بعد أن جاءت به بعد أن أصبح يأكل الطعام. كل هذا رعاية لحق الجنين، ثم المولود الرضيع، لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه، أو اقترفه أبوه، (ولا تَزِرُ وازرة وزر أخرى).

ومن أجل المحافظة على الحياة، جاءت آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ، تنذر بأشد العذاب من اعتدى على نفس بغير حق. حتى ذهب بعض العلماء في الإسلام إلى أن القاتل لا تقبل له توبة.

وفي سبيل المحافظة على الحياة شرع الإسلام في قتل العمد القصـاص،

---

(١) التكوير: ٨، ٩.

(٢) الإسراء: ٣١.

مع ترغيبه في العفو والصلح بعوض أو بغير عوض (ياأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُم القِصاصُ في القتلى)[1] إلى أن يقول: (فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)[1] (ولكُم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكُم تتقون)[2].

كما شرع الدية والكفارة في قتل الخطأ قال تعالى: (وما كان لمؤمِن أن يقتُلَ مُؤمِناً إلا خطئاً، ومن قَتَلَ مُؤمِناً خطئاً فتحريرُ رقبةٍ مُؤمِنة وَدِيةٌ مُسلَّمة إلى أهلِهِ إلا أن يَصَّدقُوا، فإن كان من قوم عدوٌ لكُم، وهو مؤمن، فتحريرُ رقبةٍ مُؤمِنةٍ، وإن كان من قوم بينكُم وبينهُم مِيثاق، فَديَة مُسلَّمة إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبة مُؤمنة، فمن لم يجد فَصِيامُ شَهرين متتابعين تَوبةً من الله، وكان الله عليماً حكيماً)[3].

ونلاحظ في الآية الكريمة أن الكافر الذي بينه وبين المسلمين ميثاق وحلف، يجب في قتله خطأ ما يجب في قتل المؤمن من الدية والكفارة. وقد جاءت الأحاديث مؤكدة بأن من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة.

وكيف لا يحمي الإسلام حق الحياة للإنسان، وقد حمى حياة الحيوان إذا لم يكن منه أذى للناس، وفي الحديث الصحيح: «أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي حديث آخر: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها» مشيراً إلى قوله تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحية إلا أمم أمثالكم)[4].

فإذا كان هذا في شأن القطط والكتب، واحترام حياتها، واعتبارها أمما أمثالنا، فكيف تكون منزلة حياة الإنسان المكرم، خليفة الله في الأرض؟

---

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) البقرة: ١٧٩.
(٣) النساء: ٩٢.
(٤) الأنعام: ٣٨.

حق الكرامة وحماية العرض:

أكد الإسلام حرمة العرض والكرامة للإنسان، مع حرمة الدماء والأموال، حتى ان النبي ﷺ ،أعلن ذلك في حجة الوداع أمام الجموع المحتشدة في البلد الحرام، والشهر الحرام، واليوم الحرام: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأعراضكم وأموالكم»[١] فلا يجوز أن يؤذى إنسان في حضرته ولا أن يُهان في غيبته، سواء أكان هذا الإيذاء للجسم بالفعل أم للنفس بالقول. فربما كان جرح القلب بالكلام أشد من جرح الأبدان بالسياط أو السنان.

وكيف لا يحرم الإسلام القتل، وقد حرم ما دونه؟ أجل، لقد حرم الإسلام أشد التحريم أن يضرب إنسان بغير حق، وأن يجلد ظهره بغير حد، وأنذر باللعنة من ضرب إنساناً ظلماً، ومن شهده يضرب ولم يدفع عنه[٢]، وبهذا حمى بدن الإنسان من الإيذاء.

كذلك حرم الإسلام الإيذاء الأدبي للإنسان: حرم الهمز، واللمز، والتنابز بالألقاب، والسخرية والغيبة وسوء الظن بالناس، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى في سورة الحجرات[٣]، وبذلك حمى نفس الإنسان من الإهانة.

ولم يكتف الإسلام بحماية الإنسان في حالة حياته. فكفل له الاحترام بعد مماته، ومن هنا جاء الأمر بغسله وتكفينه ودفنه، والنهي عن كسر عظمه، أو الاعتداء على جثته[٤]، خلافاً للأمم التي تحرق جثث موتاها.

وفي هذا جاء الحديث النبوي: «كسر عظم الميت ككسره حياً»[٥].

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر.

(٢) معنى حديث رواه الطبراني، والبيهقي باسناد حسن كما في الترغيب والترهيب للمنذري.

(٣) الآيات ١٠-١٢ (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تَلمِزُوا أنفسكم ولا تَنابَزوا بالألقاب)... الآيات.

(٤) ما لم تدفع الى ذلك ضرورة أو حاجة، كمعرفة اسباب القتل وكيفيته. الذي يقوم به (الطب الشرعي) الآن، وقد يستلزم هذا تشريح الجثة أو كسر بعض العظام.

(٥) رواه أحمد، وأبو داوود، وابن ماجه عن عائشة، ورواه ابن ماجه عن أم سلمة بلفظ: (ككسر عظم الحي في الإثم) كما في الجامع الصغير للسيوطي.

وقال ابن حجر في الفتح:

يستفاد منه أن حرمة المؤمن بعد موته باقية كما كانت في حياته[1].

وكما حمى جسمه بعد الموت حمى عرضه وسمعته أيضاً، لئلا تلوكها الأفواه. فقال الرسول ﷺ: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير»[2].

حق الكفاية التامة:

ومن حق كل إنسان أن تهيأ له كفايته التامة من العيش بحيث تتوافر له الحاجات الأساسية للمعيشة، من مأكل وملبس ومسكن وعلاج وما يتصل بذلك مما يحتاج إليه الإنسان.

والواجب أن يكون للإنسان دخل كاف يحقق كفايته منه، عن طريق العمل المشروع، في زراعة أو تجارة أو صناعة، أو احتراف بحرفة نافعة للناس. سواء عمل الإنسان لنفسه أم لغيره بأجر يكافىء جهده.

فإذا لم يكن للإنسان دخل يكفيه، كان على أقاربه الموسرين أن يحملوه، لأنه جزء منهم، وهم جزء منه، وقد قال تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)[3].

وإن لم يكن له أقارب موسرون، يستطيعون حمله، وجبت كفايته من الزكاة، التي فرضها الله على المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم، فهي من الأمة وإليها.

ومن الجميل هنا: أن الزكاة لم تجب لتحقيق الكفاية فحسب للإنسان الفقير، بل لتحقيق تمام الكفاية له ولمن يعول من أهل وأقربين. فالحد الأدنى المطلوب للفقير في المجتمع الإسلامي، ليس هو حد الكفاف، ولا حد الكفاية، بل تمام الكفاية.

---

(١) فيض القدير، شرح الجامع الصغير للمناوي ٤ / ٥٥٠-٥٥١.
(٢) رواه أبو داوود الطيالسي في مسنده بسند جيد كما في كشف الخفاء للعجلوني ١ / ١٠٦.
(٣) الأنفال: ٧٥.

ولقد ذكر الفقهاء: أن كتب العلم من تمام الكفاية، وأن آلات الحرفة من تمام الكفاية.

بل اعتبروا الزواج لمن لا زوجة له من تمام الكفاية.

والمطلوب: تمام الكفاية له ولأسرته لمدة سنة كاملة[١].

بل ذهب الإمام الشافعي ـ وهو قول في بعض المذاهب الأخرى ـ إلى وجوب كفاية العمر للفقير، بحيث لا يحتاج إلى الزكاة مرة أخرى. وقد صح عن عمر قوله: «إذا أعطيتم فأغنوا» وقوله: «والله لأكررن عليهم الصدقة ولو راح على أحدهم مئة من الإبل»[٢]. وهذا المقدار ـ مئة من الإبل ـ يساوي عشرين نصاباً من أنصبة الزكاة في الإبل.

وليست الزكاة هي الحق الوحيد في المال، بل هي الحق الدوري الثابت الذي وصل به الإسلام إلى أعلى درجات الإلزام، فاعتبر إيتاءها من أركان الإسلام الخمسة، وقرنها بالصلاة ـ عمود الدين ـ في عشرات المواضع من القرآن والحديث، وفرض أداءها طوعاً وبطيب نفس، وإلا أخذت كرهاً، ولو بقوة السلاح، حتى لا يضيع حق الفقير في تمام كفايته وكفاية أهله. ولا يجهل أحد حروب الخليفة الأول أبي بكر الصديق من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء.

ومع هذا إذا لم تقم حصيلة الزكاة بتحقيق تمام الكفاية للفقراء والمساكين، وجب على أغنياء كل بلد أن يقوموا بكفاية فقرائهم، وإن لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، ألزمهم السلطان بذلك باسم الشرع الذي أوجب التكافل بين المسلمين، واعتبرهم كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، وليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع.

على أن دائرة هذا التكافل ليست مغلقة على المسلمين وحدهم، بل تشمل معهم من يعيش في ظل دولة الإسلام من أهل الذمة.

---

(١) انظر: في هذا، كتابنا «فقه الزكاة» جـ ٢ ص ٥٦٧ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٤ ـ ٥٦٧.

وقد رأينا عمر الفاروق يأمر خازن بيت المال أن يفرض ليهودي ـ رآه يسأل الناس ـ من بيت مال المسلمين ما يكفيه، وجعل ذلك قاعدة له ولأمثاله من أهل الكتاب، وكتب بذلك عمر بن عبدالعزيز إلى بعض ولاته لنيفذه[1].

كما أن عمر ـ وهو في طريقه إلى الشام ـ وجد جماعة مجذومين من النصارى، فأمر باجراء القوت عليهم من الصدقات.

ثم إن موارد الدولة كلها يجب أن تكون في خدمة هذا الحق ـ حق الكفاية التامة ـ إذا لم تكف الزكوات وغيرها. وذلك بحكم مسئولية الدولة عن رعاياها.

من ثمرات الإنسانية في الإسلام:

الإخاء والمساواة والحرية.

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة في الإسلام هي أساس هام لمبدأ الإخاء البشري الذي نادى به الإسلام. وهي أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام الذي دعا إليه الإسلام.

وهي أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذي قرره الإسلام. أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادىء الإنسانية الثلاثة، ووضع الصور العملية لتطبيقها، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطاً محكماً، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس، أو حبر على ورق سطرته بعض الأقلام.

واكتفي هنا بالحديث عن الإخاء والمساواة فهما مبدأن متلازمان.

مبدأ الإخاء الإنساني:

أما مبدأ الإخاء البشري العام، فقد قرره الإسلام بناء على أن البشر جميعاً أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، ضمتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة،

---

(١) انظر: كتابنا «مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام» ط ثانية.

والرحم الواصلة، ولهذا قال تعالى في أول سورة النساء: (يا أيها الناس اتقوا ربَّكُم الذي خلقكُم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زَوجَها وبث مِنهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءَلُون به والأرحام، إن الله كان عليكُم رقيباً)[١].

وما أحق كلمة «الأرحام» المذكورة في هذه الآية أن تفسر بحيث تشمل بعمومها الرحم الإنسانية العامة، لتتسق مع بداية الخطاب بـ : (يا أيُّها النّاسُ) ومع ذكر النفس الواحدة التي خلق الله منها جميع الناس رجالاً ونساء، وهي نفس آدم عليه السلام وعطفها على لفظ الجلالة «الله» في هذا المقام يدل على أن هٰذه الأرحام شأناً أي شأن.

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرر هذا الإخاء ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه.

فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول دبر كل صلاة:

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة»[٢].

بهذا الدعاء كان يناجي رسول الله ـ ﷺ ـ ربه بعد كل صلاة، وإنه ليدلنا أوضح دلالة على قيمة الإخاء البشري في رسالة الإسلام.

١ ـ فهو ـ أولا ـ يعلن الأخوة بين عباد الله كلهم لا بين العرب وحدهم، ولا بين المسلمين وحدهم، مشيراً إلى الجامع المشترك بينهم، الموحد بين

---

(١) النساء: ١
(٢) ذكره ابن القيم في زاد المعاد، وقال: ورواه أبو داود.

أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم وهو العبودية لله تعالى.

٢ - وهو - ﷺ - يقرر ذلك في صيغة دعاء يناجي به ربه، ويشهد بنفسه أمامه سبحانه على حقية هذا المبدأ وصدقه، أي: أن تقرير هذا المبدأ ليس مجرد كلام للاستهلاك المحلي أو للتضليل العالمي، وإنما هو حقيقة دينية لا ريب فيها.

٣ - أنه قرن هذا المبدأ بالمبدأين الأساسيين في عقيدة الإسلام، واللذين لا يدخل أحد هذا الدين إلا إذا آمن وشهد بهما، وهما: توحيد الله تعالى ورسالة عبده محمد، وهذا الاقتران دليل على أهمية هذا المبدأ (الإخاء) لدى رسول الإسلام.

كما أن لهذا الاقتران دلالة أخرى في تأكيد مبدأ الإخاء، فإن توحيد الله تعالى معناه إسقاطه كافة المتألهين في الأرض، المتعالين على غيرهم من عباد الله. وهذا أول ما يعمق أساس الأخوة بين الخلق. كما أن الشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله - ليس إلهاً، ولا نصف إله، ولا ثلث إله ولا ابن إله، ولا من سلالة الآلهة - يؤكد مضمون الاخوة العامة ويثبتها.

٤ - ثم هو لا يكتفي بإعلانه مرة في العمر أو مرة كل عام، أو حتى كل شهر أو كل أسبوع، بل يدل هذا الحديث أنه كان يكرر ذلك في كل يوم، وعقب كل صلاة، أي: خمس مرات في اليوم والليلة، وهذا دليل على مزيد العناية والاهتمام.

٥ - أنه جعل ذلك من الأذكار، والأدعية التي يتعبد بها، ويتقرب إلى الله بتكرارها، وربطه بالصلاة وختامها، وهذا يضفي عليه قدسية ومنزلة في قلوب المؤمنين لا تعدلها منزلة مبدأ يقرر بعيداً عن الله وعن هداه.

ويزداد هذا الإخاء توثقاً وتأكداً إذا أضيف إليه عنصر الإيمان، فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية، وتزيدها قوة على قوة، وإذا كان باب

الإيمان مفتوحاً لكل الناس بلا قيد، ولا شرط، ولا تحفظ على جنس، أو لون، أو اقليم أو طبقة، فإن الإخاء الديني المتفرع عن الإيمان والعقيدة المشتركة لا يضعف الإخاء العام، بل يشد عضده ويقويه، ويجعل له في واقع الناس كتلة حية ملموسة تؤمن به وتطبقه، وتدعو إليه، وتدافع عنه، فلا تُنافي إذن بين الإخاء البشري العام وبين الإخاء الديني، الذي نلمسه في مثل قوله تعالى: (إنما المؤمنون أخوة)[1]. وقوله ﷺ «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»[2].

ولقد طبق الإسلام هذا الإخاء الرفيع، وأقام على أساسه مجتمعاً ربانياً إنسانياً فريداً. شعاره: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وُجِدَ هذا المجتمع في المدينة بعد الهجرة، في ظل العقيدة، فانطفأت نار العداوة بين الأوس والخزرج، وذابت الحواجز بين القحطانيين والعدنانيين من العرب، كما رأينا في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وانحلت العقد بين العربي والعجمي، وامحت الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وبين المتحضرين والبداة، وأصبح مسجد الرسول يضم في رحابه الفيحاء، الحبشي كبلال، والفارسي كسلمان، والرومي كصهيب، إلى جوار إخوانهم العرب الأقحاح من الصحابة، كما يضم أغنياء كابن عوف وابن عفان، وفقراء كأبي ذر وأبي هريرة. ولم ينل من أخوتهم اختلاف الجنس أو اللون أو القبيلة أو الطبقة، أو أي اعتبار بشري مما يفرق الناس بعضهم من بعض.

لقد غسل الإسلام الأنفس من أرجاس الجاهلية، وطهرها من الغل والحسد والحقد، ونقاها من الأنانية والشح والبخل، بل ارتقى ببعض الأنفس إلى درجة الإيثار، كما رأينا في مثل موقف سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبدالرحمن بن عوف المهاجر، فقد عرض عليه شطر ماله ليتملكه، كما عرض عليه أحدى زوجتيه ليطلقها من أجله فيتزوجها، وهو طيب النفس قرير العين.

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) رواه البخاري وغيره.

وكان هذا هو الطابع العام لموقف الأنصار من إخوانهم المهاجرين، برغم ما ينشأ عادة من عقد بين أصحاب البلد والطارئين عليهم، وبرغم كيد اليهود، ودسائس المنافقين. ولا عجب أن سجل الله في كتابه هذا الموقف الخالد لهذه الجماعة المؤمنة بقوله: (والذين تبوَّأوا الدار والإيمان من قبلهم يُحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صُدورهم حاجة مما أُوتوا، ويُؤثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خَصاصة، ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئك هم المفلحون)[١].

مبدأ المساواة الإنسانية:

وأما مبدأ المساواة الإنسانية الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه: أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، وبين لون ولون، مسقطاً كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية. يقول القرآن: (يا أيها الناسُ إنّا خلَقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعوبًا وقَبائِل لتعارفُوا، إن أكرمكُم عند الله أتقاكُم، إنَّ الله عليم خبير)[٢].

وقد خطب النبي ﷺ الناس بمعنى هذه الآية في حجة الوداع في أوسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٣] وفي الحديث الآخر: «الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب»[٤].

الإنسان من أي وطن كان، وأي بلد كان، بلا فرق بين وطن ووطن

---

(١) الحشر: ٩.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) رواه البيهقي من حديث جابر وقال: في أسناده بعض من يجهل. كما في الترغيب.
(٤) رواه أبو داوود، والترمذي، وحسنه البيهقي.

وبين إقليم وإقليم فالبلاد كلها أرض الله، والناس كلهم عباد الله،وبهذا تسقط كل ألوان العصبية الاقليمية، والوطنية التي تعلي أهل بلد على غيره.

الإنسان من أي طبقة كان، دون تفريق بين طبقة وطبقة، وبين فئة وأخرى، فكل الناس سواسيه، وكل المؤمنين أخوة، ولا اعتبار للغنى أو للفقر في تقديم الناس أو تأخيرهم.. بل الواجب إنزالهم منازلهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، دون نظر إلى تلك الاعتبارات.

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقية التي قام عليها كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، والتي أقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاقدة السوداء التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات.

بل الإنسان من أي دين كان، فإن اختلاف الأديان لا يسقط عن المخالفين إنسانيتهم ولا يخلعهم منها، حتى إن النبي - ﷺ - قام لجنازة، فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال: أليست نفسا؟؟ (رواه البخاري)، لا مكان إذن لجنس متفوق ولا لشعب مختار، ولا لطبقة متسلطة، ولا لأسرة لها حق السيادة على غيرها.

قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم فيكون منهم الآري، والسامي والحامي، والعربي والعجمي.

وقد يختلفون في أنسابهم وأحسابهم فيكون منهم من ينتهي إلى أسرة عريقة في المجد، ومن ينتهي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس.

وقد يتفاوت الناس في ثرواتهم فيكون منهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم المتوسط الحال.

وقد يتفاوتون في أعمالهم ومناصبهم، فيكون منهم الحاكم والمحكوم ويكون منهم المهندس الكبير، والعامل الصغير، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها.

ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر

من قيمة الآخر، بسبب جنسه، أو لونه، أو حسبه، أو ثروته، أو عمله، أو طبقته، أو أي اعتبار آخر.

إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع. فالعربي إنسان، والعجمي إنسان، والأبيض إنسان، والأسود إنسان، والحاكم إنسان، والمحكوم إنسان، والغني إنسان، والفقير إنسان، ورب العمل إنسان، والعامل إنسان، والرجل إنسان، والمرأة إنسان، والحر إنسان، والعبد إنسان، ومادام الكل إنساناً فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد.

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أي إنسان اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس إنقاذاً للجميع، هذا ما قرره القرآن بوضوح: (أنه من قَتَلَ نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكانما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا)[١].

شعائر الإسلام تثبت معنى المواساة:

ولم يكتف الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظرياً، وتثبيته فكرياً، بل أكده عملياً بجملة أحكام وتعاليم نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس. من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام، وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم من الصلاة والزكاة والصيام والحج.

ففي مساجد الإسلام ـ حيث تقام صلاة الجمعة والجماعة ـ تأخذ المساواة صورتها العملية، وتزول كل الفوارق التي تميز بين الناس، فمن ذهب إلى المسجد أولاً أخذ مكانه في مقدمة الصفوف، وإن كان أقل الناس مالاً، وأضعفهم جاهاً. ومن تأخر حضوره تأخر مكانه مهما يكن مركزه، ولو نظرت إلى صف واحد من صفوف المصلين لراعك أن تجد فيه الغني بجانب الفقير والعالم بجانب الأمي، والشريف بجانب الوضيع، والحاكم بجوار الخادم. ولا فرق بين واحد وآخر، فكلهم سواسية أمام الله، في قيامهم وقعودهم

(١) المائدة: ٣٢.

وركوعهم وسجودهم. قبلتهم واحدة وكتابهم واحد، وربهم واحد، وحركاتهم واحدة، خلف إمام واحد.

وفي الأرض المقدسة ـ حيث تؤدى مناسك الحج والعمرة ـ تتحقق المساواة بصورة أشد ظهوراً، وتتجسد تجسداً تراه العين، وتلمسه اليد فقد يظل الناس في صف الصلاة متمايزين بما يلبسون من أنواع الثياب التي تختلف باختلاف الأقوام، أو البلدان، أو الطبقات، أما في الحج والعمرة فإن شعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين، أن يتجردوا من ملابسهم العادية، ويلبسوا ثياباً بيضاء ساذجة لم يدخلها التكلف والتصنع والتفصيل، أشبه ما تكون بأكفان الموتى يستوي فيها القادر والعاجز، والملك والسوقة، ثم ينطلق الجميع ملبين بهتاف واحد «لبيك اللهم لبيك». مبتهلين إلى رب واحد، طائفين ببيت الله الحرام، معظمين لشعائره لا فرق بين سيد ومسود، ولا بين آمر ومأمور.

المساواة أمام قانون الإسلام:

ومن المساواة العملية التي قررها الإسلام قولاً، وطبقها فعلاً: المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.

فالحلال حلال للجميع، والحرام حرام على الجميع[1]، والفرائض ملزمة للجميع، والعقوبات مفروضة على الجميع.

حاولت إحدى القبائل عند الدخول في الإسلام أن تُعفى من الصلاة حيناً من الزمن، فأبى عليها ذلك الرسول ﷺ وقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه».

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعوا أسامة بن زيد ـ حب رسول الله وابن حبه ـ في امرأة من قريش، ومن بني مخزوم، سرقت فاستحقت أن يقام عليها حد السرقة: قطع اليد فكلمه فيها أسامة، فغضب ﷺ، غضبته التاريخية المعروفة، وقال كلمته التي خلدها التاريخ: «إنما هلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا

(١) انظر: كتابنا «الحلال والحرام» ص ٣٥ـ٣٨ تحت عنوان: «الحرام حرام على الجميع».

سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها».

وفي عهود الخلفاء الراشدين رأينا كثيراً من الصور والأمثلة لتطبيق مبدأ المساواة بين جميع الناس، دون تفريق أو تمييز. وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة جبلة بن الأيهم ـ الأمير الغساني ـ مع الأعرابي الذي شكا إلى عمر أمير المؤمنين كيف لطمه جبلة بغير حق، فلم يسع عمر إلا أن يحضر جبلة،ويطلب إليه أن يمكن الأعرابي ليقتص منه، لطمة بلطمة، إلا أن يعفو عنه ويصفح، وعز على الأمير الغساني أن يفعل ذلك، وقال لعمر بصراحة: كيف يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة؟

فقال عمر: إن الإسلام قد سوى بينكما.

ولم يسع الأمير المسكين هذا المعنى الكبير، وخرج من المدينة هارباً مرتداً عن الإسلام الذي يفرض المساواة بين الملك والسوقة أمام شرع الله، وغلبت عليه شقوته فكان من الخاسرين.

ولم يبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة، لأن ارتداد رجل عن الاسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادىء الإسلام، كالمساواة. وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ.

ومما نشير إليه هنا كذلك: قصة عمر مع واليه على مصر: عمرو بن العاص، حين ضرب ابنه ابن القبطي متطاولاً عليه بأنه «ابن الأكرمين»، وكيف سافر القبطي من مصر إلى المدينة شاكياً الوالي، وطالباً النصفة والعدل فما كان من عمر إلا أن استدعى عمراً وولده، وأمر ابن القبطي أن يضرب ابن عمرو كما ضربه، ثم قال لعمرو كلمته الشهيرة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟؟!!

ومما يلفت الانتباه ويجدر بالتسجيل هنا، موقف القبطي وسفره من مصر إلى المدينة على بعد المسافة، ومشقة الطريق، وضعف الوسائل، وقد كان هذا

القبطي وأنوف أمثاله، يضربون، ويعذبون، ويضرب أبناؤهم، وأهلوهم في عهد الرومان، فما يرفعون بالشكاية رأساً ولا يحركون ساكناً.

ترى ما الذي طرأ عليهم؟ وما الذي غير من نظرتهم، وجعلهم يحسون بالظلم، ويشكون منه، ويركبون الصعب في سبيل الانتصاف لأنفسهم؟؟ إنه الإسلام بلا ريب..، الإسلام أشعرهم بكرامتهم الإنسانية، وأفهمهم أن لهم حقوقاً يجب أن ترعى، مثلما أن عليهم واجبات ينبغي أن تؤدى، وعرفوا أن هذه المبادىء الإنسانية الجديدة ليست حبراً على ورق، ولا مجرد لافتات للدعاية، وإنما هي دين يجب أن يحترم وينفذ.

فلا عجب أن قطع الرجل الفيافي، ليطالب بحقه ويسترد كرامته التي صانها له الإسلام.

وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سقطت درع له فالتقطها نصراني، فعرفها علي معه، فقال: هذه درعي. ولكن الرجل أنكر وادعى أنها ملكه، فلم يملك أمير المؤمنين إلا أن يقول للنصراني: بيني وبينك القضاء، وذهبا إلى القاضي شريح، وبعد سماع الخصمين طلب القاضي من الخليفة بينة على دعواه، أي: شهوداً، فلم يكن عنده، فما كان من القاضي إلا أن حكم للرجل النصراني بالدرع بحكم وضع يده عليه.

ودهش النصراني لهذا الحكم الذي لم يكن يتوقعه فقال: أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يذهب معي إلى قاضيه فيحكم لي عليه، وهو يعلم أنه لا يكذب أما أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين سقطت منك فأخذتها. قال: أما قد أسلمت فهي لك!

أي نظام في الدنيا يعامل رئيس الدولة كما يعامل واحد من الرعية، غير الإسلام؟

كيف كانت المساواة في أمم الحضارة عند ظهور الإسلام:

ولا يقدر قيمة المساواة في الإسلام حق قدرها، إلا من اطلع على التاريخ

الأمم عند ظهور الإسلام، وكيف كان التمييز والتفاوت بين الناس، يأخذ أشكالاً حادة تهون معها كرامة الإنسان. ونكتفي هنا ببلدين شهيرين في التاريخ هما فارس والهند.

ففي بلاد الفرس كانت الأكاسرة ملوك فارس، يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كالآلهة، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فكانوا يكفرون لهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم،ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم.

وكذلك كان اعتقادهم في البيوتات الروحية، والاشراف من قومهم، فيرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم، ونفوسهم، ويعطونهم سلطة لا حد لها، ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً.

يقول البروفسور ارتهر سين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين): كان المجتمع مؤسساً على اعتبار النسب والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها. وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً. وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع.

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية، يظهر ذلك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب.

أما في الهند فيذكر العلامة السيد أبو الحسن الندوي: أنه لم يعرف في

تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال. فقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفقت عليه البلاد، وأصبح قانوناً رسمياً، ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متميزة وهي:

١ ـ البراهمة: طبقة الكهنة ورجال الدين.
٢ ـ شتري: رجال الحرب.
٣ ـ ويش: رجال الزراعة والتجارة.
٤ ـ شودر: رجال الخدمة.

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون:

إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم « البراهمة » من فمه، و « شتري » من سواعده، و « ويش » من أفخاذه، و « الشودر » من أرجله..، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم. فعلى البراهمة تعليم « ويد » (الكتاب المقدس)، أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات. وعلى (الشتري) حراسة الناس، والتصدق وتقديم النذور، ودراسة « ويد »، والعزوف عن الشهوات..، وعلى « ويش » رعي السائمة، والقيام بخدمتها، وتلاوة « ويد »، والتجارة، والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث.

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات، وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق. وأن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق، وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم « شودر » ـ من غير جريرة ـ ما شاؤوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

وإن البرهمي الذي يحفظ رك ويد «الكتاب المقدس»، هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم أتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشترى فإن كانوا فوق الطبقتين «ويش» و «شودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول: «منو» إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره، يفوق الشتري الذي ناهز مئة كما يفوق الوالد ولده.

أما شودر (المنبوذون)، فكانوا في المجتمع الهندي ـ بنص هذا القانون المدني الديني ـ أحط من البهائم، وأذل من الكلاب! فيصرح القانون بأن: من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك.

وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً، فإن ذلك يؤذي البراهمة. وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب قطعت رجله. وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهميا فعلى الملك أن يكوي استه، وينفيه من البلاد!! وأما إذا مسه بيد، أو سبه فيقتله لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سُقِيَ زيتاً فائراً، وكفارة الكلب، والقطة، والضفدعة، والوزغ، والغراب، والبومة، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

وقد نزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت الموؤودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بنت زوجها المتوفى وخادم الأحماء، وقد تحرق نفسها على اثر وفاة زوجها تفاديا من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

فليوازن المنصف بين هذا كله، وبين ما جاء به الإسلام، ليعرف الفرق بين الظلمات والنور.

والمهم أن نعلم أن الإسلام نادى بالمساواة نظرياً، وطبقها عملياً، وأقام عليها مجتمعاً حطم كل الفوارق التي تقيم الحواجز بين الناس، من عنصرية ولونية، وإقليمية، وطبقية، كما نرى ذلك واضحاً في صفحات الحضارة الإسلامية، وكما نرى ذلك إلى اليوم في مجتمعات المسلمين، على ما فيها من انحراف عن حقيقة الإسلام.

لقد محا الإسلام من نفوس أبنائه عقد التمييز بين الأجناس والألوان والطبقات، التي سادت مجتمعات كثيرة، ولا زالت تسود مجتمعات أخرى إلى اليوم. إن ملايين المسلمين على امتداد القرون يقولون عن بلال العبد الأسود الذي اشتراه أبو بكر وأعتقه: سيدنا بلال رضي الله عنه، معتزين به ومفاخرين. حتى إن عمر ثالث رجل في الإسلام يقول عن أبي بكر: هو سيدنا وأعتق سيدنا، أي: بلالا.

أما الحضارة الغربية فقد أعلنت المساواة مبدءا وفكرة، ولكنها عجزت عن تحقيقها في مجتمعاتها، ولا زالت مشكلة «التمييز العنصري» حية قائمة، نقرأ عنها ونسمع، إن لم نر ونشاهد - في جنوب أفريقيا وروديسيا وغيرهما من البلاد الأفريقية، وكذلك في الولايات المتحدة الامريكية، التي فرقت بين الأبيض والأسود حتى في مقام التعبد لله، فللبيض كنائسهم المستقلة، كما أن للسود كنائسهم الخاصة.

وقد حدث أن أخطأ رجل أسود فدخل كنيسة من كنائس البيض في يوم، وكان القسيس يعظ ويتحدث، فلمح هذا الوجه الغريب بين الحضور، فلم يملك إلا أن أخرج ورقة مطوية أرسلها إليه، فلما فتحها الرجل الأسود، وجد فيها: عنوان كنيسة السود في شارع كذا..!!

وفي روسيا أحب شاب أفريقي كان يدرس في موسكو فتاة شقراء وأحبته، وغلا مرجل الغضب في صدور بعض الشباب السوفييتي، لا من أجل الحب، فهذا أمر مباح هناك، بل لانتهاك حرمة اللون، وفي اليوم التالي وجدت جثة الشاب الأسود ملقاة في الطريق، واحتج الطلاب الأفارقة بصورة

جماعية، فقابلهم الطلاب الروس بمثلها وهم يقولون في بذاءة ووقاحة: عودوا إلى غاباتكم أيها القردة!!

إن روح الحضارة الغربية ـ ليبرالية كانت أو شيوعية ـ روح تمييز واستعلاء، وليست روح إخاء ولا مساواة.



الفصل الثالث

الشمول

« الشمول » من الخصائص التي تميز بها الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب، بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد .

إنه شمول يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها، ويستوعب كيان الإنسان كله .

لقد عبر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول في رسالة الإسلام فقال وأجاد :

« إنها الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن » .
« وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم » .
« وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة » .

رسالة الزمن كله:

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص، ينتهي أثرها بانتهائه، كما كان الشأن في رسالات الأنبياء السابقين على محمد ـ ﷺ ـ فقد كان كل نبي يبعث لمرحلة زمنية محدودة، حتى إذا ما انقضت بعث الله نبياً آخر.

أما محمد ـ ﷺ ـ فهو خاتم النبيين، ورسالته هي رسالة الخلود التي قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، ويطوى بساط هذا العالم فهي تتضمن هداية الله الأخيرة للبشرية. فليس بعد الإسلام شريعة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا

بعد محمد نبي. ولم يسبق لنبي قبل محمد - ﷺ - أن أعلن أن رسالته هي الخاتمة وأن لا نبي بعده. بل بشرت التوراة بمن يأتي بعد موسى، وبشر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى وهو «الفارقليط» الذي سيبين كل الحق. ولا يتكلم من عند نفسه.

إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك، وهي أيضاً رسالة الماضي البعيد.

إنها - في جوهرها، وأصولها الاعتقادية، والأخلاقية - رسالة كل نبي أرسل، وكل كتاب أنزل. فالأنبياء جميعاً جاؤوا بالإسلام، ونادوا بالتوحيد، واجتناب الطاغوت. وهذا ما يقرره القرآن في وضوح وتأكيد.

(وما أرسلنَا مِن قَبلِكَ من رَسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[1].

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبُدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[2].

كل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام.

نوح قال: (وأُمِرتُ أن أكونَ من المسلمين)[3].

وإبراهيم وإسماعيل قالا: (ربَّنا واجعلنا مُسلِمَيْن لك ومن ذُرِّيَّتِنَا أمة مُسلِمة لك)[4].

ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب فقالا: (يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لكُم الدين فلا تَمُوتنَّ إلا وأنتُم مسلمون)[5].

ويوسف دعا ربه فقال: (... توفني مسلماً وألحقني بالصَّالحين).[6]

وموسى قال: (يا قوم إن كُنتم آمنتم بالله فعليه تَوكَّلوا إن كُنتم مُسلمين)[7].

---

(١) الأنبياء: ٢٥.
(٢) النحل: ٣٦.
(٣) يونس: ٧٢.
(٤) البقرة: ١٢٨.
(٥) البقرة: ١٣٢.
(٦) يوسف: ١٠١
(٧) يونس: ٨٤.

وسحرة فرعون حين آمنوا بموسى، قالوا: ﴿رَبَّنا أفرغ علينا صَبْراً وتوفَّنا مُسلمين﴾[1]

وسليمان بعث لبلقيس وقومها: ﴿ألّا تعلوا عَلَيَّ وأتوني مُسلمين﴾[2].

والحواريون قالوا لعيسى: ﴿آمنا بالله واشْهَد بأنَّا مُسلمون﴾[3].

إنها إذن ـ في جوهرها ـ رسالة كل نبي جاء من عند الله منذ عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. إنها رسالة الزمن كل الزمن.

رسالة العالم كله:

وإذ كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر ولا جيل، فهي كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة، ولا بشعب ولا بطبقة.

إنها الرسالة الشاملة، التي تخاطب كل الأمم، وكل الأجناس، وكل الشعوب، وكل الطبقات.

إنها ليست رسالة لشعب خاص، يزعم أنه وحده شعب الله المختار! وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له.

وليست رسالة لإقليم معين، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض، وتجبى إليه ثمراتها وأرزاقها.

وليست رسالة لطبقة معينة، مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو اتباع أهوائها، أو السير في ركابها، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء، من السادة أم من العبيد، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك. إنها رسالتهم جميعاً. وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها. وليس فهمها، ولا تفسيرها، ولا الدعوة إليها حكراً على طبقة خاصة كما قد يتوهم كثير من الناس. إنها هداية رب الناس لكل الناس، ورحمة الله لكل عباد الله. وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكي. تقرأ في ذلك:

(١) الأعراف: ١٢٦.
(٢) النمل: ٣١.
(٣) آل عمران: ٥٢

﴿وما أرسلْنَاكَ إلا رحمَةً للعالمين﴾[1]، ﴿قل يا أيها الناسُ إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[2].

﴿تبارك الذي نَزَّل الفُرقَانَ على عبدِهِ لِيَكُون للعالمين نذيراً﴾[3]، ﴿إن هو إلا ذِكْرٌ للعالمين﴾[4].

وقد زعم بعض المستشرقين أن محمدا - ﷺ - لم يكن يعلن في أول أمره أنه مبعوث إلى الناس كافة، وإنما فعل ذلك بعد ما أتيح له الانتصار على قومه من العرب. ولكن الآيات التي ذكرناها ترد عليهم. فكلها - لسوء حظهم - من سور القرآن المكية. ومثلها مما نزل من أوائل القرآن كثير.

رسالة الإنسان كله:

وهي كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل.

إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه، ولا لروحه دون جسمه ولا لأفكاره دون عواطفه، ولا عكس ذلك.

إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه، وضميره، وإرادته ووجدانه، كما نبهنا على ذلك في «خصيصة الإنسانية».

إن الإسلام لم يشطر الإنسان شطرين، كما فعلت أديان أخرى: شطر روحي يوجهه الدين، ويتجه به للمعبد، وهذا الشطر أو النصف من اختصاص رجال الدين (الكهنوت)، يتحكم فيه الكاهن أو القسيس، ويقوم الإنسان من خلاله. وشطر آخر مادي لا سلطان للدين ولا لرجاله عليه، ولا مكان لله فيه. إنه شطر للحياة، للدنيا، للسياسة، للمجتمع للدولة، وهذا في الواقع هو الجزء الأكبر من حياة الإنسان.

ترى هل يتفق هذا مع فطرة الإنسان وطبيعته كما خلقه الله؟

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) الفرقان: ١.
(٤) سورة ص: ٨٧.

كلا، فالإنسان ـ كما خلقه الله ـ ليس مجزءاً ولا مشطوراً. إنه «**كل**» متكامل. و«كيان» واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا مادة عن روح، ولا عقل عن عاطفة، ولا عاطفة عن عقل، إنه «وحدة» لا تتجزأ، من الجسم والروح والعقل والضمير.

فلهذا يجب أن تكون غايته واحدة، ووجهته واحدة، وطريقه واحداً وهذا ما صنعه الإسلام. فقد جعل الغاية الله، والوجهة الآخرة.

وبهذا لا يتمزق الإنسان بين توجيهين مختلفين، أو سلطتين متناقضتين، هذه تشرق به وتلك تغرب. كالعبد الذي له أكثر من سيد، كل واحد يأمره بغير ما يأمر به الآخر، فهمه شعاع، وقلبه أوزاع كما ذكر القرآن الكريم في قوله: (ضربَ اللهُ مثلاً رَجُلاً فيه شركاء مُتَشَاكِسُون ورَجلاً سَلَماً لرجل، هل يستويان مثلاً)[١].

رسالة الإنسان في أطوار حياته كلها:

إن الإسلام هو رسالة الإنسان كله، وهو رسالته كذلك في كل مراحل حياته ووجوده، فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الإسلامي.

إنها هداية الله، تصحب الإنسان أنى اتجه وأنى سار في أطوار حياته. إنها تصحبه طفلاً، ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً. وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يحبه الله ويرضاه.

فلا عجب أن تجد في الإسلام أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل إماطة الأذى عنه، والتأذين في أذنه، واختيار اسم حسن له، وذبح عقيقة عنه شكراً لله، وغير ذلك مما ضمنه إمام كابن القيم كتاباً مستقلاً له سماه «تحفة المودود في أحكام المولود».

ونجد أحكاماً تتعلق بإرضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضعة أو أجرتها، وخصوصاً عند الطلاق وانفصال أم

(١) الزمر: ٢٩.

الرضيع عن أبيه. فهنا ينزل القرآن الكريم موضحاً مفصلاً كل ذلك، فيقول: (والوالدَاتُ يُرضِعْنَ أَولاَدَهُنَّ حَوْلَيْن كـاملين، لمن أراد أن يُتِمَّ الرَضَـاعَـة، وعلى المولود لَه رِزْقُهنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعْرُوفِ، لا تُكَلَّفُ نَفْس إلا وُسْعَهَا، لا تُضَارَّ والِدَةٌ بوَلَدِها، ولا مَوْلُودٌ له بوَلَدِهِ، وعلى الوَارِثِ مِثلُ ذلك، فإن أرادا فصالاً عن تَراضٍ مِنْهُما وتشاوُرٍ فلا جُناحَ عَليهِمَا، وإن أَردْتُم أن تَسترضِعُوا أوْلادَكم فلا جُنَاحَ عَلَيكُم إذا سلّمتم ماآتيتُم بالمعْروفِ، واتقوا اللّهَ واعلموا أن الله بما تعملون بَصير)[1].

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً. فلا توجد مرحلة من حياته إلا وللإسلام فيها توجيه وتشريع.

وأكثر من ذلك أنها تعنى بالإنسان قبل أن يولد، وبالإنسان بعد أن يموت.

ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكاماً تتعلق بالجنين، من حيث وجوب حمايته، والحرص على حياته، واستمرار غذائه بمقدار كاف. ولهذا حرم الشرع الإجهاض، وقدر دية محددة تجب على من تسبب في إسقاط الجنين. وشرع للحامل أن تفطر في رمضان إذا خافت على جنينها أن يقل غذاؤه، وتتأثر صحته. إلى غير ذلك من الأحكام التي تتعلق بالحمل وميراثه، وبالحامل ونفقتها مدة الحمل وإن كانت مطلقة: (وإن كُنَّ أولاتِ حَمْل فأنفِقُوا عَليْهِنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ)[2].

كما وجدنا في الإسلام أحكاماً أخرى تتعلق بالإنسان بعد موته: من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه بكيفية خاصة، ومن شرعية التعزية فيه، والدعاء له، وتنفيذ وصاياه، وقضاء ديونه التي عليه للعباد أو لله تعالى. وغير ذلك مما يشمله كتاب «الجنائز»، وغيره في الفقه الإسلامي.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.
(٢) الطلاق: ٦.

رسالة الإنسان في كل مجالات حياته:

ومن معاني الشمول في الإسلام أيضاً: أنه رسالة للإنسان في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين النشاط البشري، فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف: وقد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، وقد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة، كل في موضعه.

المهم هنا أنه لا يدع الإنسان وحده ـ بدون هداية الله ـ، في أي طريق يسلكه، وفي أي نشاط يقوم به: مادياً كان أو روحياً، فردياً أو اجتماعياً، فكرياً أو عملياً، دينياً أو سياسياً، اقتصادياً أو أخلاقياً.

إن الإسلام كما قال المرحوم العقاد ـ هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه، أو ناظراً إلى آخرته ومسالماً أو محارباً، ومعطياً حق نفسه، أو معطياً حق حاكمه وحكومته. فلا يكون مسلماً، وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، أو لأنه يصحب إسلامه في حالة، ويدعه في حالة أخرى.. ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه، في جميع حالاته، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع.

«إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية، وظواهرها الاجتماعية، هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية، وهو المزية التي توحي إلى الإنسان أنه «كل» شامل، فيستريح من (فصام) العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق»[1].

يريد الكاتب رحمه الله، أن بعض الديانات كالمسيحية، ارتضت أن تقسم

---

(١) الإسلام في القرن العشرين للاستاذ عباس العقاد: فصل «قوة صامدة».

الحياة نصفين: نصف للدين تقوده الكنيسة.. ونصف للدنيا تقوده الدولة. كما ذكرنا من قبل.

وسند رجال المسيحية في ذلك ما حكاه إنجيلهم عن المسيح عليه السلام أنه قال لمن سأله عن قيصر قولته المشهورة: «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»!

ولكن الإسلام ينكر هذه القسمة للحياة ويرفضها لأمرين:

الأول: أن الإسلام يجعل الكون كله والخلق كلهم ملكاً لله، وليس لقيصر فيه ذرة واحدة. فقيصر إذن وما لقيصر لله الواحد القهار. وفي هذا يقول القرآن: (ألا إن لله مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض)[1] (لَهُ ما في السماوات وما في الأرضِ وما بينهما وما تحت الثَّرى)[2]، (وله أسلم من في السماوات والأرض طَوعاً وكرهاً)[3].

فلا يجوز في عقيدة الإسلام أن يخضع المسلم ـ مختاراً ـ لأمر قيصر، وهو قادر على إخضاع قيصر لأمر الله، ولا يجوز أن يعطي ظاهره لقيصر. وباطنه لله: (بل لله الأمرُ جميعاً)[4].

والثاني: أن الحياة بكل جوانبها كتلة واحدة، لا تقبل الانقسام والتفريق، إلا في الورق أو الرؤوس. أما في الواقع فالحياة كل لا يتجزأ، ولا ينفصل فيه دين عن دولة، ولا اقتصاد عن أخلاق، ولا فرد عن أسرة، ولا أسرة عن مجتمع.

ولهذا تحاول كل المذاهب الكبرى السيطرة على كل نواحي الحياة، وتوجيهها حسب فكرتها وعقيدتها. حتى الكنيسة نفسها في العصور الوسطى بأوربا، لم تطبق عملياً، ما جاء في الإنجيل نظرياً. وحاولت هي أن تأخذ مكان قيصر أو ـ على الأقل ـ تسيطر عليه، وتدير السياسة من خلاله.

---

(١) يونس: ٦٦.
(٢) طه: ٦.
(٣) آل عمران: ٨٣.
(٤) الرعد: ٣١.

شمول التعاليم الإسلامية:

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله في كل أطواره، ورسالة الحياة كلها، بكل جوانبها ومجالاتها، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شؤون الحياة والإنسان.

نجد هذا الشمول يتجلى في العقيدة والتصور، ويتجلى في العبادة والتقرب، ويتجلى في الأخلاق والفضائل، ويتجلى في التشريع والتنظيم.

شمول العقيدة الإسلامية:

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أي جانب نظرت إليها.

(أ) فهي توصف بالشمول، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود. القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله، وتلح عليه بالسؤال، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يُخْرِجُ الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً: قضية الألوهية، قضية الكـون، قضية الإنسان، قضية النبوة، قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة، دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح، ووضوح شامل.

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك، لأنها لا تجزيء الإنسان بين إلهين اثنين: إله الخير والنور، وإله الشر والظلمة كما كان في المجوسية أو بين الله والشيطان الذي سمي في الأناجيل باسم «رئيس هذا العالم»، واسم «إله هذا الدهر»، وانقسم العالم بينه وبين الله، فله مملكة الدنيا، و لله ملكوت السماوات، فيوشك أن يكون عمله في نظر المسيحية مضارعاً لعمل «اهريمان» إله الظلام في المجوسية»![1].

(١) انظر: «حقائق الإسلام للعقاد» ص ١٠٣ ط أولى.

إن الشيطان في نظر الإسلام، يمثل قوة الشر لا مراء، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الإنسان، إلا سلطان الوسوسة، والإغراء، والدعوة إلى الشر، وتزيينه في الأنفس: فهذا مبلغ كيده وجهده، وهو كيد ضعيف أمام يقين المؤمنين المعتصمين بالله المتوكلين عليه.

يقول الله تعالى، على لسان الشيطان نفسه في مخاطبة من أغواهم: (وما كان لي عليكُم من سُلطَانٍ إلا أن دعوتُكم فاستَجبْتُم لي)[1].

ويقول سبحانه في مخاطبة الشيطان: (إن عبادي ليس لكَ عَلَيْهِم سُلطان)[2]. ويقول: (إنه ليس لَهُ سُلطان على الذين آمنوا وعلى رَبِّهِم يتوكلون. إنَّما سُلطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّونَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُون)[3]، ويقول: (إنّ كَيْدَ الشَّيطان كان ضَعِيفاً)[4].

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى، وهي: أنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية، وكما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضاً باتاً، بحيث لا تؤخذ إلا بالتسليم المطلق، على حد قولهم: اعتقد وأنت أعمى.

وهي كذلك لا تعتمد على العقل وحده، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التي تتخذ العقل وسيلتها الفذة في معرفة الله وحل ألغاز الوجود.

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً، أو العقل والقلب جميعاً، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية، والوعي الإنساني.

إن الإيمان الإسلامي الصحيح هو الذي ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب، وبذلك يؤدي دوره ويؤتي أكله في الحياة.

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة،

---

(١) إبراهيم: ٢٢.
(٢) الإسراء: ٦٥.
(٣) النحل: ٩٩-١٠٠.
(٤) النساء: ٧٦.

لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار، أو حتى شك في أي جزء منها. فمن آمن بـ ٩٩٪ من مضمون هذه العقيدة، وكفر بـ ١٪ لم يعد بذلك مسلماً. فالإسلام يقتضي أن يسلم الإنسان قياده كله لله، ويؤمن بكل ما جاء من عنده.

لا يجوز في نظر العقيدة الإسلامية، أن يقول مسلم: أنا مؤمن بالقرآن الكريم في شأن الشعائر والعبادات ـ مثلاً ـ، ولكن لا أؤمن بما جاء به في شأن الأخلاق والآداب، أو يقول: آخذ من القرآن العبادة والأخلاق، ولكن لا أستمد النظام والتشريع. أو آخذ منه ذلك كله، ولكن لا أصدقه في كل ما يرويه من أحداث التاريخ. أو أصدقه وأسلم له في كل ما ذكرنا ولكن لا أعتقد بحقيقة ما جاء في وصف الآخرة، وحقيقة الجنة والنار.

ومن ثم أنكر القرآن أشد الإنكار على بني إسرائيل إيمانهم ببعض الرسل دون بعض، وببعض الكتاب الإلهي دون بعض. يقول تعالى: (إنّ الذين يَكْفُرون بالله ورُسُلِهِ ويُريدون أنْ يُفَرقوا بين الله ورُسُلِه ويقولون نُؤمن ببعْضٍ ونَكفُر ببعضٍ ويُريدُون أنْ يَتّخِذوا بين ذلك سبيلاً. أولئكَ هُم الكافِرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مُّهيناً)[1] ويقول سبحانه: (أفَتؤْمِنُون ببعض الكتابِ وتكفُرُون ببعض، فما جَزَاءُ من يفعَلُ ذلك مِنكُم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا، ويَومَ القيامة يُردُّون إلى أشدِّ العذاب، وما اللهُ بغافِلٍ عما تَعمَلُون)[2].

شمول العبادة في الإسلام:

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامي في عبادته كما تمثلت في عقيدته.

فالعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشري كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها. بل يعبد الله بهذه كلها: بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً

(١) النساء: ١٥٠، ١٥١
(٢) البقرة: ٨٥.

صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً، وبعقله متفكراً متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه.

إن عبادة كالصلاة تتجلى فيها عبادة اللسان بالتلاوة، والتكبير، والتسبيح، والدعاء، وعبادة الجسم بالقيام والقعود، والركوع والسجود، وعبادة العقل بالتفكر والتأمل في معاني القرآن وأسرار الصلاة، وعبادة القلب بالخشوع والحب لله، والشعور بمراقبة الله.

ومعنى آخر للشمول في العبادة، وهي أنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

فالجهاد في سبيل الله، دفاعاً عن الحق، وذوداً عن الحرمات، ومنعاً للفتنة، وإعلاء لكلمة الله.. عبادة لا تعدلها عبادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - بشعب فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس، فأقمت في هذا الشعب! (يعني لأتعبد) ولن أفعل حتى استأذن رسول الله - ﷺ. فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى، أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله. من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»[١].

وعنه أيضاً، قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه. ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم، لا يفتر من صلاة ولا صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[٢].

وكل عمل نافع يقوم به المسلم، لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده،

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره المنذري في الترغيب.
(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وخصوصاً الضعفاء وذوي العجز والفاقـة منهم . . هو كذلك عبادة أي عبادة .

من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة التي تحث على الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس . حتى جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وحمل الرجل الضعيف على دابته صدقة ، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل معروف صدقة .

ويدخل في دائرة العبادة : سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته ، ليغنيهم بالحلال ، ويعفهم عن السؤال ، فالرسول ـ ﷺ ـ قد اعتبر من فعل ذلك « في سبيل الله » ، أي : في جهاد كجهاد الميدان وقتال أعداء الله .

وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر ، ولما عجب الصحابة من ذلك ، قال لهم النبي : أليس لو وضعها في حرام كان عليه وزر؟ قالوا : بلى . قال : فكذلك لو وضعها في حلال كان له أجر! أتحتسبون بالشر ، ولا تحتسبون بالخير؟!»[1] .

شمول الأخلاق في الإسلام:

ويبرز الشمول كذلك في ميدان الأخلاق والفضائل . فالأخلاق الإسلامية ليست هي التي تعرف عند بعض الناس بـ « الأخلاق الدينية » التي تتمثل في أداء الشعائر التعبدية ، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، ونحو ذلك لا غير ، إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها ، وكافة مجالاتها .

إن الأخلاق في الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية : روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو عاطفية ، فردية أو اجتماعية ، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع . فما فرقه الناس في مجال الأخلاق ، باسم الدين وباسم الفلسفة ، وباسم العرف أو المجتمع ، قد ضمه القانون الأخلاقي في الإسلام في تناسق وتكامل وزاد عليه .

---

(١) انظر في شمول العبادة كتابنا « العبادة في الإسلام » فصل « مجالات العبادة في الإسلام » .

١ ـ إن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

(أ) جسماً له ضروراته وحاجاته. بمثل قوله تعالى: (وكُلُوا واشرَبُوا ولا تُسْرِفُوا)[١] وقول الرسول ـ ﷺ ـ «إن لبدنك عليك حقاً»[٢].

(ب) وعقلاً له مواهبه وأفاقه. يقول القرآن: (قُل انظُرُوا ماذا في السموات والأرض)[٣]، (قُل إنَّما أعِظُكُم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفُرادى ثم تَتَفَكّرُوا)[٤]..

(جـ) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: (قد أفْلَح مَنْ زَكَّاها. وقد خاب مَنْ دَسَّاها)[٥].

٢ ـ ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة:

(أ) كالعلاقة بين الزوجين: (وعَاشِرُوهنَّ بالمعروف، فإن كَرِهتُموهنَّ فعسى أن تكرَهُوا شيئاً، ويجعَلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً)[٦].

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد: (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً)[٧]. «ولا تَقْتُلوا أولاَدَكُم خَشْيَةَ إملاقٍ، نحنُ نَرزُقُهُم وإياكُم، إنَّ قَتْلَهُم كان خِطئاً كبيراً»[٨].

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: (إنّ الله يأمُر بالعدل والإحسان وايتاء ذي القُرْبى)[٩]. (وآتِ ذا القُرْبى حقّهُ والمسْكِينَ وابْنَ السَّبيل)[١٠].

---

(١) الأعراف: ٣١.
(٢) رواه الشيخان.
(٢) يونس: ١٠١.
(٣) سبأ: ٤٦.
(٥) الشمس: ٩، ١٠
(٦) النساء: ١٩.
(٧) الأحقاف: ١٥.
(٨) الاسراء: ٣١.
(٩) النحل: ٩٠.
(١٠) الإسراء: ٢٦.

٣ ـ ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

(أ) في آدابه ومجاملاته، مثل: (لا تَدخُلُوا بُيوتاً غيْرَ بُيوتِكُم حتى تستأنِسُوا وتُسلِّمُوا على أهلها، ذلِكُم خيرٌ لكُم لَعلَّكُم تَذكَّرون)[١].

(ب) وفي اقتصاده ومعاملاته: (ويلٌ للمُطَفِّفين. الذين إذا اكتَالُوا على النَّاس يَستَوْفون. وإذا كالُوهم أو وزنُوهم يُخسِرُون)[٢] (يا أيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُم بدين إلى أجلٍ مُسمَّى فاكتُبُوه، وليَكْتُب بَينَكُم كاتِبٌ بالعدل، ولا يأب كاتِبٌ أن يكتُبَ كما علَّمَهُ الله)[٣]

(جـ) وفي سياسته وحكمه: (إن الله يأمُركُم أن تُؤدُّوا الأمانَاتِ إلى أهلِهَا وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[٤].

٤ ـ ومن أخلاق الإسلام، ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير، كما في الحديث: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة» وفي الحديث الآخر: «في كل كبد رطبة أجر»[٥].

٥ ـ ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير.

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكر والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته كما قال تعالى: (إنَّ في خَلقِ السموات والأرض واختلاف الليْل والنَّهار لآيات لأولي الألباب. الذين يَذكُرون الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم ويتفَكَّرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطِلاً سُبحانَك»[٦].

---

(١) النور: ٢٧.
(٢) المطففين: ١ـ٣.
(٣) البقرة: ٢٨٢.
(٤) النساء: ٥٨.
(٥) رواه البخاري.
(٦) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

ومن حيث إنه مجال للانتفاع والاستمتاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الإنسان، وما أسبغ فيه من نعم، تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها، كما قال تعالى: (ألم تروا أنَّ الله سخَّر لكُم ما في السماوات وما في الأرضِ وأسبَغَ عليكُم نِعمَهُ ظاهِرة وباطِنة)[1].

(يا أيها الذين آمنوا كُلوا من طَيّباتِ ما رَزقنَاكُم واشْكُروا الله)[2].

٦ ـ وقبل ذلك كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد: (الحَمْدُ لله ربِّ العَالمين. الرحمن الرَّحيم. مالِكِ يوم الدّين. إياكَ نعبُد وإياك نَستعِين. اهدِنا الصرَاطَ المستَقِيم)[3] فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله، وأن ترجى رحمته الواسعة، وأن يُخشىَ عقابه العادل يوم الجزاء. وهو وحده الذي يستحق أن يُعبَد، ويُستَعان، وأن تُطْلَب منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وبهذا، يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظرنا إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها.

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم، وكل الطبقات، وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم، ودرجات اهتمامهم. ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية ـ مثالية وواقعية ـ في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً، كما لم يكن كله حقاً. إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية، وأغفلت أخرى، وهو أمر لازم لتفكير

(١) لقمان: ٢٠.
(٢) البقرة: ١٧٢.
(٣) الفاتحة: ٢-٦

البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة، وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم.

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام، جامعة محيطة مستوعبة، لأنها ليست نظرية بشر، بل وحي من أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً.

لهذا أودع الله في هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة، وما يقنع كل ذي وجه، ويلائم كل تطور. فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد في أخلاقية الإسلام ما يرضي مثاليته. ومن كان يؤمن بمقياس السعادة، وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة ـ فردية أو اجتماعية، وجد في الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال، وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف مع المجتمع، وجد فيه ما يلائم اجتماعيته، حتى الذي يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي، ومتاع حسي: (وفيها ما تَشتَهِيه الأنفُسُ وتَلذُّ الأعينُ)[1].

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها[2].

شمول التشريع في الإسلام:

والتشريع في الإسلام تشريع شامل كذلك.

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات.

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في تعبده وصلته بربه، وهذا ما

---

(١) الزخرف: ٧١.
(٢) انظر: كلمات في مبادىء علم الأخلاق لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز.

يفصله قسم «العبادات» في الفقه الإسلامي، وهو ما لا يوجد في التشريعات الوضعية.

ويشمل التشريع للفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى «الحلال والحرام» أو الحظر والإباحة.

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات، ورضاع، وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها. وهذا يشمل ما يسمى في عصرنا «الأحوال الشخصية».

ويشمل التشريع للمجتمع في علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض، من البيوع والإجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والحوالة، والكفالة، والضمان وغيرها. مما تتضمنه في عصرنا القوانين المدنية والتجارية.

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود والقصاص، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير. وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ «التشريع الجنائي»، أو «الجزائي» وقوانين العقوبات.

ويشمل التشريع الإسلامي ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام، وتنظيم الصلة بين الطرفين، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج، والأحكام السلطانية في الفقه الإسلامي، وتضمنه في عصرنا «التشريع الدستوري» أو «الإداري» و «المالي».

ويشمل التشريع الإسلامي ما ينظم العلاقات الدولية في السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم، مما عنيت به كتب «السير» أو «الجهاد» في فقهنا الإسلامي، وما ينظمه في عصرنا «القانون الدولي».

ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامي آمراً أو ناهياً، أو مُخبراً.

وحسبنا أن أطول آية نزلت في كتاب الله تعالى، نزلت في تنظيم شأن من

الشؤون المدنية، وهو المداينة، وكتابة الدين.

ويبدو شمول التشريع الإسلامي في أمر آخر، أو بعد آخر، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة، وما يؤثر فيها، وما يتأثر بها، والنظر إليهانظرة محيطة مستوعبة، مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية والأخلاقية، بحيث يكون التشريع في خدمتها وحمايتها، ولا يكون معولاً لهدمها.

ومن عرف هذا جيداً، استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامي وروعته من قضايا كثيرة، كالطلاق وتعدد الزوجات، والميراث، والربا، والحدود والقصاص، وغيرها. مما أثبتت الدراسات المقارنة، وأثبت الاستقراء التاريخي والواقعي فضل الإسلام فيه، وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق.

إن عيب البشر الذي هو من لوازم ذواتهم المحدودة أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى. والحقيقة أنهم لا ذنب لهم في هذا القصور ولا حيلة، لأن النظرة المحيطة الشاملة، التي تستوعب الشيء من جميع جوانبه، وتعرف كل احتياجاته، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته، لا يقدر عليها إلى رب البشر وخالق الكون: (ألا يَعْلَمُ من خَلَق وهو اللطِيفُ الخَبِير)[1].

شمول الالتزام بالإسلام كله:

هذا الشمول الذي تميز به الإسلام ـ بحيث استوعب الحياة كلها، والإنسان كله، في كل أطوار حياته، وفي كل مجالات حياته ـ يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين: أعني الالتزام بهذا الإسلام كله في شموله وعمومه وسعته. فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه، وطرح جانب آخر، أو جوانب أخرى منها، قصداً أو إهمالاً، لأنها «كل» لا يتجزأ.

---

(١) الملك: ١٤.

وقد عاب القرآن الكريم على بني إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعاً لأهوائهم، يأخذون منها ما راق لهم، ويدعون ما لم يرق لهم. فقرعهم الله أشد التقريع على ذلك فقال: (أفتؤْمِنُون ببعْضِ الكتَابِ وتَكْفُرون ببعض، فما جزاءُ من يفعَلُ ذلك مِنكُم إلا خِزْيٌ في الحَيَاة الدُّنيا، ويوم القيامة يُردُّون إلى أشدِّ العَذَابِ، وما الله بغَافِلٍ عَمَّا تَعمَلُون. أولئك الذين اشْتَرَوا الحَيَاة الدُّنيا بالآخِرة، فلا يُخَفَّفُ عنهُمُ العذابُ ولا هُم يُنصَرون»[1].

فلا يجوز في نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق، كالذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. فإن عمل الصالحات مكمل للإيمان، وسياج له، وثمرة لازمة للإيمان الصادق، كما بين ذلك القرآن والسنة: (إنما المؤْمِنُون الذين إذا ذُكِرَ الله وجلَت قُلُوبهم وإذا تُلِيَت عليهم آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً وعلى ربِّهم يَتَوكلون. الذين يُقِيمُون الصلاةَ ومما رزَقناهم يُنْفِقُون. أولِئك هُم المؤمِنون حَقاً»[2].

ولا يجوز في نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر، وإهمال جانب الأخلاق والفضائل، لأن الفضائل الأخلاقية، من شعب الإيمان الحق، وثمرة للعبادة الصحيحة «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[3]: (وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر)[4] وفي الصحيح: «آية المنافق ثلاث، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

ولا يجوز في نظر الإسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقي، وإغفال الجانب التعبدي، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا الله ويعبدوه: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[5]،وإنما يعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر

(١) البقرة: ٨٥.
(٢) الأنفال: ٢ ـ ٤.
(٣) رواه البخاري.
(٤) العنكبوت: ٤٥.
(٥) الذاريات: ٥٦.

وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التي بني عليها الإسلام. وأول خلق يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء لله بعهده، وشكر نعمته، وأداء أمانته، وذلك بأداء حقه الذي افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج: (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين)[1]

ولا يجوز في نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق، مع إغفال جانب الشريعة التي نظم الله بها حياة الخلق، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. فلا يحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه، أن يدع شرع الله عمداً، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم. ولهذا حذر الله رسوله ـ وبالتالي كل حاكم من بعده ـ أن يدع: «بعض ما أنزل الله»[2] تأثراً بأهواء الآخرين وفتنتهم، فإن من ترك حكم الله سقط لا محالة في حكم الجاهلية ولا ثالث لهما. قال تعالى: (وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتَّبع أهواءَهُم واحذرهُم أن يَفْتِنُوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذُنوبِهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفَحُكْمَ الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يُوقِنون)[2].

---

(١) آل عمران: ٩٧.
(٢) المائدة: ٤٩، ٥٠.

الفصل الرابع

الوسطية

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام، وهي «الوسطية» ويعبر عنها أيضاً بـ «التوازن»، ونعني بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه.

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها. ومعنى التوازن بينها: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطى حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم»، بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار. كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله: (والسماء رَفَعَها وَوَضع الميزان. ألّا تَطْغَوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقِسطِ ولا تُخْسِروا الميزان)[١].

عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن:

وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان، بعقله المحدود، وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله، ونزعاته الشخصية، والأسرية والحزبية والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر.

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر - فرد أو جماعة - من الإفراط أو التفريط. كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ.

إن القادر على إعطاء كل شيء في الوجود - مادياً كان أو معنوياً - حقه

---

(١) الرحمن: ٧ - ٩.

بحساب وميزان، هو الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأحاط بكل شيء خبراً، وأحصى كل شيء عدداً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً.

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعاً، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق، أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ظاهرة التوازن في الكون كله:

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته. وصدق الله العظيم إذ يقول: (إنا كلَّ شيء خَلقناهُ بقَدَر)[1]، (ما ترى في خَلْق الرحمن من تفاوت)[2]، (لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون)[3]، (الشمسُ والقمرُ بحُسبان. والنجْمُ والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان)[4].

وقد لاحظ الأديب المعروف الأستاذ توفيق الحكيم هذه الظاهرة الكونية العامة: ظاهرة التوازن أو التعادل بين المتقابلات في شتى جوانب الكون والحياة. فبنى عليها نظريته في الأدب والفن والثقافة، وأطلق عليها عنوان «التعادلية».

---

(١) القمر: ٤٩.
(٢) الملك: ٣.
(٣) يس: ٤٠.
(٤) الرحمن: ٥ ـ ٧.

فهو يتحدث عن الأرض التي يعيش عليها الإنسان مؤكداً أن أهم صفة للأرض أنها كرة تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هي الشمس.

يقول: «فإذا اختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس أو ضاعت في الفضاء. التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة الأرض.

فهل صفة التعادل هي أيضاً الحقيقة الأولى في كيان الإنسان؟

فلننظر أولاً كيف يعيش الإنسان من حيث هو كائن مادي؟ إنه يعيش طبعاً بالتنفس.

ما هو التنفس؟ هو حركة تعادل بين الشهيق والزفير.

فإذا اختل هذا التعادل، بأن طال الشهيق أكثر مما ينبغي طاغياً على الزفير، أو امتد الزفير أكثر مما ينبغي جائراً على الشهيق، وقفت حياة الإنسان. فإذا تركنا التركيب المادي إلى التركيب الروحي، وجدنا عين القانون.

فالتركيب الروحي للإنسان له هو أيضاً شهيقه وزفيره فيما يمكن أن نسميه الفكر والشعور أو بعبارة أخرى: العقل والقلب.

والحياة الروحية السليمة هي أيضاً تعادل بين الفكر والشعور.

وما يطلق عليه وصف الأمراض العقلية والعصبية ما هو إلا اختلال في هذا التعادل، إما بتضخم الشعور تضخماً يلغي إلى جانبه أو يعطل مهمة الفكر، فيرتد الإنسان طفلاً في أعوامه الأولى، وإما أن يطغى الفكر ويكبت الشعور، فترتبك أداة الإدراك في الإنسان.

فالإنسان إذن كائن متعادل مادياً وروحياً. وهو ليس وحده الذي ينطبق عليه هذا التعريف. كل الكائنات التي تحملها هذه الأرض المتعادلة هي أيضاً كلها في تركيبها تعادلاً هو سر حياتها.

فالحيوان والنبات والجماد... كلها تخضع لقانون «التعادل» في تركيبها

البيولوجي والكيميائي والطبيعي. حتى في نظر العلم الحديث الذي غير معتقدات القرن التاسع عشر، حول «المادة» وبين بنظرياته عن «المادة» و «المجال». أن ما نصفه بالمادة ليس سوى «الطاقة» مركزة تركيزاً شديداً..

كما أنه صاغ أيضاً القوانين الجديدة في مجال الجاذبية بين جزئيات المادة، والجاذبية هي أساس التعادل، لأن الجاذبية تعني وجود قوتين. والتعادل يعني المحافظة على بقاء القوتين، دون أن تتلاشى إحداهما في الأخرى»[1].

والذي لاحظه الأستاذ الحكيم في الكون الصغير: الإنسان، والكون الكبير: العالم، من ظاهرة التعادل أو التوازن بين أجزائه، من الذرة إلى المجموعة الشمسية، والتي بنى عليها مذهبه في الأدب والفن، حقيقة لا ريب فيها، قد سبق القرآن بالإرشاد إليها، والتنبيه عليها، كما ذكرنا من قبل، وبنى على ذلك فلسفته ومنهجه للحياة كلها: مادية وروحية، فردية واجتماعية. وأعلن تميز أمته بهذه الخصيصة الكبيرَة: الوسطية أو التوازن.

وإلى هذه الخصيصة البارزة يشير قوله تعالى مخاطباً أمة الإسلام: (وكذلك جعلنَاكُم أمة وسطاً لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكُم شهيداً)[2].

ووسطية الأمة الإسلامية إنما هي مستمدة من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج وسط لأمة وسط. منهج الاعتدال والتوازن الذي سلم من الإفراط والتفريط، أو من الغلو والتقصير.

مزايا الوسطية وفوائدها:

ولقد كان من حكمة الله تعالى أن اختار الوسطية أو التوازن شعاراً مميزاً لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم أنبيائه رسولاً للناس جميعاً، ورحمة للعالمين.

---

(١) «التعادلية» لتوفيق الحكيم ص ١٠ - ١٢.

(٢) البقرة: ١٤٣.

الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

فقد يجوز في رسالة مرحلية محدودة الزمن والإطار أن تعالج بعض التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية قوومت بمبالغة مقابلة في الدعوة إلى المثالية، وإذا كان هناك غلو في النزعة المادية، رد عليها بغلو معاكس في النزعة إلى الروحية. كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية، وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان.

فإذا أدت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحدت من الغلو، ولو بغلو مثله، كان لا بد من العودة إلى الحد الوسط، والى الصراط السوي، فتعتدل كفتا الميزان، وهذا ما جاءت به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة.

على أن في الوسطية معاني أخرى تميز منهج الإسلام وأمة الإسلام وتجعلها أهلاً للسيادة والخلود.

الوسطية تعني العدل:

(أ) فمن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلاً، فإن شهادته مردودة مرفوضة. أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس.

وتفسير الوسط في الآية بالعدل مروي عن النبي ﷺ: فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي (ﷺ)، فسر الوسط هنا بالعدل [١]

والعدل والتوسط والتوازن عبارات متقاربة المعنى، فالعدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة دون ميل أو تحيز إلى أحدهما أو أحدها. وهو بعبارة أخرى: موازنة بين هذه الأطراف بحيث يعطي كل منها حقه دون بخس ولا جور عليه. ومن ثم قال زهير في المدح:

همُو وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص: ١٩٠ ط الحلبي.

يصفهم بالعدل والقسط وعدم التحيز.

وقال المفسرون في قوله تعالى: (قال أوسَطُهم: ألم أَقُل لكُم: لولا تُسبِّحون)[1] أي: أعدلهم[2]. يؤكد هذا الإمام الرازي في تفسيره بقوله إن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء، وعلى اعتدال[3].

ويقول المفسر أبو السعود: الوسط في الأصل اسم لما تستوى نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة، لكون تلك الخصال أوساطاً للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الإفراط والتفريط[4].

فالوسط يعني إذن العدل والاعتدال. وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو ولا إلى التقصير.

الوسطية تعني الاستقامة:

(ب) والوسطية تعني كذلك: استقامة المنهج، والبعد عن الميل والانحراف. فالمنهج المستقيم، وبتعبير القرآن: (الصراط المستقيم) هو - كما عبر أحد المفسرين - الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطاً كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطاً بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة.[5]

ومن هنا علم الإسلام المسلم أن يسأل الله الهداية للصراط المستقيم كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة، هي عدد ركعات الصلوات الخمس المفروضة في اليوم والليلة. وذلك حين يقرأ فاتحة الكتاب في صلاته فيقول داعياً ربه:

---

(١) القلم: ٢٨.
(٢) انظر: تفسير «الفخر الرازي» ج ٤ ص: ١٠٨ - ١٠٩ المطبعة المصرية ١٣٥٤/ ١٩٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير أبي السعود: ج ١ ص: ١٢٣ ط صبيح.
(٥) المصدر نفسه.

(اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[1].

وقد مثل النبي - ﷺ -، للمغضوب عليهم باليهود، وللضالين بالنصارى. ولا شك أن كلاً من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا. فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى ألهوهم. اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في الإباحة حتى قالوا: كل شيء طيب للطيبين... اليهود غلوا في الجانب المادي، والنصارى قصروا فيه، اليهود تطرفوا في اعتبار الرسوم في الشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها.

والإسلام يعلم المسلم أن يحذر من تطرف كلا الفريقين، وأن يلتزم المنهج الوسط، أو المستقيم، الذي سار عليه كل من رضي الله عنهم، وأنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

الوسطية دليل الخيرية:

(جـ) والوسطية كذلك دليل الخيرية، ومظهر الفضل والتمييز، في الماديات والمعنويات. ففي الأمور المادية نرى أفضل حبات العقد واسطته، ونرى رئيس القوم في الوسط والأتباع من حوله. وفي الأمور المعنوية نجد التوسط دائماً خيراً من التطرف.

ولهذا قال العرب في حكمهم: خير الأمور الوسط. وقال أرسطو: الفضيلة وسط بين رذيلتين. ومن هنا قال ابن كثير في قوله تعالى: (أمة وسطاً)[2] الوسط ههنا: الخيار والأجود. كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيرها « وكان رسول الله - ﷺ - وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً. ومنه: الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات[3].

---

(١) الفاتحة: ٦، ٧.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

الوسطية تمثل الأمان:

(د) والوسطية تمثل منطقة الأمان، والبعد عن الخطر، فالأطراف عادة تتعرض للخطر والفساد، بخلاف الوسط، فهو محمي ومحروس بما حوله، وفي هذا قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنف بها الحوادث حتى أصبحت طـرفـاً

وكذلك شأن النظام الوسط، والأمة الوسط.

الوسطية دليل القوة:

(هـ) والوسطية دليل القوة، فالوسط هو مركز القوة. ألا ترى الشباب الذي يمثل مرحلة القوة وسطاً بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة؟! والشمس في وسط النهار أقوى منها في أول النهار وآخره؟!

الوسطية مركز الوحدة:

(و) والوسطية تمثل مركز الوحدة ونقطة التلاقي.. فعلى حين تتعدد الأطراف تعدداً قد لا يتناهى، يبقى الوسط واحداً، يمكن لكل الأطراف أن تلتقي عنده. فهو المنتصف، وهو المركز. وهذا واضح في الجانب المادي، والجانب الفكري والمعنوي على سواء.

ومركز الدائرة في وسطها يمكن لكل الخطوط الآتية من المحيط أن تلتقي عنده. والفكرة الوسطى يمكن أن تلتقي بها الأفكار المتطرفة في نقطة ما، هي نقطة التوازن والاعتدال. كما أن التعدد والاختلاف الفكري يكون حتمياً كلما وجد التطرف، وتكون حدته وشدته بقدر حدة هذا التطرف. أما التوسط والاعتدال فهو طريق الوحدة الفكرية ومركزها ومنبعها. ولهذا تثير المذاهب والأفكار المتطرفة من الفرقة والخلافة بين أبناء الأمة الواحدة ما لا تثيره المذاهب المعتدلة في العادة.

مظاهر الوسطية في الإسلام:

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا، فلا عجب أن تتجلى واضحة في كل جوانب الإسلام، نظرية وعملية، تربوية وتشريعية.

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور. وسط في التعبد والتنسك. وسط في الأخلاق والآداب. وسط في التشريع والنظام.

وسطية الإسلام في الاعتقاد:

(أ) فهو وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير برهان.. وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة.

فالإسلام يدعو إلى الاعتقاد والإيمان، ولكن بما قام عليه الدليل القطعي والبرهان اليقيني، وما عدا ذلك يرفضه ويعده من الأوهام، وشعاره دائماً: (قُل هاتوا بُرهانَكُم إن كنتم صادقين)[1].

(ب) وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في صدورهم، متحدين منطق العقل في رؤوسهم.. وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار، وألهوا الأوثان والأحجار!

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وكل من عداه وما عداه مخلوقات لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين: (ومن أضل ممَّن يدعوا من دون الله من لا يَستَجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائِهم غافلون)[2].

(جـ) وهو وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وما

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الأحقاف: ٥.

عداه ـ مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد ـ خرافة ووهم.. وبين الذين يعتبرون الكون وهماً لا حقيقة له، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فالإسلام يعتبر وجود الكون حقيقة لا ريب فيها. ولكنه يعبر من هذه الحقيقة الى حقيقة أكبر منها وهي: سن كونه ونظمه ودبر أمره. وهو الله تعالى: (إنَّ في خَلْق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنُوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً، سُبحانك)[1].

(د) وهو وسط بين الذين يؤلهون الإنسان، ويضفون عليه خصائص الربوبية ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كريشة في مهب الريح، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد، أو القدر.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبدلله، قادر على تغيير ما حوله، بقدر ما يغير ما بنفسه: (إن الله لا يُغَيّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفُسِهم)[2].

(هـ) وهو وسط بين الذين يقدسون الأنبياء حتى رفعوهم إلى مرتبة الالوهية أو البنوة للإله.. وبين الذين كذبوهم واتهموهم، وصبوا عليهم كؤوس العذاب.

فالأنبياء بشر مثلنا، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ولكثير منهم أزواج وذرية، وكل ما بينهم وبين غيرهم من فرق، أن الله من عليهم بالوحي، وأيدهم بالمعجزات: (قالت لهم رُسُلُهم إن نحن إلا بشر مثلُكم ولكن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[3].

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.
(٢) الرعد: ١١.
(٣) إبراهيم: ١١.

(و) وهو وسط بين الذين يؤمنون بالعقل وحده مصدراً لمعرفة حقائق الوجود وبين الذين لا يؤمنون إلا بالوحي والإلهام، ولا يعترفون للعقل بدور في نفي أو إثبات.

فالإسلام يؤمن بالعقل، ويدعوه للنظر والتفكير، وينكر عليه الجمود والتقليد ويخاطبه بالأوامر والنواهي، ويعتمد عليه في إثبات أعظم حقيقتين في الوجود، وهما وجود الله تعالى[1] وصدق دعوى النبوة، ولكنه يؤمن بالوحي، مكملاً للعقل، ومعيناً له فيما تضل فيه العقول وتختلف، وما تغلب عليه الأهواء، وهادياً له إلى ما ليس من اختصاصه ولا هو في مقدوره، من الغيبيات والسمعيات وطرائق التعبد لله تعالى.

وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

والإسلام وسط في عباداته، وشعائره بين الأديان، والنحل التي ألغت الجانب «الرباني» ـ جانب العبادة والتنسك والتأله ـ من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده.. وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والانتاج، كالرهبانية المسيحية.

فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر مرة كالحج، ليظل دائماً موصولاً بالله، غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعياً منتجاً، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله.

ولعل أوضح دليل نذكره هنا: الآيات الآمرة بصلاة الجمعة:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نُوديَ للصلاة من يومِ الجُمعةِ فاسْعَوا إلى ذكر الله وذروا البيْعَ، ذلكُم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قُضيَت الصلاة

---

(١) هذه الحقيقة الأولى والكبرى لم تثبت بطريق الوحي إلى رسول، فإن الوحي والرسالة فرع عن ثبوت الموحي. والمرسل وهو الله، وإنما ثبتت هذه الحقيقة بضرورة العقل، وغريزة الفطرة معاً.

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)[١] .

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى في يوم الجمعة: بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة، ثم سعي إلى ذكر الله وإلى الصلاة، وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة. ثم انتشار في الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً في كل حال. فهو اساس الفلاح والنجاح.

وسطية الإسلام في الأخلاق:

(أ) والإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساؤوا بها الظن، فعدوها شراً خالصاً. وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملاك، قد هدي للنجدين، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين، إما شاكراً وإما كفوراً. فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى. ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى: (ونفس وما سواها. فألهمها فُجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها)[٢] .

(ب) وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سُجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب هذا الجسد وحرمانه، كالبرهمية وغيرها. وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً

---

(١) الجمعة: ٩، ١٠.

(٢) الشمس: ٧-١٠.

صرفاً لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نغمة سماوية.

أما الإنسان في الإسلام فهو كيان روحي ومادي، كما يشير إلى ذلك خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، فقد خلقه الله من تراب أو طين أو صلصال، وكلها تومىء إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه المادة شيئاً آخر، هو سر تميز الإنسان، ومنبع كرامته، وفيه يقول للملائكة: (فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[1].

ومادام الإنسان مؤلفاً من الروح والبدن، فإن لروحه عليه حقاً، ولبدنه عليه حقاً.

(جـ) وهو وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدّنيا وما نحْنُ بمبعوثين)[2] وبهذا غرقوا في الشهوات. وعبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفاً يركضون وراءه، غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة. وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان. وبين الذين رفضوا هذه الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شراً يجب مقاومته والفرار منه، فحرموا على أنفسهم طيباتها: وزينتها، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها.

فالإسلام يعتبر الحياتين، ويجمع بين الحسنيين، ويجعل الدنيا مزرعة للآخرة، ويرى العمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات. يقول الله في كتابه: (والذين كفروا يتمتَّعُون ويأكُلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)[3]. ويقول تعالى: (يا بَني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يُحب المسرفين. قل

---

(١) الحجر: ٢٩.
(٢) الأنعام: ٢٩.
(٣) محمد: ١٢.

من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)[١] ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مثوبة الله لعباده المؤمنين فيقول: (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين)[٢] ويعلم المؤمنين هذا الدعاء الجامع لحسنتي الدارين: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار)[٣].

التوازن بين الروحية والمادية:

ولا عجب أن نجد من أبرز مظاهر الوسطية أو التوازن في رسالة الإسلام: التوازن بين الروحية والمادية ـ أو بعبارة أخرى ـ بين الدين والدنيا.

(أ) لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد، كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان، وعمارة الجانب المادي في الحياة، دون التفات إلى الجوانب الأخرى: (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين)[٤]

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرة بأن تولد الترف والطغيان، والتكالب على متاع الحياة، والغرور والاستكبار عند النعمة، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحاً فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد، والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالاً، ولا للآخرة حساباً، ولا للروح مكاناً.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه، منتفخاً بثروته، مختالاً بجنته، قائلاً: (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة)[٥].

---

(١) الأعراف: ٣١، ٣٢.
(٢) آل عمران: ١٤٨.
(٣) البقرة: ٢٠١.
(٤) الأنعام: ٢٩.
(٥) الكهف: ٣٤-٣٦.

فأرسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقا. وأصبح ماؤها غورا.

وهذا قارون، الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. بغى على قومه، واغتر بماله، وعزا الفضل فيه إلى نفسه قال: (إنما أوتيته على علمٍ عندي)[1] فخسف الله به وبداره الأرض.

وهذا فرعون الذي قال: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، أفلا تُبصِرُون؟)[2].

وغير هؤلاء من الأمم التي أترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف، ودمرها التحلل، وحقت عليها كلمة العذاب، وحرمت نصر الله وعونه: (حتى إذا أخذنا مُترَفِيهم بالعذاب، إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم، إنكم منا لا تُنصرون. قد كانت آياتي تتلى عليكم فكُنتم على أعقابكم تنكصون)[3] (وكم قَصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلما أحَسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون. لا تركُضُوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلّكُم تُسئلُون)[4].

(ب) وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها، وجد آخرون من الأفراد والجماعات، نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة. فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وعطلوا قواهم من عمارتها، والإسهاب في تنميتها وترقيتها واكتشاف ما أودع الله فيها.

عرف ذلك في برهمية الهند، ومانوية فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا به جماهير غفيرة عن الحياة، والتمتع بها، والإنتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس من الدين والتدين الحق، هو الانقطاع عن

(١) القصص: ٧٨.
(٢) الزخرف: ٥١.
(٣) المؤمنون: ٦٤-٦٦.
(٤) الأنبياء: ١١-١٣.

العالم، والتفرغ للعبادة، وأن المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، يده في الدنيا صفر، وحظه من الحياة خبز الشعير، ولبس المرقع، واتخاذ الفلوات داراً!.

(جـ) وبين هاتين النزعتين قام الإسلام، يدعو إلى التوازن والاعتدال فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة.

فالإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة، يقوم كيانه على قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ففيه عنصر أرضي، يتمثل في جسمه الذي يطلب حظه مما خرج من الأرض من متاع وزينة. وفيه عنصر سماوي يتمثل في روحه التي تتطلع إلى هداها مما نزل من السماء.

وقد أشار القرآن إلى هذه الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان الأول: آدم أبي البشر، فقال تعالى: (وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالِق بشراً من طين. فإذا سويتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[١].

وأشار إلى هذه الطبيعة نفسها في خلق ذرية آدم حيث قال: (وبدأ خلْق الإنسان من طين. ثم جعل نسلهُ من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون)[٢].

وكان من حكمة الله سبحانه أن خلق الإنسان على هذه الطبيعة، لأنها تتفق مع الرسالة التي كلف القيام بها، وهي الخلافة في الأرض.

فهو ـ بعنصره الطيني المادي ـ قادر على أن يسعى في الأرض ويعمرها ويحسنها، ويكتشف ما أودع الله فيها من كنوز ونعم، ويسخر قواها المتنوعة بإذن الله ـ لمنفعته والنهوض بمهمته، فالجسم المادي في الإنسان ليس إذن شراً ولا لعنة، ولو كان الإنسان روحاً خالصاً كالملائكة ما وجدت لديه الدوافع التي تحفزه على استخدام المادة والمشي في مناكب الأرض والكشف عن

---

(١) سورة ص: ٧١، ٧٢.
(٢) السجدة: ٧ـ٩.

مكنونها، والعمل على تعميرها.

وهو - بعنصره الروحي السماوي - مهيأ للتحليق في أفق أعلى، والتطلع إلى عالم أرقى، وإلى حياة هي خير وأبقى. وبهذا يسخر المادة ولا تسخره. ويستخدم ما على الأرض من ثروات وخيرات دون أن تستخدمه هي وتستعبده.

إن الأرض وما عليها خُلِقت له أما هو فقد خُلِقَ لله: لعبادته ومعرفته وإحسان الصلة به.

والحياة ليست سجناً عُوقِب الإنسان به، ولا عبئاً فُرض عليه حمله إنما هي نعمة يجب أن تُشكر، ورسالة يجب أن تُؤدى، ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا تشغل عنها، ولا تحيف عليها.

والقرآن الكريم يدعو إلى العمل للحياة، والضرب في الأرض، والمشي في مناكبها والاستمتاع بطيباتها، بجوار الحث على الاستعداد للآخرة، والتزود ليوم الحساب، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله، ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

يقول سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحل اللهُ لكُم ولا تعتدوا، إن الله لا يُحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مُؤمِنُون)(١).

ويقول تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكُلُوا من رزقه، وإليه النشور)(٢). ويقول: (فإذا قُضِيَت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلِحون)(٣). ويقول: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

---

(١) المائدة: ٨٧، ٨٨.
(٢) الملك: ١٥.
(٣) الجمعة: ١٠.

وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغِ الفسادَ في الأرض. إن الله لا يُحب المفسدين﴾[١].

والرسول ﷺ كان يأكل من طيبات هذه الحياة ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره، وكان من دعائه: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا»[٢].

وإنما كان يعطيها حقها، وللآخرة حقها، بالقسطاس المستقيم، وكان من دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[٣].

فهذا الدعاء النبوي المأثور، يبين موقف المسلم من الدين والدنيا والآخرة، إنه يطلبها جميعاً، ويسأل الله أن يصلحها له جميعاً، الدين والدنيا والآخرة، إذ لا غنى له عن واحد منها، فالدين عصمة أمره، وملاك حياته، والدنيا فيها معاشه، ومتاعه إلى حين، والآخرة إليها معاده ومصيره.

وهو مثل الدعاء القرآني الموجز الذي كان ﷺ كثيراً ما يدعو به: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنَا عذاب النار)[٤].

وكان ﷺ حريصاً على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، وبين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الـروح، فإذا رأى في بعضهم غلواً في جانب، قومه بالحكمة ورده إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطاً في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله ومجتمعه، قال له: إن لبدنك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك - يعني زوارك وضيوفك - عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»[٥].

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عمر وحسنه وأقره النووي، ورواه النسائي أيضاً والحاكم وصححه على شرط البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) البقرة: ٢٠١.

(٥) رواه البخاري.

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم الثاني أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً ـ قال لهم: « أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[1].

وحين أقبل أبو عبيدة بمال من البحرين، وأحس بعض الصحابة بقدومه فهرولوا مسرعين، ينتظرون أن ينالهم شيء منه، وبدا منهم الحرص على هذا المتاع الأدنى، انتهزها النبي ـ ﷺ ـ فرصة، ليحذرهم من فتنة الدنيا وغرورها، والحرص على زخارفها، فخطب فيهم قائلاً: « أبشروا وأملوا فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم »[2].

وهكذا تعلم الصحابة أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، يقول القائد الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه: « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ».

ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا بالوحدة والانسجام والامتزاج، كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية، تعطيهم زاداً وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم. وكانت أعمالهم الدنيوية، عوناً لهم على أداء فرائضهم الدينية... كانوا يعتقدون أنهم ـ في عبادتهم ومساجدهم ـ ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم ـ في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم ـ غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله.

وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام وسط كذلك في تشريعه ونظامه القانوني والاجتماعي.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

فهو وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات، مما حرمه إسرائيل على نفسه، ومما حرمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم كما قال الله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرَّمنا عليهم طيبات أُحلَّت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذِهِم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل)[1].

وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجيء لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله. ومع هذا أعلن رجال المسيحية أن كل شيء طاهر للطاهرين!

فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل ولا التحريم من حق بشر، بل من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع. ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه: (يأمرهم بالمعروف وينهَاهم عن المنكرِ ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)[2].

والتشريع الإسلامي وسط في شؤون الأسرة، كما هو وسط في شؤونه كلها. وسط بين الذين شرعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد، وبين الذين رفضوه وأنكروه ولو اقتضته المصلحة وفرضته الضرورة والحاجة.

فقد شرع الإسلام هذا الزواج بشرط القدرة على الإحصان والإنفاق، والثقة بالعدل بين الزوجتين، فإن خاف ألا يعدل، لزمه الاقتصار على واحدة. كما قال تعالى: (فإن خفتم ألا تعدِلوا فواحدة)[3].

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرموا الطلاق، لأي سبب كان، ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق، كالكاثوليك، وقريب منهم الذين

---

(١) النساء: ١٦٠، ١٦١
(٢) الأعراف: ١٥٧.
(٣) النساء: ٣.

حرموه إلا لعلة الزنا والخيانة الزوجية كالأرثوذوكس. وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق، فلم يقيدوه بقيد، أو شرط، فمن طلب الطلاق من امرأة أو رجل كان أمره بيده، وبذلك سهل هدم الحياة الزوجية بأوهى سبب، وأصبح هذا الميثاق الغليظ أوهى من بيت العنكبوت.

إنما شرع الإسلام الطلاق، عندما تفشل كل وسائل العلاج الأخرى، ولا يجدي تحكيم ولا إصلاح، ومع هذا فهو أبغض الحلال إلى الله، ويستطيع المطلق مرة ومرة أن يراجع مطلقته ويعيدها إلى حظيرة الزوجية من جديد. كما قال تعالى: (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)[1].

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين «الليبراليين» أو «الرأسماليين»، الذين يدللون الفرد على حسب المجتمع، بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها، وقلة ما يفرض عليه من واجبات يُسئل عنها. فهو دائماً يقول: لي، وقلما يقول: عليَّ. وبين الماركسيين والجماعيين الذين يضخمون دور المجتمع، بالضغط على الفرد، والتقليل من حقوقه، والحجر على حريته، ومصادرة نوازعه الذاتية.

التوازن بين الفردية والجماعية:

وفي النظام الإسلامي تلتقي الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم.

لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم، في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما: هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارىء مفروض عليه، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل (خام)، والمجتمع هو الذي يشكلها ويعطيها صورتها، فالمجتمع هو الذي يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك؟

(١) البقرة: ٢٢٩.

من الناس من جنح إلى هذا، ومنهم من مال إلى ذلك، وأحتدّ الخلاف بين الفلاسفة والمشرعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين في هذه القضية، فلم يصلوا إلى نتيجة.

كان (أرسطو) يؤمن بفردية الإنسان، ويحبذ النظام الذي يقوم على الفردية، وكان أستاذه (أفلاطون) يؤمن بالجماعية ـ الاشتراكية ـ كما يتضح ذلك في كتابه (الجمهورية).

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية ـ أشهر الفلسفات البشرية القديمة ـ أن تحل هذه العقدة، وأن تخرج الناس من هذه الحيرة، كشأن الفلسفة دائماً في كل القضايا الكبيرة، تعطي الرأي وضده، ولا يكاد أقطابها يتفقون على حقيقة، حتى قال أحد أساتذتها: الفلسفة لا رأي لها!!

وفي فارس ظهر مذهبان متناقضان: أحدهما فردي يدعو إلى التقشف والزهد، والامتناع عن الزواج، ليعجل الإنسان بفناء العالم، الذي يعج بالشرور والآلام، وهذا هو مذهب «ماني» ويمثل أقصى الفردية.

وقام في مقابله مذهب آخر يمثل أقصى (الجماعية) وهو مذهب «مزدك» الذي دعا إلى شيوعية الأموال والنساء، وتبعه كثير من الغوغاء، الذين عاثوا في الأرض فساداً، وضجت منهم البلاد والعباد.

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن في الحيـــاة، والقسط بين الناس، كما قرر ذلك القرآن الكريم[1]، ولكن أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله، ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت مزيتها الأولى وهي: ربانية المصدر.

لهذا، لم تقدم الأديان السابقة قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة، فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية: (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل)[2]

---

(١) في قوله تعالى: (لقد أرسَلنا رُسلنا بالبينات وأنزلنا معهُم الكتابَ والميزانَ ليَقُوم الناسُ بالقِسْطِ). (الحديد: ٢٥).

(٢) النساء: ١٦١.

كما سجل عليهم القرآن العزيز.

وجاءت المسيحية أيضاً تهتم بنجاة الفرد قبل كل شيء، تاركة شأن المجتمع لقيصر، أو على الأقل، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح. حين قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله!!

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع، فماذا نرى؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي، والمذهب الجماعي. فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية، واعتبار الفرد هو المحور الأساسي، فهي تدلله بإعطاء الحقوق الكثيرة، التي تكاد تكون مطلقة، فله حرية التملك، وحرية القول، وحرية التصرف، وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه، وإضرار غيره، ما دام يستعمل حقه في «الحرية الشخصية»، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه، لأنه «هو حر».

والمذاهب الاشتراكية ـ وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية ـ تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه، والإكثار من واجباته، واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل. وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك «الآلة» الجبارة، التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة، والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم، وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب، هي الدكتاتور!!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة، والمنقولات، وليس له حق المعارضة، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته، وإذا حدثته عن نفسه بالنقد العلني أو الخفي، فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!

ذلك هو شأن فلسفات البشر ومذاهب البشر، والديانات التي حرفها البشر، وموقفها من الفردية والجماعية، فماذا كان موقف الإسلام؟

لقد كان موقفه فريداً حقاً، لم يمل مع هؤلاء ولا هؤلاء، ولم يتطرف إلى اليمين ولا إلى اليسار.

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها. وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة: فردية واجتماعية في آن واحد. فالفردية جزء أصيل في كيانه. ولهذا يحب ذاته، ويميل إلى إثباتها وإبرازها ويرغب في الاستقلال بشؤونه الخاصة.

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره، ولهذا عد السجن الانفرادي عقوبة قاسية للإنسان، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب.

والنظام الصالح هو الذي يراعي هذين الجانبين: الفردية والجماعية، ولا يطغى أحدهما على الآخر. فلا عجب أن جاء الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد. لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تُلقى عليه. وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه، دون حرج ولا إعنات، ويقرر له من الحقوق ما يكافىء واجباته، ويلبي حاجته، ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته.

١ ـ من هنا قرر الإسلام حرمة الدم، فحفظ للفرد «حق الحياة»، وأعلن القرآن أن: (من قتل نَفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)[١].

وأوجبت الشريعة في قتل العمد القصاص، إلا أن يعفو أولياء المقتول، أو يقبلوا بدلاً، وأوجبت في قتل الخطأ الدية والكفارة.

٢ ـ وقرر حرمة العرض، فصان للفرد «حق الكرامة» فلا يجوز أن يهان في

---

(١) المائدة: ٣٢.

حضرته، أو يؤذى في غيبته، بأي كلمة أو إشارة تسوؤه: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكُن خيراً منهُن، ولا تلمِزوا أنفُسَكُم، ولا تنابزوا بالألقاب)[1]. (ولا يغتَب بعضُكُم بعضاً، أيحب أحدُكُم أن يأكلَ لحمَ أخيه ميتاً)[2].

٣ ـ وقرر حرمة المال، فصان للفرد «حق التملك» فلا يحل أخذ ماله إلا بطيب نفس منه، ولا يجوز للدولة، ولا لفرد آخر نهب ماله وأخذه بغير حق. قال النبي ـ ﷺ ـ في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[3].

٤ ـ وقرر حرمة البيت، فصان بذلك للفرد «حق الاستقلال الشخصي» فلا يجوز لأحد أن يتجسس عليه، أو يقتحم عليه بيته بغير إذنه، قال تعالى: (ولا تدخلوا بُيوتاً غير بُيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)[4] وقال: (ولا تجسسوا)[5].

٥ ـ وقرر للفرد «حرية الاعتقاد» فلا يجوز أن يكره على ترك دينه، واعتناق دين آخر: (لا إكراه في الدين، قد تبين الرشدُ من الغي)[6]. (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[7].

٦ ـ وقرر للفرد «حرية النقد» فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج، وما يلاحظه من تقصير، بل من واجبه ذلك إذا لم يقم غيره به، وهو ما سماه الإسلام «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»:

---

(١) الحجرات: ١١.
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) رواه مسلم.
(٤) النور: ٢٧.
(٥) الحجرات: ١٢.
(٦) البقرة: ٢٥٦.
(٧) يونس: ٩٩.

٧ ـ وقرر «حريـة الرأي والفكر» فمن حق كل إنسان، بل من واجبه أن يفكر وينظر. فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا. وما دام التفكير حقاً ـ أو واجباً ـ لكل بشر، فمن حق كل مفكر أن يخطىء، ولا لوم عليه في ذلك. إن الإسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر، وإن أخطأ إصابة الحقيقة. ففي الحديث «المجتهد إذا أخطأ فله أجر، وإن أصاب فله أجران»[١].

وليس في الدنيا دين ولا نظام يشجع على استعمال الفكر، ويرحب بنتائجه ـ أياً كانت ـ مثل هذا الإسلام، الذي يثيب على الاجتهاد الخطأ.

ثم تتعايش هذه الأفكار والاجتهادات المختلفة جنباً إلى جنب، دون ضيق ولا تبرم، كما رأينا ذلك في عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

وفي ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس والمشارب المختلفة: في الفقه، والتفسير، والكلام وغيرها، من غير نكير، إلا ما توجبه المناقشة العلمية.

٨ ـ وقرر الإسلام «المسئولية الفردية». وأكدها تأكيداً بليغاً في كتابه فقال تعالى: (كل نَفس بما كَسَبت رهينة)[٢]. «لها ما كَسَبَت وعليها ما اكتسبت)[٣]. «ولاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى)[٤].

وهذه الآيات تطبق على الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، فهو في الحياتين لا يحمل وزر غيره.

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية، بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة، وألا يكون فيها مضرة للغير، وليس للفرد أن

(١) متفق عليه.
(٢) المدثر: ٣٨.
(٣) البقرة: ٢٨٦.
(٤) الإسراء: ١٥.

يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها، إذ لا ضَرر ولا ضِرار في الإسلام، أي: لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره. كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم.

(أ) فالحياة التي صانها الإسلام للفرد، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضي النفس، قرير العين، معتقداً أن الموت هنا هو عين الحياة، وكذلك إذا اعتدى على حق نفس أخرى كقاتل العمد، أو على حق المجتمع في الأمن والاستقرار، كقاطع الطريق. أو خرج على دينه وفارق الجماعة كالمرتد ـ فقدت حياته ما لها من عصمة.

(ب) حق التملك مقيد بأن يأخذ المال من حله، وينفقه في محله، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادي أنصار «المذهب الحر»، بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع، حتى إن انتزاع هذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة، على أن يعوض عنه ثمن المثل، ذلك أن المال مال الله، وهو مستخلف فيه، وبعبارة أخرى: هو وكيل الجماعة في رعايته وتثميره وإنفاقه، فإذا أساء التصرف في المال، كان من حق الجماعة أن تغل يده، وتحجر عليه، كما أن للجماعة عليه حقوقاً في هذا المال، بعضها دوري ثابت كالزكاة بأنواعها، وبعضها غير دوري، كما في الحديث: «إن في المال حقاً سوى الزكاة»[1]، وبعضها يفرضه ولي الأمر عند الحاجة.

(ج) والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده ومثله العليا، فليس معنى حرية الاعتقاد أو الرأي، إباحة الطعن على الإسلام وأهله، وإذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه، والتشكيك في القيم العليا، ونشر الخلاعة والفجور، فإن حرية الإفساد لا يقرها عقل ولا شرع.

(د) المسؤولية الفردية التي أكدها الإسلام، نراه قد أكد كذلك مسؤولية الفرد عن الجماعة، فكل فرد في المجتمع المسلم راع في مجال من المجالات، كما في

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

الحديث الصحيح: « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »[1] فكما أن الإمام راع مسئول عن الأمة فإن الرجل في بيته راع مسئول عن الاسرة، والمرأة راعية في بيت زوجها، والخادم راع في مال مخدومة، وكل على ثغر الإسلام، فلا يجوز له إهمالها.. وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقتضي مسئولية المسلم عن المجتمع، وتوجب عليه مراقبة أحواله، وتقويم عوجه إن اعوج بكل ما استطاع، بيده أولاً، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه: وذلك أضعف الإيمان.

إن النصيحة لكافة المسلمين خاصتهم وعامتهم، ركن ركين من الإسلام، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس ويقول: نفسي نفسي! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله، فإن هذه النار إذا تركت وشأنها، لم تلبث أن تحرقه هو، وتحرق كل ما يحرص عليه. ولهذا يقول القرآن: (واتقوا فِتنة لا تُصِيبَن الذين ظلموا مِنكُم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب)[2] وفي الحديث: « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ».

(هـ) ومن معاني الجماعة في الإسلام ما عرف في الشريعة باسم « فروض الكفاية » فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة، تحتاج إليها الجماعة المسلمة في دينها أو دنياها. فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين، على معنى أنه إذا قام بها عدد كاف فقد ارتفع الحرج، وسقط الإثم عن باقي الجماعة، وإلا أثمت الجماعة كلها، واستحقت عقوبة الله.

(و) المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام، وإقامة حدوده، ومن هنا كان خطاب التكليف في القرآن إلى الجماعة. وتكرر قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا)[3] بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) الأنفال: ٢٥.

(٣) ذكر هذا النداء في القرآن كثيراً.

بين الجماعة في تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه. خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيدِيَهما)[1]. (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة)[2]، وإن كان الذي يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحكام، لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها.

(ز) حتى العبادة التي هي صلة بين العبد وربه، أبى الإسلام، إلا أن يضفي عليها روحاً جماعية، وصبغة جماعية، فدعا إلى صلاة الجماعة ورغب فيها، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده، بسبع وعشرين درجة، وكلما كان عدد الجماعة أكبر، كان ثواب الله عليها أعظم. بل هم الرسول أن يحرق على قوم بيوتهم، لتخلفهم عن الجماعة في المسجد، ولم يرخص لأعمى، يسمع الأذان، أن يصلي في بيته ويترك صلاة الجماعة، وقال: «لا صلاة لمنفرد خلف الصف»[3] كراهية منه للشذوذ والانفراد، ولو في المظهر. وإذا صلى المسلم منفرداً في خلوة لم تزل الجماعة في وجدانه وضميره، فهو إذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع، وإذا دعاه دعاه باسم الجميع: (إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم)[4].

كما شرع صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة، وصلاة العيد في كل عام مرتين، وفرض الحج في العمر مرة على كل مسلم. وكلها شعائر لا بد أن تؤدى في صورة جماعية.

(ح) في مجال الآداب والتقاليد، حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية، التي قد تروق للانطوائيين من الناس، فتحية الإسلام، والمصافحة عند اللقاء، وتشميت العاطس، والتزاور والتهادي، وعيادة المريض، وتعزية المصاب، وصلة الأرحام، وإحسان الجوار،

---

(١) المائدة. ٣٨.
(٢) النور: ٢.
(٣) رواه أبو داوود.
(٤) الفاتحة: ٥، ٦.

وإكرام الضيف، وحسن الصحبة في السفر والحضر، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك من الآداب والواجبات، هي التي جعلت الشعور الجماعي، والتفكير الجماعي، والسلوك الجماعي، جزءاً لا يتجزأ من حياة المسلم.

(ط) وفي مجال الأخلاق، حث الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، ودعا إلى توحيد الكلمة وجمع الصف، كما دعا إلى التراحم والتسامح، وإلى البذل والتضحية، واحترام النظام، والطاعة لأولي الأمر في المعروف.

وبجوار ذلك حذر من الحسد والبغضاء والحقد، والفرقة والتنازع. وسائر الرذائل التي تنشأ من الأنانية والغلو في حب الذات، وحب الشهوات.

وبهذا كله، نعلم كيف أقام الإسلام - بالتشريع والتربية - الموازين القسط بين الفرد والمجتمع، أو بين الفردية والجماعية في حياة الإنسان. كما نتبين أن نظام الإسلام لا يعد في المذاهب الفردية، كما لا يحسب في المذاهب الجماعية، ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه، كما تنزه عن شر ما فيه، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف. وهذه هي الوسطية، وإن شئت قلت: هو التوازن الذي اختص به هذا الإسلام.



الفَصْلُ الخَامِسُ

الـوَاقِعيَّــة

وهذه خصيصة أخرى من الخصائص العامة للإسلام، وهي «الواقعية».

ماذا نريد بالواقعية:

لسنا نعني بالواقعية ما عناه بعض الفلاسفة الغربيين من «الماديين» أو «الوضعيين»، من إنكار كل ما وراء الحس، وما بعد الطبيعة، واعتبار «الواقع» هو الأشياء المحسة، والمادة المتحيزة، وما عدا ذلك ـ مما أثبته الوحي أو العقل أو الفطرة ـ لا يعد واقعاً موجوداً، فلا إله عندهم للكون، ولا روح للإنسان، وليس وراء هذا العالم المشهود غيب أو عالم غير منظور، ولا بعد هذه الحياة الدنيا حياة! لأن هذه كلها لا يثبتها الواقع المشاهد الملموس.

هذا المفهوم للواقعية لا نعنيه قطعاً، لمصادمته للوحي وللفطرة وللعقل. وكذلك لا نعني بالواقعية قبول الواقع على علاته، والخضوع له على ما فيه من قذارة وهبوط، دون محاولة للارتفاع به، وبذل الجهد في تنظيفه وترقيته.

كلا، إنما نعني بـ «الواقعية»: مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وتمهد لحياة أخرى بعد الموت، توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت.

ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفحة من روح الله في غلاف من الطين، ففيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي، ومن حيث هو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع، لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يفنى تماماً في المجتمع، ولهذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية.

ومن هنا لم ينس الإسلام - في توجيهاته الفكريـــة، وفي تعليماته الأخلاقية، وفي تشريعاته القانونية - واقع الكون وواقع الحياة، وواقع هذا الإنسان بكل ظروفه وملابساته. لأن الذي يشرع للإنسان، ويوجهه ويعلمه هو الذي خلق الكون، والحياة، وهو الذي خلق الإنسان، فهو أعلم بما يصلحه وما يفسده، وما يرقى به إلى درجة الملاك، وما يهبط به إلى حضيض البهائم: (ألا يعلم مَن خلَق وهو اللطيفُ الخبير؟)[1].

والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضاً للنزعة المثالية المعتدلة في الفلسفة والأخلاق. فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان وتطلعها إلى الترقي، وشوقها إلى المثل الأعلى.

فهي إذن واقعية مثالية، أو مثالية واقعية. فقد سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تفريط الواقعيين من البشر.

موقف المذاهب والفلسفات الأرضية:

وهذا بخلاف الفلسفات والمذاهب و «الأيديولوجيات» الأرضية الوضعية كلها. فقد وضعها بشر محدود القدرة والمعرفة، تنقصهم الإحاطة التامة بواقع الكون وواقع الحياة وواقع الإنسان، الإحاطة بحاجاته كلها، وبدوافعه كلها، وبطاقاته كلها، وبتطوراته كلها... الإنسان في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حال.

فهم حين يضعون منهجاً أو «نظام حياة» للإنسان، يضعونه متأثرين

(١) الملك: ١٤.

بالواقع للإنسان في بيئة معينة في عصر معين، غافلين عما كان عليه إنسان الأمس، وما يكون عليه إنسان الغد، بل ما عليه إنسان الحاضر في بيئته أو بيئات أخرى، لم يتح لهم الاطلاع عليها. فضلاً عن الغفلة عن واقع الكون الكبير الذي يعيشون فوق أرضه، وتحت سمائه، والذي يعرفون منه شيئاً ويجهلون أشياء، مما يبصرون وما لا يبصرون.

هذا إذا افترضنا فيهم النزاهة التامة والتجرد الكامل، والبعد عن كل تأثر بمؤثرات وراثية أو بيئية، وعدم الخضوع لأي ضغوط نفسية أو خارجية. وهيهات هيهات!

ومن ثم تأتي هذه الفلسفات، أو الأنظمة، أو المذاهب، أو الأيديولوجيات، قاصرة في نظرتها لواقع الإنسان والحياة وفي رعايتها له. ولهذا تجد فيها كثيراً من الأوهام والتخيلات التي لا يقوم عليها الواقع المشاهد.

خذ مثلاً الشيوعية. لقد بنت فلسفتها على أساس إقامة مساواة اقتصادية بين الناس جميعاً، بحيث لا يأخذ أحد في المجتمع الشيوعي أكثر من حاجته، وفقاً لمبدئها القائل: «من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته».

وقد استولى الشيوعيون على الحكم في روسيا منذ أكثر من نصف قرن (أكتوبر ١٩١٧)، ومع هذا لم يتحقق هذا الحلم، ولم يقتربوا منه، بل بالعكس ما يزيدهم الواقع ومرور الأيام عنه إلا بعداً، لأنهم بين حين وآخر، يعترفون بشيء من الملكية للأفراد في صورة من الصور.

ومن المقرر المعروف أن تباين «الدخول» في الاتحاد السوفييتي أمر لا ينكره السوفييت أنفسهم، فأين العمال والفلاحون وصغار الموظفين من الفنانين، والمهندسين، واعضاء الحزب، وأشباههم من المحظوظين المقربين؟!

ففكرة «المساواة الاقتصادية» ـ التي ضحى الشيوعيون من أجلها بالحريات الفردية ـ فكرة وهمية لا تستند إلى الواقع.. ولهذا خسر الناس الحرية، ولم يكسبوا المساواة!

وأبعد من ذلك عن الواقع ما نادى به الشيوعيون من زوال فكرة الدولة وما يتبعها من شرطة، وسجون ومحاكم وعقوبات .. الخ. وكل هذه أوهام لم تتحقق من قبل، ولن تتحقق من بعد، ما دام الإنسان هو الإنسان.

وإذا كان دعاة المذهب الجماعي «الشيوعي» قد غفلوا عن الواقع في فلسفتهم، وركضوا وراء الأوهام والتخيلات، فإن دعاة «المذهب الفردي» لم يسلموا مما سقط فيه إخوانهم - أو خصومهم - الجماعيون. ولهذا سَخِرَ بعض المفكرين الغربيين من الديمقراطية فقال: إنها نظام لا يتحقق إلا إذا حكم الآلهة!!

موقف الأديان الوضعية والمرحلية:

ومثل المذاهب والفلسفات الأرضية: الديانات الوضعية كالبوذية والكونفشوسية وغيرها، وكذلك الأديان السماوية التي شرعها الله لمرحلة محدودة وقوم معينين، وعلاجاً لأوضاع وتطرفات خاصة، ولم يردها رسالة عامة خالدة، لكل البشر، في كل الأزمان، وفي شتى البيئات، فجاءت تحمل طابع زمنها ومرحلتها. كما أن الله لم يتكفل بحفظها وبقائها، فامتدت إليها يد التغيير والتحريف اللفظي والمعنوي، اللفظي بحذف بعض كلمات الله ووضع كلمات البشر مكانها، أو تركها الى غير بدل، والمعنوي،بتفسير كلام الله على غير ما أراد بإنزاله... وكلاهما تحريف للكلم عن مواضعه.

والديانة المسيحية مثال بارز لما نقول، فقد جاءت علاجاً وقتياً لحالة خاصة تتمثل في تكالب اليهود على المادة، وبعدهم عن روح التدين الحق، وعن فضائل المتدينين المثلى، هذا إلى طغيان الرومان واستغراقهم في متاع الحياة الأدنى.

فعالجت الإغراق في الماديات بإغراق مقابل في الروحانيات، وحاولت أن ترفع الهابطين من وحل الواقع إلى التحليق في سماء المثالية، وكثيراً ما يكون علاج التطرف بتطرف عكسي، ولكن هذا في العلاج الوقتي المحدود، لا

العلاج الدائم والشامل. وهذا سر اشتمال المسيحية - وهي دين سماوي الأصل - على تعاليم مثالية لا تصلح للتطبيق على جماهير البشر في كل زمان ومكان، وعلى تعاليم أخرى لا توافق العقل ولا تلائم الفطرة، دلالة على أنها مما دخل عليه التحريف، وخالطته أوهام البشر، وأهواء البشر، وشطحات البشر.

ميزة الإسلام:

أما الإسلام فهو كلمات الله الباقية لكافة الخلق، وهو الهداية العامة الخالدة للأحمر والأسود، ورحمة الله الشاملة للعالمين، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولهذا ضمنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أين كانوا، ومتى كانوا، وكيف كانوا.

ولا غرو، ان راعى الإسلام الواقع في كل ما دعا إليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات.

واقعية العقيدة الإسلامية:

جاء الإسلام بعقيدة واقعية، لأنها تصف حقائق قائمة في الوجود، لا أوهاماً متخيلة في العقول. حقائق يقبلها العقل، وتستريح إليها النفس، وتستجيب لها الفطرة السليمة.

فالعقيدة الإسلامية تدعو إلى الإيمان بإله واحد، دل على نفسه بآياته التكوينية، في الأنفس والآفاق، وآياته التنزيلية، مما أوحى به إلى رسله. فهو ليس كإله الأساطير الذي تتحدث عنه أقاصيص اليونان، وحكايات الرومان، وغيرهم من الشعوب.

وقد وصف القرآن هذا الإله الواحد بأوصاف، ونعته بأسماء، وهي أسماء وصفات تقنع عقول الفلاسفة كما ترضي عواطف العامة معاً. تجمع بين الجلال والجمال، والقوة والرحمة، وهي أيضاً أسماء وصفات متسقة مع عمله سبحانه في الكون، وصلته بالخلق، فهو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام،

المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارىء المصور، العليم الحكيم، البر الكريم، العفو الغفور، الحليم الشكور، الرزاق الوهاب، الرؤوف التواب، ذو الجلال والإكرام.

وهي تدعو إلى الإيمان برسول بعثه الله، ليختم به النبوات، ويتمم به مكارم الأخلاق، رسول هو بشر مثلنا، لا يتميز عن الناس إلا بالوحي: (قل إنَّما أنا بشر مِثلُكم يُوحَىٰ إلي....)[1] ليس إلها ولا ابن إله ولا ملكاً. إنما هو إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، عاش ومات، كما يعيش الناس ويموتون، باع واشترى وصادق وعادى، وسالم وحارب، وتزوج وأنجب.. كان يرضى ويسخط، ويفرح ويحزن، ويحب ويكره. دل على صدقه سيرته الزاكية، ودعوته الهادية، وتأييد الله إياه، ونصره على أعدائه، وأثره في أصحابه، وفي العالم من حوله، وكتابه الذي تحدى به المعارضين فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وأعلن أنه محفوظ من الله، فلم يزل محفوظاً إلى اليوم، لم يبدل فيه كلمة ولا حرف.

هذا الكتاب الإلهي هو القرآن المكتوب في المصاحف، المتلو بالألسنة المحفوظ في الصدور، الذي يُخاطب في الناس عقولهم وقلوبهم معاً، ويستثير فيهم عوامل الرغبة والرهب جميعاً، فهو بشير ونذير، يقرن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب ويشوق إلى الجنة ويخوف من النار، فقد علم منزله تعالى، أن الإنسان لا يحركه إلى الخير، ولا يبعده عن الشر، إلا شوق يحفزه ويدفعه، أو خشية تحجزه وتمنعه، وليس كالشوق إلى مثوبة الله حافز، ولا كالخوف من عذابه حاجز.

وتدعو إلى الإيمان بحياة أخرى بعد هذه الحياة، يجزى فيها كل مكلف بما عمل من خير أو شر، ثواباً وعقاباً، نعيماً وجحيماً، جنة وناراً.

وفي إيمان هذه العقيدة بالخلود ما يغذي رغبة الإنسان في طول البقاء، وما يطابق شعوره بخلود النفس، الذي تكاد تتفق عليه كل الأديان والفلسفات في

(١) الكهف: ١١٠.

الشرق والغرب من المصريين، إلى الهنود، إلى اليونان، إلى غيرهم من الأمم والشعوب.

وفي الإيمان بالجزاء الإلهي العادل على الخير والشر في الدنيا، ثواباً وعقاباً في الآخِرة، ما يغذي الإحساس الفطري الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذي أفلت من يد العدالة الدنيوية، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا إليه ولم يجز إلا بالتنكر والاضطهاد... وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار، والمصلحين والمفسدين: (أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟! ساء ما يحكمون. وخَلَق اللهُ السمواتِ والأرضَ بالحق ولتُجزى كلُّ نفس بما كَسَبت وهم لا يُظلَمون)[1].

وفي الإيمان بالجنة والنار، وما فيهما من نعيم وعذاب، حسي ومعنوي، مطابقة لواقع الإنسان، من حيث هو جسم وروح، لكل منهما مطالبه وحاجاته، ومن حيث إن في الناس من لا يكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم. كما أن منهم من لا يقنعه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح. لهذا كان في الجنة الطعام والشراب والحور العين، ورضوان من الله أكبر، وكان في النار سلاسل وأغلال، وزقوم وغسلين، وطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع. ولهم فوق ذلك من الخزي والهوان ما هو أشد وأنكى.

واقعية العبادات الإسلامية:

وجاء الإسلام بعبادات واقعية، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحي في الإنسان إلى الاتصال بالله، ففرض عليه من العبادات ما يروي ظمأه، ويشبع نهمه، ويملأ فراغ نفسه، ولكنه راعى الطاقة المحدودة للإنسان، فلم يكلفه ما يعنته

(١) الجاثية: ٢١، ٢٢.

ويحرجه: (وما جَعَل عليكُم في الدين من حَرَج)[1].

(أ) لقد راعى واقع الحياة وظروفها الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، وما تفرضه على الإنسان من طلب المعيشة، والسعي في مناكب الأرض الذلول، فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة، كالرهبان في الأديار، بل لم يسمح له بهذا الانقطاع لو أراد، وإنما كلف المسلم عبادات محدودة، تصله بربه، ولا تقطعه عن مجتمعه، يعمر بها آخرته، ولا تخرب من ورائها دنياه، لم يرد منهم أن تكون حياتهم كلها تحليقاً عالياً في أجواء الروحانية الخالصة، بل قال الرسول لبعض أصحابه: «ساعة وساعة»[2].

(ب) وعَرِف الإسلام طبيعة الملل في الإنسان، فنوعها ولونها، بين عبادات بدنية، كالصلاة والصيام، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات، وثالثة جامعة بينهما كالحج والعمرة، وجعل بعضها يومياً كالصلاة، وبعضها سنوياً أو موسمياً كالصيام والزكاة، وبعضها مرة في العمر كالحج. ثم فتح الباب لمن أراد مزيداً من الخير والقرب من الله، فشرع التطوع بنوافل العبادات: (فمن تطوع خيراً فهو خير له)[3].

(جـ) وراعى الإسلام الظروف الطارئة للإنسان كالسفر والمرض ونحوهما. فشرع الرخص والتخفيفات التي يحبها الله، وذلك مثل صلاة المريض قاعداً أو مضطجعاً على جنب، حسب استطاعته، وتيمم الجريح إذا كان استعمال الماء للغسل أو الوضوء يضره، وفطر المريض في رمضان، مع وجوب القضاء، وفطر الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما. وفطر الشيخ الكبير، والمرأة العجوز مع الفدية: إطعام مسكين عن كل يوم.

ومثل ذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر. والجمع بين صلاتي الظهر والعصر أو بين المغرب والعشاء تقديماً أو تأخيراً، وشرعية الفطر للمسافر في

(١) الحج: ٧٨.
(٢) رواه مسلم.
(٢) البقرة: ١٨٤.

الصيام، وهذه الرخص كلها رعاية لواقع الناس وتقدير لظروفهم المتغيرة، وتيسير من الله عليهم، كما قال في آية الصوم: (يُريد اللهُ بِكُم اليُسرَ ولا يُرِيدُ بكم العسر)[1].

واقعية الأخلاق الإسلامية:

وجاء الإسلام بأخلاق واقعية، راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس فاعترفت بالضعف البشري، وبالدوافع البشرية، وبالحاجات البشرية المادية والنفسية.

(أ) لم يوجب الإسلام على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته، كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتباعه: بع مالك واتبعني! ولا قال القرآن ما قال الإنجيل: «إن الغني لا يدخل ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في سم الخياط!».

بل راعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، فاعتبره قواماً للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وامتن القرآن بنعمة الغنى والمال في غير موضع، وقال الله لرسوله: (ووجَدَك عائلاً فأغنى)[2] وقال الرسول: «ما نفعني مال كمال أبي بكر»[3] وقال لعمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[4].

(ب) ولم يجيء في القرآن ولا السنة ما جاء في الإنجيل من قول المسيح: «[illegible] أعداءكم.. باركوا لاعنيكم.. من ضربك على خدك الأيمن [illegible] الأيسر.. ومن سرق قميصك فأعطه إزارك».

[illegible] هذا في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، ولكنه لا [illegible] الناس في كل عصر، وفي كل بيئة،

---

(١) [illegible] ١٨٥.

(٢) [illegible]

(٣) رواه أحمد عن أبي هريرة، وإسناده صحيح كما في التيسير للمناوى.

(٤) رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير بإسناد صحيح.

وفي كل حال، فإن مطالبة الإنسان العادي بمحبة عدوه ومباركة لاعنه، قد يكون شيئا فوق ما يحتمله. ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه: (ولا يَجْـرمنَّكُم شنآن قوم على ألا تعدِلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى)[1].

كما أن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على كثير من الناس أن يفعلوه، وربما جرأ الفجرة الأشرار على الصالحين الاخيار. وقد يتعين في بعض الأحوال، ومع بعض الناس، أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغياً وطغياناً. وقديماً قال شاعر عربي:

لئن كنتُ مُحتاجاً إلى الحلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ
ولي فرس للحلم بالحلم ملجَمُ ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرَجُ
فمن رام تقويمي فإني مقوم ... ومن رام تعويجي فإني معوج
وما كنت أرضى الجهل خدناً وصاحباً ... ولكنني أرضى به حين أحرج

ولهذا تجلت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان، فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للمسيء، على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها، لا فريضة يلزم بها. وهذا واضح في مثل قوله تعالى: (وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها، فمن عفا وأصلح فأجرُه على الله، إنه لا يُحب الظالمين)[2]. (وإن عاقبتُم فعاقِبُوا بمثل ما عُوقِبتُم به، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين)[3].

(جـ) ومن واقعية الأخلاق الإسلامية: أنها أقرت التفاوت الفطري والعملي

---

(١) المائدة: ٨.
(٢) الشورى: ٤٠.
(٣) النحل: ١٢٦.

بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواه، والتقيد بالمثل العليا.

فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها.

وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم.

فالظالم لنفسه هو: المقصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات، وعلى ترك المحرمات، وإن فعل المكروهات.

والسابق هو: الذي يزيد على فعل الواجبات، أداء السنن والمستحبات، وعلى ترك المحرمات ترك الشبهات والمكروهات. بل ربما ترك بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره.

وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى في سورة فاطر: (ثم أورثنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا، فَمنهُم ظالِم لنفسه، ومنهم مُقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضلُ الكبير)[1] فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة ـ على تفاوت مراتبهم ـ من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب.

(د) ومما يكمل هذا المعنى: أن الأخلاق الإسلامية لم تفترض في أهل التقوى أن يكونوا براء من كل عيب، معصومين من كل ذنب، كأنما هم ملائكة أولو أجنحة، بل قدرت أن الإنسان مكون من طين وروح، فإذا كانت الروح تعلو به تارة، فإن الطين يهبط به طوراً. ومزية المتقين

---

(١) فاطر: ٣٢.

إنما هي في التوبة والرجوع إلى الله، كما وصفهم الله بقوله: (والذين إذا فَعلُوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لِذنوبِهم ومن يغفِرُ الذنوب إلا الله ولـــم يُصرُّوا على ما فعلوا وهُم يعلمون)[1].

(هـ) ومن واقعيـة الأخلاق الإسلاميـة: أنها راعـت الظـروف الاستثنـائيـة كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يباح في ظروف السلم، كهدم المباني أو تحريق الأشجار ونحوها، ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة الجيش الإسلامي وعدده وعتاده وخططه، فإن الحرب ـ كما جاء في الحديث ـ خدعة.

واقعية التربية الإسلامية:

والتربية الإسلامية كذلك تربية واقعية تتعامل مع الإنسان كما هو: لحماً ودماً، وفكراً وشعوراً، وانفعالاً ونزوعاً، وروحاً وتحليقاً.

ولما رأى بعض الصحابة ـ واسمه حنظلة ـ، أنه يكون مع أسرته وأهله في حال تغاير الحال التي يكون عليها مع النبي ﷺ، من حيث الصفاء والشفافية والشعور بخشية الله تعالى ومراقبته. فرأى هذا لوناً من النفاق، وخرج يعدو في الطريق وهو يقول عن نفسه: نافق حنظلة، حتى انتهى إلى الرسول ﷺ، وشرح له ما يحس به من تباين حاله عنده عن حاله في البيت، فأجابه الرسول بقوله: إنكم لو بقيتم على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكـم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة»[2] ومن هنا جاء المثل العامي الذي يقول: ساعة لقلبك، وساعة لربك.

وعلى هذه الحياة الواقعية المتوازنة يربي الإسلام المسلم، فلا يدعه يغرق في اللهو إلى رأسه، فلا يبقى له شيء لربه، كما لا يدعه يغلو في التعبد فلا يبقى له شيء لقلبه.

---

(١) آل عمران: ١٣٥.

(٢) رواه مسلم.

ومع أن الإسلام لا يقر بأن أحداً يولد ملوثاً بالخطيئة، نراه يعترف بأثر البيئة، وخطرها، وبخاصة البيئة الأسرية، حتى إنها لتشكل عقيدة الطفل واتجاهه الديني الأولى. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١).

ولهذا حمل الإسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم وحسن تربيتهم. كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسَكُم وأهلِيكُم ناراً وقودُها الناس والحجارة﴾(٢).

وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل في أهل بيته راع وهو مسؤول عن رعيته»(٣).

ويهتم الإسلام بسن الطفولة، لأنها أكثر قابلية للتعلم والتأثر والمحاكاة، وهنا يأمر الآباء والمربين بتدريب الأطفال على الطاعات، وأداء الفرائض وفعل الخيرات، متى بلغوا سن التمييز، وقد حددها الحديث النبوي بالسابعة، كما أمر بأخذهم بالحزم والشدة إذا قاربوا المراهقة، وذلك إذا أتموا العاشرة، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «مروهم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر».

والضرب هنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما المراد به إشعار الولد بأهمية ما يؤمر به، وجدية الأب في أمره به، وحرصه على تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه. فإن بعض الآباء يأمر الطفل من طرف لسانه، بحيث لا يشعر الطفل منه أنه حريص على الامتثال. فلهذا جاء الأمر بالضرب للإشعار بأن الأمر جد لا هزل، وفعل لا قول.

والضرب المطلوب: أن يؤلم ويوجع، ولكنه لا يشوه ولا يجرح، ولا يؤذي إيذاء شديداً. والإسلام يقرر هذا للضرورة أو للحاجة، ولا يحلق مع

---

(١) رواه البخاري.
(٢) التحريم: ٦.
(٣) متفق عليه.

المحلقين في عالم الخيال، الذين ينادون بإلغاء الضرب نهائياً من دنيا التربية، في البيت، أو في المدرسة. هذه مثالية لا تصلح لكل البيئات، ولا لكل الأفراد، ولا لكل الأحوال.

وخير الآباء والمربين من لا يحتاج إلى الضرب. كما جاء في الحديث في مخاطبة الأزواج: «ولن يضرب خياركم». وقد صح أن النبي - ﷺ - ما ضرب بيده شيئاً قط، لا صبياً، ولا امرأة، ولا جارية، ولا عبداً، ولا دابة. وهذا أفق رفيع، لا يتسامى إليه كل الناس.

واقعية الشريعة الإسلامية:

وجاء الإسلام كذلك بشريعة واقعية، لم تغفل الواقع في كل ما أحلت وحرمت. ولم تهمل هذا الواقع في كل ما وضعت من أنظمة وقوانين للفرد، وللأسرة، وللمجتمع، وللدولة، وللإنسانية.

في التحليل والتحريم:

فمن مظاهر هذه الواقعية في مجال الحلال والحرام، وهو ما يتعلق غالباً بشؤون الفرد، رجلاً أو امرأة:

١ - أن شريعة الإسلام لم تحرم شيئاً يحتاج إليه الإنسان في واقع حياته، كما لم تبح له شيئاً يضره في الواقع.

ومن ثم أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات، معلناً إباحتها لبني الإنسان جميعاً بشرط القصد، والاعتدال، وعدم الإسراف في استعمالها: (يا بَني آدم خُذوا زِينَتَكُم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تُسرِفُوا إنه لا يُحبُّ المسرفين. قُل من حرم زينَةَ اللهِ التي أحرج لعباده والطيبات من الرزق؟)[1].

٢ - وراعت الشريعة فطرة البشر في الميل إلى اللهو والترويح عن النفس، فرخصت في أنواع من اللهو كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها، إذا لم

(١) الأعراف: ٣١، ٣٢.

تقترن بقمار ولا بحرام، ولا تصد عن ذكر الله وعن الصلاة. وخصوصاً في المناسبات السارة، كالأعراس والأعياد. وقد غنت جاريتان عند عائشة في بيت النبي ﷺ، فانتهرهما أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[1] وقال يومئذ: «لتعلم اليهود أن في ديننا فسحة.. وأني بعثت بحنيفية سمحة!»[2] وأذن للحبشة أن يلعبوا في مسجده بالحراب، وسمح لزوجه عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت.

وقد راعت الشريعة فطرة المرأة وواقعها في حب الزينة، وعمق الرغبة في التجمل، فأباحت لها بعض ما حرمت على الرجال كالتحلي بالذهب ولبس الحرير.

٣ ـ ومن واقعية الشريعة: أنها قدرت الضرورات ـ التي تعرض للإنسان وتضغط عليه ـ حق قدرها، فرخصت في تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة. وقرر فقهاء الشريعة: أن الضرورات تبيح المحظورات، استناداً إلى ما جاء في القرآن عند ذكر الأطعمة المحرمة من مثل قوله تعالى: (إنما حرم عليكُم الميتة والدمَ ولحمَ الخنزير وما أهِل به لغير الله، فمن اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم)[3].

٤ ـ ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات، فسدت الباب إليها بالكلية، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها، كما في الخمر، لأن القليل يجر إلى الكثير، كما أنها عدت ما يوصل إلى الحرام حراماً، سداً للذريعة، وإقراراً بواقع الكثير من البشر، الذين لا يملكون أنفسهم إذا فتح لهم طريق إلى الحرام. ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية، إغلاقاً لباب قد تهب منه رياح الشر، فلا يستطاع صدها. ومثل ذلك النظر بشهوة إلى الجنس الآخر. فإن العين

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه أحمد في مسنده.

(٣) البقرة ١٧٣.

رسول القلب، والنظرة المتشهية بريد الفتنة، وقديماً قال الشاعر:

كلُّ الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مُسْتَصْغَر الشرر

وحديثاً قال شوقي:

نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء!

في تشريعات الزواج والأسرة:

٥ ـ ومن واقعية الشريعة الإسلامية: أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان فلم تطرحها دبر الأذن، ولم تنظر إليها باستخفاف، ولا باستقذار، كما فعلت بعض الملل والنحل، ولم ترض للإنسان أن يقاد من غرائزه وحدها، كما فعلت بعض الفلسفات... فشرعت إشباع الدافع الجنسي بطريقة نظيفة، تضمن بقاء الإنسان، وكرامة الإنسان، وارتفاع الإنسان عن الحيوان، وذلك بشرعية «نظام الزواج» وقد أشار القرآن إلى ذلك بعد ما ذكر ما حرم الله من النساء، وما أحله وراء ذلك بشرطه، ثم قال: (يُريدُ الله ليُبَيِّنَ لكُم ويهدِيَكُم سُنَنَ الذين من قَبلِكُم ويتوبَ عليكم، والله عليم حكيم. والله يُريد أن يتوب عليكُم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً. يُريد الله أن يخفِّفَ عنكم، وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً)[١].

فالمفهوم من وصف الإنسان بالضعف في هذا المقام: ضعفه أمام الغريزة الجنسية.

تعدد الزوجات:

٦ ـ وانطلاقاً من هذه النظرة الواقعية للحياة والإنسان، كانت إباحة تعدد الزوجات كما شرعه الإسلام.

(١) النساء: ٢٦-٢٨.

فمادام في الزوجات من يعتريها المرض ويطول، ومن تمتد بها الدورة الشهرية إلى ثلث الشهر أو أكثر، ومن ترغب عن الرجل، ولا تقبل عليه إلا بصعوبة، ومادام كل الرجال لا يستطيعون التحكم في غرائزهم، فلماذا لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال في العلانية والنور، بدل البحث عن الحرام في الخفاء والظلام؟!

وإذا كان من النساء من ابتليت بالعقم، وفي الرجال من يكون قوي الرغبة في الإنجاب، فلماذا لا نتيح له تحقيق رغبته في الولد بالزواج من امرأة أخرى ولود، بدل كسر قلب الأولى بالطلاق، أو تحطيم رغبة الرجل بتحريم الزواج الثاني عليه.

وإذا كان عدد الصالحات للزواج من النساء أكثر من عدد القادرين عليه من الرجال، بصفة عامة، وبعد الحروب بصفة خاصة، فليس أمام العدد الزائد إلا واحد من ثلاثة احتمالات:

(١) أن تقضي الفتاة عمرها في بيت أهلها عانساً، محرومة من حقها في إشباع عاطفة الزوجية وعاطفة الأمومة، وهي عواطف فطرية غرسها الله في كيانها، لا تملك لها دفعاً.

(٢) أو البحث عن متنفس غير مشروع من وراء ظهر الأسرة والمجتمع والأخلاق.

(٣) أو الزواج من رجل متزوج، قادر على إحصانها، واقف من العدل بينها وبين ضرتها.

أما الاحتمال الأول: ففيه ظلم كبير لعدد من النساء، بغير جرم اقترفنه، فإنهن لم يجئن إلى الحياة برضاهن.

والاحتمال الثاني: جرم في حق المرأة، وفي حق المجتمع، وفي حق الأخلاق، وهو ـ للأسف ـ ما سار عليه الغرب، فقد حرم تعدد الزوجات، وأباح تعدد الصديقات والعشيقات، أي: أن الواقع فرض

عليهم التعدد. ولكنه تعدد لا أخلاقي ولا إنساني، لأن الرجل يقضي من ورائه وطره وشهوته، دون أن يلتزم بأي واجب، أو يتحمل أية تبعة، تأتي نتيجة لهذا التعدد.

أما الاحتمال الثالث: فهو وحده الحل العادل، والنظيف، والإنساني والأخلاقي، وهو الذي جاء به الإسلام.

الطلاق:

٧ ـ ومن واقعية الشريعة: إباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين. هذا مع تعظيم الإسلام لشأن العلاقة الزوجية واعتبار هذا الرباط: «ميثاقاً غليظاً»[١] وهو نفس التعبير الذي استخدم في شأن النبوة. واعتبار الأصل في الطلاق هو الخطر والتحريم، كما تدل على ذلك الدلائل من القرآن والسنة، قال تعالى في شأن النساء الناشزات: (فإن أطعنكم فلا تَبْغوا عليهِن سبيلاً، إن الله كان علياً كبيرا)[٢] واعتبر القرآن التفريق بين المرء وزوجه من أعمال السحرة الكفرة[٣]. وجاء في الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[٤].

ومع هذا، أثبت الواقع أن من الزواج ما لا يصحبه التوفيق، وقد أمر الإسلام الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة لعاطفة الكراهية إن أحسوا بها: (وعَاشِرُوهنَّ بالمعروف، فإن كَرِهتُموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعلُ الله فيه خيراً كثيراً)[٥] كما أمر الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز بكل الوسائل، حتى تعود إلى الموافقة والطاعة، وأمر المجتمع أن يتدخل للتحكيم والاصلاح عن طريق (مجلس عائلي) كما قال تعالى: (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا

---

(١) في قوله تعالى في سورة النساء: ٢١ (واخذن مِنكُم ميثاقاً غليظاً). كما قال عن الأنبياء في سورة الأحزاب ٧: (وأخذن منهم ميثاقاً غليظاً).

(٢) في قوله تعالى: (فيتعلمون منهما ما يُفرقون به بين المرء وزوجه) (البقرة: ١٠٢).

(٣) رواه أبو داوود.

(٤) النساء: ٣٤.

(٥) النساء: ١٩.

إصلاحاً يُوفّق الله بينهما)[1].

ومع هذا قد تستحكم النفرة، ويتفاقم النزاع، وتخفق كل وسائل الإصلاح والتحكيم والتوفيق. فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته، وآخر الدواء الكي. وما أصدق ما قيل: (إن لم يكن وفاق ففراق)، وإلا كان الأمر كما قال الحكيم: (إن من أعظم البلايا مصاحبة من لا يوافقك ولا يفارقك) وكما قال المتنبي:

ومن نَكدِ الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد!

واقعية الشريعة:

ولقد أرغم الواقع المسيحية المعاصرة على الاعتراف بحق الطلاق، برغم التحريم الغليظ في الإنجيل، وبرغم الحملات المسعورة التي طالما شنتها قوى التبشير دهراً طويلاً على الإسلام، الذي أباح الطلاق، فإذا هم يضطرون اضطراراً لإباحته، إلى حد التوسع والإسراف المرذول، وإذا آخر القلاع المسيحية المتشددة في هذا الجانب تسقط أخيراً، وتعلن إباحة الطلاق وذلك في روما الكاثوليكية، التي لا يجيز مذهبها الديني الطلاق لعلة ما، ولو كانت الخيانة الزوجية السافرة: الزنى.

وانتصرت شريعة الخالق على أوهام الخلق.

في التشريعات الاجتماعية إباحة التملك الفردي:

٨ ـ ومن واقعية الشريعة في المجال الاجتماعي والاقتصادي: أنها اعترفت بالدافع الفطري الواقعي الأصيل في نفس الإنسان: واقع حب التملك، فأقرت مبدأ الملكية الفردية، وما يترتب عليه من حق التصرف في الملك، وحق الإرث له. ولكنها لم تنس واقعاً آخر، هو مصلحة المجتمع وحقوقه، وحاجات الفئات الضعيفة من أبنائه. فلهذا قيدت هذه الملكية بقيود شتى: في اكتساب المال، وفي تنميته، وفي الاستمتاع

---

(١) النساء: ٣٥.

به، وفي التصرف فيه، وأوجبت فيه حقوقاً لله للناس، الزكاة أولها، وليست هي آخرها، كما يتوهم كثيرون.

لقد أثبتت التجارب، وشهد الواقع الملموس: أن الحافز الفردي، له دوره الفعال في ترقية الحياة، وتطوير الوسائل وتحسين الإنتاج، وتنمية القدرة على الابتكار والإبداع، وصقل المواهب، حتى اضطر الماركسيون في روسيا وفي غيرها - تحت وطأة الواقع المجرب - أن يتنازلوا عن أجزاء من نظرياتهم الجامدة، ويتراجعوا عنها مقهورين. فيسمحوا ببعض التملك، وبشيء من حوافز الربح. وانتصرت فطرة الله ايضاً على أوهام الناس.

شرعية الحدود والقصاص والتعزير:

٩ - ومن واقعية الشريعة: أنها عملت بكل قوة على تطهير المجتمع من أسباب الجريمة، وتربية الأفراد على حياة الاستقامة، ولكنها مع هذا لم تكتف بالوازع الأخلاقي، وإن حرصت عليه كل الحرص، ولم تقتصر على التربية وحدها، وإن كانت تراها فريضة وضرورة دينية واجتماعية، ولكن في الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة، ولا تكفيه الموعظة الحسنة، ولا التوجيه الرشيد، ولهذا كان لا بد من سوط السلطان، بجوار صوت القرآن. حتى جاء عن عثمان رضي الله عنه: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن!

ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعازير، ولم تذهب إلى ما يذهب إليه الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقاً على القاتل المسكين!! دون أن ينظروا إلى مصيبة المقتول وأهله، وما جر عليهم من ويلات وأحزان، ثم إلى أمن المجتمع كله من ناحية أخرى!! أو الذين يعطلون (حد السرقة) بزعم الرحمة بالمجرم (السارق) الذي لم يرحم نفسه ولا غيره، حيث انتهك الحرمات، وسطا على الأموال، وهدد

أمن الجماعة، ولم يبال ـ في سبيل تحقيق مآربه، والحرص على الافلات من قبضة العدالة ـ أن يسفك دم البرآء وأن يقتل النساء والأطفال!

يقول تعالى في شأن القصاص: (ولكُم في القصاص حياة يا أُولي الألباب لعلكم تتقون)[1]. وفي شأن السرقة: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله، والله عزيز حكيم)[2].

من دلائل الواقعية في التشريع:

ومن دلائل الواقعية في الشريعة الإسلامية جملة أمور عامة، نلمحها في أصولها وقواعدها واتجاهاتها الأساسية. من هذه القواعد أو المبادىء:

١ ـ التيسير ورفع الحرج.

٢ ـ مراعاة سنة التدرج.

٣ ـ النزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى للضرورة.

التيسير ورفع الحرج:

أما التيسير، فهو روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية. وهذا التيسير مبني على رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه، وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه. وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمال. في المعاش والمعاد.

كما أن هذا الدين لم يجيء لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عاماً لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال، وإن نظاماً يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لا بد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف، ليتسع لكل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال.

---

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) المائدة: ٣٨.

وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين.

فالقرآن ميسر للذكر، والعقيدة ميسرة للفهم، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق. ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال: (لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وسعها)(١)، (لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلا وسعها)(٢) (لا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا ما آتاها)(٣) كما علم المؤمنين أن يدعوا ربهم فيقولون: (ربنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به)(٤) وقد ورد في الصحيح: «ان الله استجاب لهم».

وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة، كما نفى عنها العنت والعسر، وأثبت لها التخفيف واليسر. قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام، من الفطر للمريض والمسافر: (يُرِيد الله بِكُم اليُسر ولا يريد بكُم العُسر)(٥).

وقال سبحانه في ختام آية الطهارة بعد أن رخص في التيمم لمن لم يجد الماء: (ما يُريد الله ليجعَل عليكُم من حرج، ولكن يُريد لِيُطَهِّرَكُم وليُتِمَّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تشكرون)(٦).

وقال تعالى في أواخر سورة الحج: (هو اجتباكُم وما جعَل عليكُم في الدين من حرج)(٧).

وفي سورة النساء بعد إباحة الزواج بالإماء لمن عجز عن الحرائر: (يُريدُ الله أن يُخفِّف عنكُم)(٨).

وفي سورة البقرة بعد أن شرع العفو في القتل لمن طابت به نفسه: (ذلك

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) البقرة: ٢٣٣.
(٣) الطلاق: ٧.
(٤) البقرة: ٢٨٦.
(٥) البقرة: ١٨٥.
(٦) المائدة: ٦.
(٧) الحج: ٧٨.
(٨) النساء: ٢٨.

تخفيف من ربِّكُم ورحمة)[1].

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآني إلى التيسير نقرأ فيها:

«بعثت بحنيفية سمحة»[2]

«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا» قاله لأبي موسى ومعاذ حين أرسلهما إلى اليمن.

وقد كانت سمة الرسول المميزة له في كتب أهل الكتاب هي سمة الميسِّر، ورافع الآصار، والأغلال التي أرهقت أهل الأديان السابقة، كما قال تعالى: (يجدونَه مكتوباً عندَهُم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهُم عن المنكر، ويُحِلّ لهم الطيبات ويُحرِّمُ عليهم الخبائث، ويضعُ عنهم إصرَهُم والأغلال التي كانت عليهم)[3].

ومن أدعية القرآن التي علمها للمؤمنين: (ربنا ولا تَحْمِل علينا إصراً كما حملتَهُ على الذين من قبلنا)[4].

ولا غرو أن شرع الإسلام الرخص عند وجود أسبابها. وذلك كالترخيص في التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد، ونحو ذلك، لقوله تعالى: (ولا تقتلوا أنفُسكم إن الله كان بِكُم رحيماً)[5]، (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة)[6].

وكذلك الترخيص في الصلاة قاعداً لمن تضرر بالصلاة قائماً، والصلاة بالإيماء مضطجعاً، مستلقياً لمن تؤذيه الصلاة قاعداً.

ومثل ذلك الترخيص في الإفطار للحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما

---

(١) البقرة: ١٧٨.
(٢) رواه أحمد.
(٣) الأعراف: ١٥٧.
(٤) البقرة: ٢٨٦.
(٥) النساء: ٢٩.
(٦) البقرة: ١٩٥.

أو ولديها. وكذلك لمن كان مريضاً أو على سفر. ومثله الترخيص للمسافر في القصر والجمع في الصلاة.

وجاء في الحديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يكره أن تؤتى معصيته»[1].

وأنكر النبي ﷺ، على من شدد على نفسه، وصام في السفر، مع شعوره بشدة المشقة، وحاجته إلى الفطر، فقال في مثله: «ليس من البر الصيام في السفر»[2].

ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية المقررة لدى المذاهب الإسلامية كافة، هذه القاعدة الجليلة: «المشقة تجلب التيسير». وهي أصل له فروع كثيرة وفيرة في شتى أبواب الفقه. وقد ذكر العلامة ابن نجيم الحنفي، تفريعاً على هذه القاعدة، أو تأكيداً لها، لا يتسع المجال هنا لإثباتها، فليرجع من شاء التوسع والتفصيل[3].

وهناك أشياء عديدة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف، منها: المرض، والسفر، والإكراه، والخطأ والنسيان، وعموم البلوى، ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة.

مراعاة سنة التدرج:

ومن تيسير الإسلام على البشر: أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم، إيجاباً أو تحريماً.

فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة.

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع. أعني الظهر والعصر والعشاء.

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه البخاري.
(٣) راجع: الأشباه والنظائر ص ٣٧ وما بعدها.

والصيام فرض أولا على التخيير، من شاء صام ومن شاء أفطر وفدى، أي: أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره،كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع، تفسيراً لقوله تعالى: (وعلى الذين يُطِيقُونَهُ فدية طعام مسكين، فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون)[1]، ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له: (فمن شَهِدَ مِنكُم الشهر فليصممه)[2].

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير وحول، بل تركت لضمائر المؤمنين، وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة الفردية والاجتماعية.

فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم. إنما الحكمة إعدادهم نفسياً وذهنياً لتقبلها. وأخذهم بقانون التدرج في تحريمها. حتى إذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعاً إلى تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا.

ولعل أوضح مثل معروف في ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي. حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: (فهل أنتم منتهون؟)[3] قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب.

ولعل رعاية الإسلام للتدرج، هي التي جعلته يُبقي على نظام «الرق»، الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام. وكان إلغاؤه يؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها ما وجد إلى ذلك سبيل، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد،

---

(١) البقرة: ١٨٤.
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) المائدة: ٩١.

فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج.

وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة.

فإذا أردنا أن نقيم (مجتمعاً إسلامياً حقيقياً) فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أعني بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية، والأخلاقية والاجتماعية.

وهو نفس المنهاج الذي سلكه النبي ﷺ، لتغيير الحياةالجاهلية إلى حياة إسلامية. فقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة، كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق.

ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع وتقنين، بل مرحلة تربية وتكوين.

وكان القرآن نفسه فيها يعني - قبل كل شيء -، بتصحيح العقيدة وتثبيتها، ومد أشعتها في النفس والحياة، أخلاقاً وأعمالاً صالحة، قبل أن يعني بالتشريعات والتفصيلات.

النزول عن المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى:

ومن دلائل الواقعية في الشريعة: أنها - مع حرصها البالغ على الوصول إلى المثل الأعلى، والوجه الأكمل في تطبيق أحكامها - لا تغمض عينيها عن الواقع العملي الذي يعيشه الناس، محلقة في مثالية لا وجود لها. بل نجدها تنزل إلى أرض الواقع لتكيف أحكامها الفرعية تبعاً له، حتى لا تهدر مصالح العباد، وتعطل مسيرة الحياة.

ولذلك أمثلة كثيرة:

منها: أن الواجب هو عزل ولي الأمر الفاجر الجائر، ولكن الفقهاء أجازوا الإبقاء عليه إذا كان خلعه وعزله سيؤدي إلى فتنة أكبر، ارتكاباً لأخف الضررين، وتفويتاً لأدنى المصلحتين. ولهذا كان من قواعدهم التي أصلوها: الضرر يزال، ولكنهم قيدوها بقاعدة: الضرر لا يزال بالضرر، وقاعدة: الضرر الأدنى لا يزال بالضرر الأعلى.

ويدخل في هذا: تغيير المنكر بالقوة إذا أدى إلى منكر أكبر منه.

ومنها: أن الأصل في الشريعة أن تكون الإمامة، ـ أي: رئاسة الدولة ـ بالاختيار والبيعة، تطبيقاً لمبدأ الشورى. ومع هذا أجازت الشريعة إمامة المتغلب بالقوة، منعاً للفتنة، وسداً لباب الفوضى، وحتى لا تتعطل أمور الناس. وقد قيل: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

ومنها: أن الأصل في كل من الإمام والقاضي أن يكون فقيهاً مجتهداً قادراً بنفسه على استنباط الأحكام من أدلتها. ولكن لما غلب التقليد، وسادت المذهبية الضيقة، أجازوا تولية المقلد في منصبي الإمامة والقضاء.

ومن ذلك ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من صفات يجب أن تتوافر في كل من يلي منصباً أو ولاية في دولة الإسلام، حيث ذكر[1]: أن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: (إن خير من استأجرت القويّ الأمين)[2].

قال: والقوة في كل ولاية بحسبها. فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ـ فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال.

والقوة في الحكم ترجع إلى العمل بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

---

(١) في كتابه السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص: ١٤، ١٥.
(٢) القصص: ٢٦.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً، وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حاكم على الناس، في قوله تعالى: (فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْن، ولا تَشْتَروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومن لم يَحْكُم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[١].

هذا هو الوالي أو الموظف الذي تطمح إليه الشريعة الإسلامية، وتهدف إليه التربية الإسلامية، ولكن هل يتوافر القوي الأمين لكل منصب دائماً؟؟

هنا ينزل الإمام ابن تيمية إلى الواقع فيقول:

«اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة» فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً، كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزى؟ فقال: - أما الفاجر القوي، فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي - ﷺ -، «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، وروى «بأقوام لا أخلاق لهم». فإن لم يكن فاجراً، كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين، إذا لم يسد مسده»[٢].

ومما ذكره ابن تيمية هنا: أن بعض العلماء، سئل: إذا لم يوجد من يولى القضاء، إلا عالم فاسق، أو جاهل دَين[٣] فأيهما يقدم؟

---

(١) المائدة: ٤٤.
(٢) السياسة الشرعية ص: ١٦، ١٧.
(٣) بفتح الدال وتشديد الياء.

فأجاب العالم: إن كانت الحاجة إلى الدين أكثر لغلبة الفساد، قدم الدين، وإن كانت الحاجة إلى العلم أكثر، لخفاء الحكومات (القضايا المعروضة) قدم العالم.

قال: وأكثر العلماء يقدمون ذا الدين[1].

ومن الجميل هنا: أن نجد شيخ الإسلام يقرر هنا أمراً على غاية من الأهمية، وهو أن النزول عن المثالية المنشودة إلى حكم الواقع الموجود، ليس معناه الاستسلام للواقع الهابط والرضا به، والسكوت عليه، بل ينبغي أن تظل الأعين رانية والأعناق مشرئبة، والعزائم مشدودة لتحويل الواقع إلى ما هو أمثل وأفضل، فالوضع الطارىء للضرورة لا يجوز أن يأخذ صفة الاستمرار، وطابع الثبات والدوام، بل يجب التخطيط والإعداد المدروس للانتقال إلى الوضع الطبيعي والمنطقي للأمة المسلمة، ولو بطريق التدريج.

وفي هذا يقول الشيخ:

«ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه، من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسر السعي في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يطلب منه إلا ما يقدر عليه»[2].

وثمة أمور أخرى، وأمثلة عديدة، نلمس فيها واقعية الشريعة، من ذلك ما قرره المحقق ابن القيم في قوله:

«إذا لم يجد السلطان من يوليه، إلا قاضياً عارياً عن شروط القضاء لم يعطل البلد عن قاض، وولى الأمثل فالأمثل».

ونظير هذا: لو كان الفسق هو الغالب على أهل البلد، وإن لم نقبل شهادة بعضهم على بعض وشهادته له، لتعطلت الحقوق وضاعت، قبل شهادة الأمثل فالأمثل.

---

(١) المصدر نفسه ص: ٢٠.
(٢) صفحة: ٢١

ونظير هذا: لو غلب الحرام والشبه حتى لم يجد الحلال المحض، فإنه يتناول الأمثل فالأمثل.

ونظير هذا: لو شهد بعض النساء على بعض بحق في بدن، أو مال، أو عرض، وهن منفردات بحيث لا رجل معهن، كالحمامات والأعراس، قبل شهادة الأمثل فالأمثل منهن قطعاً، ولا يضيع الله ورسوله حق المظلوم ويعطل إقامة دينه في مثل هذه الصور أبداً، بل نبه الله على قبول شهادة الكفار على المسلمين في السفر في الوصية في آخر سورة نزلت، ولم ينسخها شيء البتة، ولا نسخ هذا الحكم كتاب ولا سنة، ولا اجتمعت الأمة على خلافه، ولا يليق بالشريعة سواه، فإن الشريعة شرعت لتحصيل مصالح العباد بحسب الأماكن.

وأي مصلحة لهم في تعطيل حقوقهم إذا لم يحضر أسباب تلك العقود شاهدان حران، ذكران، عدلان، بل إذا قلتم: تقبل شهادة النساء حيث لا رجل، وينفذ حكم الفاسق إذا خلا الزمان عن قاض عادل عالم، فكيف لا تقبل شهادة النساء إذا خلا جمعهن عن رجل، أو شهادة العبيد. إذا خلا جمعهم عن حر، أو شهادة الكفار بعضهم على بعض إذا خلا جمعهم عن مسلم؟[(١)].

هذا هو الإسلام، وهذه هي واقعيته في كل مجال من المجالات: لا يكلف الناس شططاً، ولا يرهقهم عسراً، ولا يجعل عليهم حرجاً، يحاول أن يرقى بهم ليصعدوا ويرتفعوا، ولكنه لا يهملهم إذا هبطوا. إنه يريدهم أصحاء أقوياء، ولكنهم إذا مرضوا عالجهم وساعدهم حتى يشفوا وينهضوا.

إنه منهج الفطرة، منهج الله، الذي يتعانق فيه الواقع والمثال.



---

(١) انظر: الفواكه العديدة في المسائل المفيدة في الفقه الحنبلي، تأليف: العلامة أحمد بن محمد المنقور. جـ ٢ ص ٨٢ - ٨٣.

الفصل السادس

الوضوح

الوضوح هو إحدى الخصائص العامة للإسلام، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد، أم بالمصادر والمنابع، أم بالأهداف والغايات، أم بالمناهج والوسائل.

وسنحاول بيان ذلك بإيجاز فيما يلي:

أولاً:ـ وضوح الأصول والقواعد الإسلامية:

أول مظاهر الوضوح في الإسلام أن أصوله ودعائمه الكبرى واضحة بينه، لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة إليه فقط، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب، بل لجمهرة المؤمنين به أياً كانوا، يستوي في ذلك الأصول الاعتقادية، والشعائر التعبدية، وأمهات الفضائل الخلقية، والأحكام التشريعية.

وضوح الأصول الاعتقادية:

وأول ما يبدو هذا الوضوح في الأصول الاعتقادية في الإسلام من الإيمان بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة.

(أ) عقيدة التوحيد:

فتوحيد الله تعالى ـ وهو أصل الأصول ـ، لا يجعله مسلم، أياً كان جنسه، أو لونه، أو طبقته، أو حظه من التعلم، فقد عرف من كلمة التوحيد وأولى الشهادتين «لا إله إلا الله»، أن لا مكان في الإسلام لتأله بشر أو حجر، أو شيء في الأرض أو في السماء، بل لله من في السماوات ومن في الأرض، وما في السماوات وما في الأرض، ولهذا كانت رسالة محمد ـ ﷺ ـ، إلى ملوك الأرض وزعمائها: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبُد إلا

اللهولا نشرِك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله)[1].

إن قضية التثنية في الألوهية ـ إله الخير والنور وإله الشر والظلمة ـ وقضية التثليث في الوثنيات القديمة، أو في المسيحية المتأثرة بها (الأب والابن والروح القدس)، لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها، ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان «اعتقد وأنت أعمى». أو «أغمض عينيك ثم اتبعني!».

بخلاف قضية التوحيد فهي تستند إلى العقل، وتعتمد على البرهان، يقول القرآن للمشركين: (أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكُم إن كنتم صادقين)[2].

ويقيم الأدلة على الوحدانية بمثل قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[3]، (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضُهم على بعض، سبحان الله عما يصِفون)[4].

فالتوحيد في حد ذاته قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها أيضاً واضح في فكره، كما أن أثرها كذلك واضح في حياته. كيف لا وهو يستقبل الحياة بالتوحيد «حيث يسن أن يؤذن أبوه أو وليه في أذنيه» كما يودع الحياة بالتوحيد «حيث يسن أن يلقن المحتضر: لا إله إلا الله».

(ب) عقيدة الجزاء الأخروي:

والإيمان بالجزاء في اليوم الآخر، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها دار ممر ومتاع إلى حين، وأن الآخرة هي دار القرار، ودار الجزاء، فيها توفى كل نفس ما كسبت وتجزى بما عملت: (فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[5].

---

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) النمل: ٦٤.
(٣) الأنبياء: ٢٢.
(٤) المؤمنون: ٩١.
(٥) الزلزلة: ٧، ٨.

والإيمان: بأن هناك داراً لمثوبة الأبرار، فيها ـ من النعيم المادي والروحي ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون)[1] وهذه هي الجنة.

وداراً أخرى لعقوبة الفجار، فيها ـ من العذاب الحسي والمعنوي ـ ما لا يقدر عليه إلا الله، وهذه هي النار، التي أعدت للكافرين، وحذر الله منها عباده المؤمنين: (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون)[2].

ومعنى هذا: أن مصير كل إنسان ليس بيد كاهن أو قديس، إنما مصير الناس بأيديهم أنفسهم، حسبما تشهد لهم صحائفهم، وتحكم لهم أو عليهم موازينهم: (فمن ثقُلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خَسِروا أنفُسَهُم في جهنم خالدون)[3].

هذا الإيمان أصل أصيل لا يخفى على مسلم في شرق أو غرب.

(ج) الإيمان برسالات السماء:

والإيمان برسالات السماء كلها، وما أنزل الله من كتب، وما بعث من رسل، يهدون إلى الحق، ويدعون إلى الخير، ويأخذون بأيدي الناس إلى الله، ويدلونهم على طريق مرضاته، ويضعون لهم قواعد العدل، وضوابط السلوك، لتستبين لهم الغاية، ويتضح لهم السبيل، ولا يكون لأحد عذر في الضلال والانحراف: (رسُلاً مُبشرين ومنذِرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[4]. (لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[5].

---

(١) السجدة: ١٧.
(٢) التحريم: ٦.
(٣) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.
(٤) النساء: ١٦٥.
(٥) الحديد: ٢٥.

وقد بعث الله في كل أمة رسولاً هادياً، وختمهم بمحمد - ﷺ - الذي بعثه الله ليتمم به مكارم الأخلاق، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وميز رسالته بالعموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان، وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. هذا أصل ثالث لا ريب فيه، ولا خلاف عليه.

هذا الإيمان برسل الله كافة، ركن من أركان العقيدة الإسلامية، لا يجهله مسلم، شأنه شأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، وباليوم الآخر.

وقضية النبوة والرسالة في ذهن المسلم وشعوره واضحة متميزة تماماً عن قضية الربوبية والألوهية. فالرسل ليسوا إلا بشراً مثلنا ميزهم الله بالوحي، وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام!)[1]، «وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسُل، افئن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟)[2] (قالت لهم رُسُلُهم إن نحنُ إلا بشر مِثلُكُم ولكن الله يُمنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نَأتِيَكُم بسلطان إلا بإذن الله»[3].

هذا الوضوح المشرق في العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء عامة وإلى محمد خاصة، يقابله غموض مطبق في العقائد الأخرى، وأبرزها المسيحية التي لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هي؟ حتى انهم عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث في طبيعة المسيح ما هي؟ أهو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حل فيه الإله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله: هي الأب، والابن، والروح القدس؟ والروح القدس نفسه اختلفوا فيه ما هو وما علاقته بالأقنومين الآخرين؟ وأم المسيح التي ولدته ما هي أيضاً؟ وما نصيبها من اللاهوت والناسوت أو الإلهية والبشرية؟

---

(١) المائدة: ٧٥.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

(٣) إبراهيم: ١١.

كـل هـذه الأسئلـة وغيرهـا كـانـت مجالاً للبحـث والجدل والاختلاف والتفرق، بحيث نشأ حولها فرق وطوائف يكفر بعضها بعضاً، ويلعن بعضها بعضاً، حتى أصبحت وكأنها أديان متباعدة لا نحل في دين واحد.

وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام أن أركانه العملية، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام، ويكاد كل المسلمين - حتى صبيانهم - يحفظون الحديث النبوي المشهور المتفق عليه: (بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً).

فالصلاة، وهي الفريضة اليومية - معروفة بعددها - خمس صلوات في اليوم والليلة - ومواقيتها وأعداد ركعاتها، وأركانها، وشروطها، ومجمل هيئاتها من بدء افتتاحها بالتكبير إلى اختتامها بالتسليم. ثم ما وراء هذه الفرائض من نوافل ومكملات في الليل والنهار، وما شرع لها من أذان متميز، وجماعة يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها، لتعمر بها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

والزكاة - وهي العبادة المالية الاجتماعية - معروفة إجمالياً لكافة المسلمين، فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم. فلا تجب إلا على من يملك النصاب بشروطه، وهي طهرة للنفس والمال. وهي تجب في المال بحسب نوعه، وما بين العشر ونصف العشر. وهي تجب في كل حول مرة في غير الزروع والثمار التي تجب زكاتها عند الحصاد.

وصيام رمضان - وهو الفريضة السنوية الدورية - معلوم لكل الأمة الإسلامية، زمنه معلوم، فهو شهر قمري محدود البداية والنهاية، ووقت الصيام كل يوم معلوم، من تبين الفجر إلى غروب الشمس. ونوع الصيام معلوم، فهو إمساك عن الأكل والشرب، ومباشرة النساء (أي: عن شهوتي البطن والفرج).

وآداب الصيام ومكملاته معلومة: من تعجيل الفطور وتأخير السحور، والكف عن اللغو والرفث، والحرص على قيام الليل، والإكثار من الطاعات، والإحسان إلى الناس.

والشعيرة الرابعة حج البيت، وهي فريضة العمر - واضحة معلومة إجمالاً لجماهير المسلمين، لا يجهل أحد فيهم ركنية هذه الفريضة للدين، وأن مكانها مكة المكرمة. وأن الحاج لا بد له من الإحرام والطواف ببيت الله الحرام، والسعي بين الصفا والمروة. والوقوف بعرفات، والمبيت بمزدلفة ومنى، ورمي الجمار والحلق أو التقصير.

فهذه الفرائض الدينية، والشعائر التعبدية، واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز وإجمال، فإذا أراد التفصيل. فما عليه إلا أن يحضر بعض الدروس، أو يقرأ شيئاً من الكتب، أو يسأل أهل الذكر! وكل ذلك ميسور غير معسور.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أن العبادة هي المهمة الأولى للإنسان في الحياة: (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون)[1] وأن روح العبادة هو النية والإخلاص لا مجرد الشكل والرسم: (وما أمروا إلا ليعبُدوا الله مُخلِصين له الدين)[2].

الأصول الأخلاقية:

ومن الأصول الإسلامية الواضحة: ما يتعلق بالجانب الأخلاقي، فأمهات الفضائل التي أمر الشرع بها، وحث عليها معروفة غير منكورة وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها، معلومة غير مجهولة.

لا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين، وبذي القربى واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل.

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) البينة: ٥.

ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق، والأمانة، والوفاء، والصبر، والعفاف، والحياء، والسخاء، والشجاعة، والحلم، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى.

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان. وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربا وأكل مال اليتيم.

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض الله الحدود عقوبة عليها، مثل قتل النفس عمداً، والسعي في الأرض فساداً بقطع الطريق وترويع الآمنين، والسرقة، والزنى، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله، لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة، ومنزلته في الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وتزكيهم، والصوم تربية للإرادة وتعليم للصبر: (لَعَلَّهم يتقون)[1] والحج تدريب على التحمل والبذل.

حتى إن الرسول الكريم - ﷺ - ليعلن عن أهمية الأخلاق في رسالته فيقول: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وضوح الآداب:

ويتبع الأخلاق الآداب في وضوحها: أدب الأكل والشرب، أدب النوم والتيقظ، أدب اللباس والزينة، أدب الجلوس، أدب المشي، أدب الزيارة والاستئذان، أدب التحية واللقاء، أدب الحديث، إلى غير ذلك من الآداب.

فأسس هذه الآداب، وأصولها الهامة واضحة معلومة.

فكل مسلم يعلم أنه يسن له عند الأكل أن يأكل بيمينه، ويبدأ باسم الله، ويختم بالحمد لله.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

وأنه ينبغي أن ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله.

وأنه لا يجوز للرجل لبس الحرير، ولا أن يلبس لبسة المرأة، ولا للمرأة أن تلبس لبسة الرجل. ومن هنا يستطيع المسلمان أن يتعارفا بكل يسر إذا التقيا دون أن يعرف كل منهما بنفسه، ويستطيع غير المسلم أن يعرف المسلمين من غيرهم لأول وهلة، بمجرد إلقاء التحية (السلام عليكم) أو ردها (وعليكم السلام) أو الأكل باليمين، أو «الحمد لله» عند العطاس، أو تشميت العاطس، ونحو ذلك مما يكشف عن شخصية المسلم.

وضوح الشرائع الإسلامية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام وضوح شرائعه وقوانينه، أعني الأساسية القطعية منها، سواء في المجال الفردي أو الأسري أم الاجتماعي

فكل مسلم يعلم بوضوح أنه يحرم عليه أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، كما يحرم عليه شرب الخمر ولعب الميسر.

وكل مسلم يعلم أنه لا يحل له الزواج من أمه، أو بنته، أو إحدى محارمه من النسب، أو الرضاع، او المصاهرة.

ويعلم أنه يحل له الطلاق والمراجعة مرتين، ثم لا تحل له المطلقة من بعد حتى تنكح زوجاً غيره. وأن كل امرأة لا بد أن تعتد إذا فارقت زوجها بطلاق أو وفاة.

وكل مسلم يعلم أن الله قد أحل البيع وحرم الربا، وأنه شرع القصاص من القاتل المتعمد، كما شرع الحدود والعقوبات المقدرة بالنص في مواضع معروفة على جرائم معلومة، هي السرقة والزنى والقذف وقطع الطريق والسكر.

وكل مسلم يعلم أن تحرير أرض الإسلام من الأعداء فريضة، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن من حكم بغير ما أنزل الله يوصف بالكفر والظلم والفسوق.

ثانياً: وضوح مصادره:

ومن مظاهر الوضوح في النظام الإسلامي أن له مصادر محددة بينة، تستقي منها فلسفته النظرية، وتشريعاته العملية.

فالمصدر الأول هو كتاب الله: القرآن الذي: (أُحكِمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير)[1].

ومن خصائص هذا القرآن أنه «كتاب مبين» حتى إن منزله - سبحانه - سماه «نوراً»، و «هدى للناس»، و «فرقاناً» و «بُرهاناً» و «بينة». وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه. قال تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكُم بُرهان من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)[2] وخاطب أهل الكتاب بقوله: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانَه سُبُل السلام ويُخرِجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[3] وخاطب الرسول المنزل عليه هذا القرآن بقوله: (ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبُشرى للمسلمين)[4].

وإذا كان في هذا الكتاب آيات متشابهات تحتمل أكثر من فهم، بحكم طبيعة اللغة، وتنوع دلالات الألفاظ فيها بين الحقيقة والمجاز بأنواعه، وبمقتضى طبيعة البشر وما جُبِلُوا عليه من تفاوت في الفهم والاستنباط، وبموجب طبيعة الإسلام الذي يحث على الاجتهاد، واستعمال العقول، ولا يضيق بالخلاف إذا لم يؤد إلى عصبية أو تفرق - فإن هذه الآيات ليست شيئاً كثيراً إذا قيست إلى الآيات المحكمات «الواضحات الدلالة أو القاطعات» فهن - كما ذكر القرآن نفسه - (أم الكتاب)، أي: أصله ومعظمه، وإليها ترد المتشابهات فيصدق بعض الكتاب بعضاً، ولا يضرب بعضه ببعض، شأن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

(١) هود: ١.
(٢) النساء: ١٧٤.
(٣) المائدة: ١٥، ١٦.
(٤) النحل: ٨٩.

ومن نعمة الله، أن ليس في الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول في مختلف الأعصار والأمصار، من شتى الثقافات والمعارف، مثلما يسر الله للقرآن العظيم.

والمصدر الثاني: سنة محمد - ﷺ.

ونعني بها ما ثبت عن النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير. فهذه السنة هي الشرح النظري، والتطبيق العملي، للقرآن الكريم. فأعظم تفسير لكتاب الله يتجلى في سيرة رسول الله - ﷺ - وفي حياته الحافلة، وسنته الشاملة، حتى تستطيع أن تقول عنه: إنه قرآن متحرك يمشي على قدمين! قالت فيه زوجه عائشة: «كان خلقه القرآن».

وحسبنا قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذْكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهُم يتفكرون)[١].

وقوله سبحانه: (لقد كان لكُم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[٢].

ومما يلحق بهذه السنة المحمدية: سنة الخلفاء الراشدين المهديين بعد محمد - ﷺ - الذين نشؤوا في حجر النبوة - ونهلوا من معين الرسالة، وكانوا في حياتهم امتدادا لرسولهم ومعلمهم - ﷺ - فما أثر عنهم مما اتفقوا عليه جميعهم، أو عن طائفة، ولم ينكره عليه أصحابهم، فهو سنة بها يقتدى فيهتدى، كما جاء في الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

وما عدا ذلك فكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، لا عصمة لمجتهد، وإن علا كعبه في العلم والتقوى. وهو - على أي الحالين: أصاب أو أخطأ - غير محروم من الأجر، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. وقد عقب القرآن على حكم داوود وسليمان في غنم القوم بقوله: (ففهمْنَاها سليمان، وكلا

---

(١) النحل: ٤٤.
(٢) الأحزاب: ٢١.

آتينا حُكماً وعلماً)[1] فاختص بالفهم أحدهما، ووصف بالحكم والعلم كليهما.

ثالثاً ـ وضوح الأهداف والغايات:

ومن مظاهر الوضوح في نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات. فغاية الإسلام كله واضحة أمام عيني كل مسلم، يكفي أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة، حيث يقول تعالى مخاطباً رسوله في شأن القرآن: (كتاب أنزلناه إليك، لِتُخْرِجَ الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[2].

غاية الإسلام بإجمال هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفسر الظلمات بما شئت من الجهل أو الشرك، أو الشك أو الظلم، أو الحقد أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكلها ظلمات، تظلم بها النفس، وتظلم بها الحياة معاً

وفسر النور بما شئت من العلم أو التوحيد أو اليقين أو العدل أو الحب، أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكله نور، تضيء به النفس، وتضيء به الحياة أيضاً.

ورحم الله ربعي بن عامر العربي المسلم الذي وعى هذه الغاية وتمثلها في ضميره ثم عبر عنها أمام القائد الفارسي رستم فأوجز وأبلغ، وأحسن كل الإحسان، حين سأله رستم: من أنتم؟ فأجابه بقوله: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ويكفي أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والأمة الصالحة.

تكوين الفرد الصالح:

والفرد هو اللبنة التي يتكون منها البناء الاجتماعي كله، ولهذا اشتدت

---

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) إبراهيم: ١.

عناية الإسلام به في كل مراحل حياته، ولم يبخل عليه بالتشريع ولا التوجيه لأنه هو أساس الأسرة والمجتمع.

فإذا صلح الأفراد صلحت الأسر، وإذا صلحت الأسر صلحت الجماعات والأمم.

وصلاح الإنسان الفرد في نظر الإسلام لا يتم إلا بأمور أربعة اعتبرها القرآن وشروط النجاة من الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، وهي التي تضمنتها سورة وجيزة من أقصر سور القرآن، يحفظها الصغار والكبار، والمتعلمون والأميون، وهي سورة العصر، التي يقول الله فيها: (والعصر، إنَّ الإنسان لفي خُسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر)[1].

فالشرط الأول لصلاح الفرد ـ وهو الذي يمثل أساس البناء كله ـ هو الإيمان، الذي يصح به تصور الإنسان لنفسه وللكون وللحياة، ولرب الكون والحياة والإنسان، فإن هذا التصور إذا فسد فسدت الحياة كلها من ورائه، فسد العمل، وفسد الخلق، وفسدت العلاقات.

إن صحة هذا التصور هي التي تعرف الإنسان بسر وجوده، وغاية حياته، وما وراء حياته، فيؤمن أنه ليس ذرة تافهة، ولا هباءة ضائعة، وإنما هو مخلوق مكرم يعيش لغاية كبرى هي: خلافة الله في الدنيا، ورضوانه وجنته في الآخرة.

والشرط الثاني: هو عمل الصالحات، فهذا هو ثمرة الإيمان، ومظهره العملي، فالإيمان ليس مجرد إدراك ذهني أو انفعال عاطفي، إنما هو حقيقة مشتركة من المعرفة والانفعال والنزوع، تدفع بالإنسان إلى عمل الخير وترك الشر.

ولم يحدد القرآن (الصالحات) بشيء معين، أو صورة خاصة، بل تركها

---

(١) سورة العصر.

هكذا لتشمل كل ما يصلح به الإنسان بدنياً ونفسياً، فردياً واجتماعياً، وكل ما تصلح به الحياة، مادياً وروحياً، حضارياً وأخلاقياً، من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق.

والشرط الثالث: هو التواصي بالحق، وصيغة «التواصي» تدل على تفاعل من طرفين. ومعنى هذا أن يوصي المؤمن غيره بالحق، ويقبل منه الوصية بالحق، وهذا يعطينا أن القرآن لا يتصور المؤمن إلا في مجتمع يأخذ منه ويعطيه، ولا يتصوره راهباً في صومعة، أو منقطعاً في فلاة.

وبهذا لا يكتفي القرآن من المسلم أن يكون صالحاً في نفسه: سليم العقيدة صحيح العبادة، حسن المعاشرة، ثم يدع الحق مغلوباً، والباطل غالباً، والمعروف ضائعاً، والمنكر ظاهراً قاهراً، وهو لا يحرك ساكناً، ولا ينطق صامتاً، ولا يبذل جهداً، إن المسلم لا بد أن يعيش جندياً للحق، يؤمن به ويحبه، وينصره ويدعو إليه، وهذا أساس فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.

والشرط الرابع: لازم للشرط الثالث، وهو التواصي بالصبر، فإن الذي يحمل رسالة الحق، يحتاج حتماً إلى الصبر، يوصي به نفسه، ويوصي به غيره، ويوصيه به مثله، فمن آمن بمثل ما آمن به صاحب الحق لا بد أن يؤذى، فلا بد أن يوطن نفسه على الصبر، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بُني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)[1].

وهذه الأمور الأربعة ـ التي يصلح بها الفرد ـ واضحة بحمد الله، وضوح «سورة العصر» لدى كل مسلم.

ليس الفرد الصالح في الإسلام إذن هو الذي يعتزل الحياة في صومعة، يعمر الآخرة بخراب الدنيا، ولكنه الذي يعمل للحياتين، ويجمع بين

---

(١) لقمان: ١٧.

الحسنيين: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)[١].

فمن التفت إلى الآخرة وحدها، ولم يعط للدنيا حقها، وقد استخلفه الله فيها وأمره بعمارتها: (إني جاعِلٌ في الأرض خليفة)[٢]، (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[٣] فقد جار على دنياه، وظلم نفسه حقها. وقد جاء في الحديث «إن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً» وقال تعالى: (قل من حرم زِينَةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)[٤].

ومن جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، ومحور تفكيره وشعوره وسلوكه، فقد ظلم آخرته وبخس نفسه، وغفل عن مصيره، بل عن سر وجوده، وحق عليه قوله تعالى:

(فأما مَنْ طغى. وآثر الحياةَ الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى)[٥].

ولا ريب أن غايات الناس تختلف اختلافاً كبيراً، وتتفاوت تفاوتاً بيناً، بحسب ما تهبط بهم شهواتهم الدنيا، أو ترتقي بهم خصائصهم العليا.

ولو تُرك الناس لغرائزهم وحدها لنزلت بهم إلى حضيض الأنعام، أو كانوا أضل سبيلاً. ولكن مهمة الدين أن يرقى بهم إلى أفق الملائكة.. وأن يصل بهم صعوداً ـ على مدارج التقوى ـ إلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ورضوان من الله أكبر، يقول الله تعالى: (زُيِّن للناس حبُّ الشهواتِ من النِّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا. والله عنده حُسنُ المآب. قُل أؤنبئكم بخير من ذلِكُم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد)[٦].

---

(١) البقرة: ٢٠١.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) هود: ٦١.
(٤) الأعراف: ٣٢.
(٥) النازعات: ٣٧-٣٩.
(٦) آل عمران: ١٤، ١٥.

تكوين الأسرة الصالحة:

ويهدف الإسلام كذلك إلى تكوين الأسرة الصالحة السعيدة.

والأسرة الصالحة هي التي تظللها المعاني التي جعلها القرآن الكريم أهداف الحياة الزوجية وثمراتها. وهي السكون النفسي والمودة والرحمة.. قال تعالى: (ومن آياته أن خلَق لكُم من أنفُسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[1].

وقال تعالى في تصوير العلاقة بين الأزواج والزوجات: (هُنَّ لِباس لكم وأنتم لباس لُهنّ)[2] وكلمة اللباس هذه تحمل من معاني الوقاية، والستر، والزينة، والدفء، والقرب، والالتصاق ما لا يخفى.

والأسرة الصالحة هي التي تقوم على الدعائم الآتية:

١ ـ أن يتم الزواج على التراضي دون ضغط ولا إكراه، ولا غش من طرف لآخر.

٢ ـ تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)[3].

٣ ـ إيجاب المعاشرة بالمعروف دائماً، وخاصة عند الاحساس بعاطفة الكراهية أو النفرة.

قال تعالى: (وعاشِرُوهنَّ بالمعروف، فإن كَرِهتُمُوهُنَّ، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعَلَ الله فيه خيراً كثيراً)[4].

٤ ـ تكليف الزوج القوامة والإشراف والمسئولية عن الأسرة: (وللرجال عليهنَّ درجة)[5]، (الرجال قوامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على

(١) الروم: ٢١.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) البقرة: ٢٢٨.
(٤) النساء: ١٩.
(٥) البقرة: ٢٢٨.

بعض وبما أنفقوا من أموالِهم)[1].

٥ ـ تكليف الزوجة الإشراف والمسئولية عن البيت من الداخل: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.... والرجل في أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها»[2]

٦ ـ وجوب الرعاية من الأبوين لأولادهم، والعدل بينهم: «رحم الله والداً أعان ولده على بره»، «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

٧ ـ وجوب بر الوالدين والإحسان بهما عامة، وبالأم خاصة: (وَوصَّيْنَا الإنسان بوالديه حَمَلَتهُ أمه وهناً على وهنٍ، وفصَالُهُ في عامين، أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير)[3].

تكوين المجتمع الصالح:

ويهدف الإسلام إلى تكوين المجتمع الصالح، كما هدف إلى الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، وهما ولا شك أساس متين لصلاح المجتمع المنشود.

والمجتمع الصالح هو الذي ترتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا، ومبادئه المثلى، ويجعلها رسالة حياته، ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية في هذا المقام هي:

(أ) التجمع على العقيدة: فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً قومياً أو إقليمياً، وإنما هو مجتمع عقائدي، مجتمع فكرة وعقيدة، وعقيدته هي الإسلام فهو الأساس «الأيديولوجي» لهذا المجتمع.

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة، أو ألوان مختلفة، أو أوطان مختلفة، أو ألسنة مختلفة، أو طبقات مختلفة، ولكن هذا

---

(١) النساء: ٣٤.
(٢) متفق عليه.
(٣) لقمان: ١٤.

الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة، أمام « لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله ». أمام الإيمان المشترك الذي يضم الجميع في رحاب أخوته: (إنّما المؤمنون أخوة)[1].

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه، لم نجد إلا أن نقول: إنه « مجتمع مؤمن »، أو هو « مجتمع المؤمنين » أولئك الذين وصفهم الله تعالى في مطلع سورة البقرة بقوله: (الذين يُؤمنون بالغيب ويقِيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفِقون. والذين يُؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلِك، وبالآخرة هم يُوقِنون، أولئك على هُدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون)[2].

والإيمان الإسلامي ليس مجرد شعار أو دعوى، أو تعصب على الآخرين، وإنما هو حقيقة تستقر في النفس، ينبثق عنها سلوك، ويصدقها عمل إيجابي.

ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القيم التي يقوم عليها المجتمع الصالح الذي يهدف الإسلام إلى تحقيقه وهي:

(ب) « احترام العمل الصالح » بل تقديسه ـ سواء كانت صبغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة، والذكر والتلاوة والدعاء. أم دنيوية، كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض، ومنفعة الناس، والإحسان إليهم، هو كذلك أصل مقرر معروف، اعتبره القرآن ركناً في كل دين، مقروناً بالإيمان بالله واليوم الآخر. قال تعالى:
(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فلهم أجرُهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون)[3].

---

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) البقرة: ٣ـ٥.
(٣) البقرة: ٦٢.

وقرن القرآن العمل بالإيمان في أكثر من سبعين آية، في مثل قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنَّا لا نُضيع أجر من أحسن عملاً)[1].

ولا ريب أن إقامة شعائر الله، وأداء فرائضه الكبرى ـ من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت هي أول ما ينطبق عليه معنى العمل الصالح. فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه، وعبادة ربه، وإخلاص الدين له، شكراً لنعمته، ووفاء بحق ربوبيته.

(ج) والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أصل بين من أصول هذا الدين، فليس يكفي ـ في منطق الإسلام ـ أن يكون المرء صالحاً في خاصة نفسه، غافلاً عن فساد غيره، بل الصالح عنده حقاً، من أصلح نفسه، وحاول إصلاح غيره، ولو بالدعوة والأمر والنهي. كما قال تعالى: (ولتكُن مِنكُم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون)[2]. وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة المسلمة على سائر الأمم: (كُنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتُؤمنون بالله)[3].

ومن هنا سجل القرآن لعنة الله لبني إسرائيل ـ على لسان داوود وعيسى ابن مريم ـ لسكوتهم عن المنكر ـ وعدم تناهيهم عنه: (لعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون)[4].

(د) والجهاد في سبيل الله ـ حماية للحق، وتثبيتاً للخير، وتأميناً للدعوة،

(١) الكهف: ٣٠.
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) المائدة: ٧٨، ٧٩.

ومنعاً للفتنة، وصداً للمغيرين، وتأديباً للناكثين، وإنقاذاً للمستضعفين - أصل إسلامي لا ينكره مسلم، ولا يجهل منزلته وفضله، وما أعد الله لأهله، فضلاً عن مشروعيته، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا مالكُم إذا قيل لكم انفِرُوا في سبيل الله اثاقلتُم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تَنفِرُوا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير)[1]. وقال: «يا أيها الذين آمنوا خُذوا حِذرَكُم فانفِرُوا ثُبَات أو انفِرُوا جميعاً)[2]، (وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رِبَاط الخيل تُرهِبُون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرون من دونِهِم لا تَعْلَمُونهم، الله يعلمهم، وما تُنفِقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون)[3].

(هـ) وتثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة، ونشرها وحمايتها، من العدل، والإحسان، والبر، والصلة، والتعاون على البر والتقوى، واحترام النظام، والصدق والعفاف، ورعاية الأمانة والوفاء بالعهد، والإخلاص في السر والعلانية، وقول الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس، وطهارة القلب من الغل والحسد، والرياء، والنفاق، وحب الدنيا، وسائر أمراض النفوس - كلها من الركائز المعنوية التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها.

رابعاً - وضوح المناهج والطرق:

ويتميز الإسلام كذلك بوضوح منهجه، وطرقه التي وضعها للوصول إلى غايته المثلى، وأهدافه العليا:

---

(١) التوبة: ٣٨، ٣٩.
(٢) النساء: ٧١.
(٣) الأنفال: ٦٠.

(أ) من عبادات وشعائر تغذي الروح، وتزكي النفس، وتربي الإرادة، وتوحد الاتجاه، وتدرب الإنسان على كمال العبودية لربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

وهي عبادات محددة لا تقبل الابتداع، ميسرة لا تقبل التزمت، معتدلة لا تقبل التطرف، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر.

وعلى رأس هذه العبادات الشعائر الكبرى من الصلاة، والزكاة، والصيام والحج. وقد نوع الإسلام فيها، فبعضها بدني كالصلاة والصيام، وبعضها مالي كالزكاة، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعمرة.

ومن هذه العبادات ما يتكرر كل يوم كالصلاة، ومنها ما يتكرر كل سنة كالصيام والزكاة، ومنها ما لا يَفرض في العمر إلا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات ما هو فعل إيجابي كالصلاة والزكاة والحج، ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع، مثل الصيام الذي هو كف عن الاستجابة لشهوتي البطن والفرج، امتثالاً لأمر الله تعالى.

وكلها لا بد فيها من النية الخالصة، لأنها روح العمل وسره: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفاء)[1]، «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[2].

ومن هذه العبادات فرائض لازمة لكل مسلم ومسلمة، لا يقبل التفريط فيها بحال إلا من عذر يقدره الشرع.

ومنها نوافل هي بمنزلة الربح لرأس المال، من استزاد منها كان خيراً له، ومن تكاسل عنها فلا إثم عليه. وهي ميدان المتنافسين في الخيرات، والمتسابقين في الباقيات الصالحات.

إن هذه العبادات غايات في نفسها، ولكنها ـ مع ذلك ـ وسائل

---

(١) البينة: ٥٠.

(٢) متفق عليه.

فذة للتربية الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، ومناهج ربانية لتدريب المسلم على السلوك الأمثل والحياة المثلى.

(ب) ومن أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية، وتربي روح الغيرية، وتعنى بزكاة الفرد، وتماسك المجتمع، تزكي نوازع الخير، وتقلم أظافر الشر. وهي أخلاق فطرية، واقعية، مفهومة معللة، شاملة، متوازنة، يجتمع العقل والنقل على تحسين ما حسنته، وتقبيح ما قبحته.

(جـ) ومن آداب وتقاليد، تربي الأذواق، وتحمي الأخلاق، وتجمل الحياة، وتصنع وحدة المظهر مع الخير، وتصون المجتمع من عبث المتحللين، وتزمت المتزمتين.

وهي آداب تصحب المسلم في حياته كلها: في مأكله ومشربه، وملبسه ومركبه، ويقظته ونومه، وسفره وحضره، وخلوته وجلوته.

وهي آداب تحرص على ربط المسلم بالله تعالى في كل أحواله، وكل أحيانه، فهو ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله. ويبدأ الأكل باسم الله، ويختمه بحمد الله، وكذلك لبسه الثوب، وركوبه الدابة، وسفره وعودته. وهو إذا هنأ أو عزى، أو شمت عاطساً أو رد على مشمت، أو سافر أو ودع مسافراً، أو غير ذلك. لم ينس الله تعالى، بل رطب لسانه بذكره، حامداً أو داعياً أو مسمياً أو مثنياً عليه تعالى بما هو أهله.

ولهذا نستطيع أن نميز المسلمين من غيرهم لأول وهلة، حين نراهم يلتقون فيُحيي بعضهم بعضاً بالقاء السلام، ويجتمعون على المائدة، فيأكلون باليمين ويبدؤوا باسم الله، ويختمون بالحمد لله، وهكذا..

(د) ومن نظم وتشريعات للفرد وللأسرة وللجماعة.

فهي ترسم للفرد طريقه، وتحدد له سلوكه، وتبين له الحلال من الحرام.

وهي للأسرة دعائم وركائز، تمنعها أن تميد، وتحفظها أن تنهار: توضح ما

لكل طرف من الحقوق، وما عليه من الواجبات، وتحرص على بقاء هذه المؤسسة الجليلة واستمرارها في أداء رسالتها، ما لم يصبح إثم بقائها أكبر من نفعه، فالخير في الافتراق بعد محاولة الإصلاح، وآخر العلاج الكي.

وهي للجماعة ضوابط وموازين، مهمتها أن تقيم العدل، وتردع عن الشر، وتحمي الإخاء، وتمنع التنازع، وتصون الحقوق، وتحفظ على الناس أديانهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ونسلهم، وهي الضروريات التي لا تقوم الحياة إلا بها، كما تحفظ عليهم حاجيات الحياة وكمالياتها أيضاً، كل بحسب منزلته.

ومن حسن حظ المسلمين أن قامت على خدمة هذه المناهج وتجليتها، وبيان أحكامها وحكمتها، علوم ومعارف شتى في محيط الثقافة الإسلامية الرحب، من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق وآداب وتصوف..

ومهما يكن من اختلاف «أهل الذكر» في فروعها وجزئياتها، فإن أصولها الكلية، وقواعدها الأساسية، بينة كالصبح، واضحة كالشمس، لا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان، كما يقال.

اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إن كان الإسلام بهذا الوضوح، فما بال هذه الفرق التي ظهرت باسمه عبر التاريخ؟ وما بال هذا الانقسام القائم بين سنة وشيعة؟ وما سر هذا الاختلاف بين السلفية والصوفية؟ وبين المذهبيين واللامذهبيين؟

ولا أجهل أن هناك أناساً من المبشرين والمستشرقين ومن يدور في فلكهم يجهدون جهدهم، لتضخيم هذا المعنى وتكبيره، بحيث يخيل إليك من كتاباتهم أن هذا الدين ليس واحداً، كما أنزله الله، بل ثمت مئة إسلام وإسلام، فلكل بلد إسلام، ولكل عصر إسلام، ولكل مذهب إسلام، وهكذا.

والذي أستطيع أن أؤكده بكل قوة: أنه لا يوجد في العالم كله (أيديولوجية) دينية ولا وضعية تملك من الوضوح والوحدة ما يملكه هذا الإسلام.

إن الإسلام الذي ندعو إليه ونصفه بالوضوح، ليس إسلام فرقة من الفرق، ولا بلد من البلدان، ولا مذهب من المذاهب، إنه إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان، الإسلام الأول قبل أن تظهر الفرق والنحل والبدع والأهواء المحدثة التي فرقت الناس شيعاً.

ولقد سمعت من أحد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الأمة، كلمة جديرة بأن تسجل وتنشر. قال: هل كان هناك سنة وشيعة عندما أكمل الله الدين لهذه الأمة، وأتم عليها النعمة، ونزل قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً)[١].

وكان جواب الحاضرين طبعاً: لا.

إذن جاء الخلاف بعد ذلك في تفسير قضايا تاريخية!

وكان الجواب: نعم بكل تأكيد.

وهناك قال الرجل العاقل: فلنغض الطرف عما حدث بعد قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم..) وليسعنا كتاب الله، ففيه كل الكفاية.

وهذا كلام صحيح، فإن منبع الخلاف بين السنة والشيعة هو موضوع الخلافة، ومن أحق بها بعد رسول الله - ﷺ - فهو خلاف على أمور انتهت تاريخياً، وأفضى المختلفون فيها إلى ربهم، ومردهم إلى الله.

أما الشيء الباقي وراء هذا كله، فهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن نعم الله على الأمة الإسلامية أن الله تعالى قد خصهم بما لم يخص به أمة من قبلهم، وذلك أنه تعالى تولى بنفسه حفظ كتابهم المجيد الذي هو دستور حياتهم، والمصدر الأول لتشريعهم وتوجيههم، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: (إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافِظُون)[٢].

وقد أثبتت القرون المتتابعة صدق هذا الوعد الإلهي - وبقي هذا القرآن كما

(١) المائدة: ٣.
(٢) الحجر: ٩.

أنزله الله، وتلقاه محمد - ﷺ - وحفظه أصحابه، وبلغوه لمن بعدهم، محفوظاً في الصدور، متلوا بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، لم تضع منه كلمة، ولم تتغير فيه جملة.. على حين حرفت وبدلت - أو ضاعت بالكلية - كل الكتب السماوية التي نزلت من قبل، ولم يضمن الله لها الحفظ، لأنها كانت كتباً مرحلية لدعوة خاصة، ليس لها صفة العالمية لكل الناس، ولا صفة الخلود إلى أن تقوم الساعة، كما هو شأن دعوة الإسلام.

كما أن سنة محمد - ﷺ - قد حفظت منتقاة مغربلة، لتكون التبيان النظري والعملي لهذا القرآن.

وإذا كان تاريخ الإسلام قد حفظ أسماء فرق كثيرة قد ظهرت في مجتمعه، فإنه قد سجل كذلك انقراض معظمها من المجتمع الإسلامي. فقد لفظها جمهور المسلمين، ولم يبق لها مكان بينهم، ولم يمض زمان على من بقي منهم حتى ذابوا في مجموع الأمة. ولئن بقيت بعض الفئات المتطرفة، إن الإسلام لا يتحمل وزرها. ولا تحسب انحرافاتها وشذوذها عليه، وعلى أمته الكبرى.

ولقد حدد الإسلام المرجع الذي يحتكم إليه المسلمون إذا اختلفوا، وذلك في قوله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)(١).

وقد أجمع المسلمون منذ الصدر الأول على أن الرد إلى الله في الآية يعني الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله يعني الرد إلى سنته.

وقد وضع المسلمون علماً خاصاً في تفسير النصوص والاستنباط منها، هو علم (أصول الفقه)، ليعينهم على وحدة الفهم. ولا أنكر أن كثيراً من مسائل الأصول نفسها مختلف فيها، ولكن الأمور الأساسية متفق عليها، وما عداها فإن الإسلام نفسه لم يحرج على أبنائه الاختلاف في شأنها.

---

(١) النساء: ٥٩.

على أن هنا علاجاً عملياً آخر، للتقليل من خطر الاختلاف، وهو ما قرره علماء المسلمين من أن رأي الإمام يرفع الخلاف في المسائل الخلافية.

فمتى وجد للمسلمين إمام شرعي تمت إمامته بالاختيار والشورى والبيعة، كان رأيه في مسائل الخلاف العملية هو القول الفصل. أما المسائل النظرية فلكل رأيه وحسابه على الله.

الأيديولوجيات الحديثة وغموضها:

ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص الإسلام، بالتهويل والتضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين، والصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة، هؤلاء يتعامون عن الغموض البين، والاختلاف البارز، الذي يراه ويلمسه كل دارس للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة التي أصبحت (أصنام) هذا العصر، وغدا هؤلاء وأمثالهم من الكتاب «الكهنة» الجدد لهذه الأوثان.

إن هذه الأيديولوجيات الحديثة البراقة، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق ـ أو كما يقول المناطقة: جامع مانع ـ يحدد مدلولها، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية فإن هذا التعريف المجرد مفقود. ولهذا يختلفون حولها في كل شيء، حتى في معناها: ما هو؟

خذ مثلاً: الديمقراطية.

فنحن لا نكاد نجد في القرن العشرين أيديولوجية اجتماعية، ولا تنظيمية سياسية، من الليبرالية، إلى الاشتراكية، إلى الشيوعية، أو حتى الفاشيستية أو النازية، إلا وتدعي كل منها أنها هي (الديمقراطية) الحقة، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة، وبات الناس حائرين، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل، وأيها المدعى؟

ولا يخرج من هذا الغموض، وهذه البلبلة الاحتكام إلى معايير خلقية أو روحية، لأن الجميع يدعون الحرص على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان.

ولا الاحتكام إلى (معايير اجتماعية وضعية)، لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً تبرر به منهجها وأسلوبها. فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية. على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية.

ويتحدى الصينيون المعيارين معاً خلال ما يسمونه (الديمقراطية الجديدة).

ويتحداها أيضاً الثوريون الآسيويون والأفريقيون من خلال ما يدعونه (الديمقراطية الاشتراكية)[١].

بل وجدنا من يجمع بين الضدين، خلال ما يسمونه (الدكتاتورية الديمقراطية)[٢].

وخذ مثلاً آخر: الاشتراكية، التي فتن بها الكثيرون من قومنا، وباتوا يدعون إليها باللسان والقلم. ما هي الاشتراكية؟ وما مدلولها؟ وما أهدافها؟ ما أصولها؟ وما مصادرها؟.

إنك تبحث عن جواب لهذه الأسئلة فلا تجد إلا الغموض، والاختلاف البين حولها، بين مؤسسيها ودعاتها.

يقول الأستاذ ثاوني: إن الاشتراكية كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة، كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل إلى جيل فحسب، بل من حقبة إلى حقبة.[٣]

ويؤكد الأستاذ «كول» التناقض في فهم العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر، وبين جيل وما بعده، ويزيد عليه فيقول: (ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التي وجدت في عصر واحد)[٤].

ونقرأ في كتاب: (هذه هي الاشتراكية) للكاتبين الفرنسيين: جورج

(١) «الإسلام وتحديات العصر» ص ١٢٩، ١٣٠ ط. ثانية.
(٢) «القومية والمذاهب السياسية» ص ٣١٧.
(٣، ٤) الاشتراكية والقومية» للدكتور يوسف عز الدين ص ٧٤.

بورجان، وبيار رامبير، هذه العبارات نقلاً عن مكسيم لوروا في كتابه (رادة الاشتراكية الفرنسية) يقول: (لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكية بابون، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون تتميزان عن اشتراكية بلانكي، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان، وكابيه، وفوربيه، وبيكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحفل بالأسى والمرارة!)[1].

وبرغم قرب العهد بماركس (المتوفى ١٨٨٣م)، وخلفائه: انجلز (١٨٨٦). ولينين (١٩٢٤). مؤسس الدولة الاشتراكية الماركسية الأولى، نرى الهوة تتسع بين تجربتين رئيسيتين في روسيا والصين، ينتسب كل منهما إلى ماركس ذاته.

وليس أفضل من أن نستشهد هنا بقول لأحد الماركسيين المعروفين، وهو مكسيم رودنسون، الكاتب اليهودي الفرنسي اليساري الذي يقول:

(الحقيقة أن هناك (ماركسيات) كثيرة بالعشرات والمئات: ولقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة!! إن هذا التراث كالكتاب المقدس (أسفار التوراة، والأناجيل وملحقاتها) حتى الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصاً تؤيد ضلالته!!)[2].

هذه هي الأيديولوجيات البشرية. في غموضها. واختلافها وذلك هو الإسلام في وضوحه.... ووحدته.

وشتان بين ما شرعه الله.. وما وضعه الناس..

(وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور)[3].

---

(١) «هذه هي الاشتراكية»: ترجمة محمد عيتاني ـ بيروت ص ١٣.

(٢) «الإسلام والرأسمالية» ص ٢٤.

(٣) فاطر: ١٩، ٢٠.

الفصل السابع

الجمع بين التطوّر والثبات

يكاد الذين يكتبون عن الإسلام ورسالته وحضارته، في عصرنا ينقسمون إلى فئتين متقابلتين: فئة تبرز جانب المرونة «والتطور» في أحكام الإسلام وتعاليمه، حتى تحسبها عجينة لينة قابلة لما شاء الناس من خلق وتشكيل، بلا حدود ولا قيود.

وفي الشق الآخر فئة تبرز جانب الثبات، والخلود في تشريعه وتوجيهه، حتى يخيل إليك أمام صخرة صلدة، لا تتحرك ولا تلين.

وهذا هو عيب كثير من البشر، حين ينظرون إلى القضايا من جانب واحد، مغفلين بقية الجوانب، على ما يكون لها من أهمية قصوى، فيجنحون إلى الإفراط أو التفريط.

وقليل من الكاتبين هو الذي سلم من غلو المفْرطين، وتقصير المفرِّطين[١]، وكانت رؤيته واضحة لهذا المنهج الإلهي الفريد، الذي قام على أساسه مجتمع رباني إنساني، وحضارة متكاملة متوازنة.

والحقيقة أن المجتمع المسلم قد اختص بظاهرة فذة، تعتبر من أبرز ما يميزه عن سائر المجتمعات الأخرى، تلك هي ظاهرة التوازن، وإن شئت قلت: ظاهرة «الوسطية» التي يشير إليها قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[٢] والتي تحدثنا عنها بتفصيل من قبل.

وإن من أجلى مظاهر التوازن والوسطية التي يتميز بها (نظام الإسلام)،

---

(١) المفرطين: الأولى بتسكين الفاء، والثانية بفتح الفاء وتشديد الراء.

(٢) البقرة: ١٤٣.

وبالتالي يتميز بها مجتمعه عن غيره: التوازن بين الثبات والتطور، أو الثبات والمرونة. فهو يجمع بينهما في تناسق مبدع، واضعاً كلاً منهما في موضعه الصحيح.. الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى، والمرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور.

وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإسلام، لا توجد في شريعة سماوية ولا وضعية.

فالسماوية ـ عادة ـ تمثل الثبات[١]، بل الجمود أحيانا، حتى سجل التاريخ على كثير من رجالاتها وقوفهم في وجه الحركات العلمية، والتحريرية الكبرى، ورفضهم لكل جديد في ميدان الفكر أو التشريع أو التنظيم.

وأما الشرائع الوضعية، فهي تمثل ـ عادة ـ المرونة المطلقة، ولهذا نراها في تغير دائم، ولا تكاد تستقر على حال، حتى الدساتير التي هي أم القوانين، كثيرا ما تلغى بجرة قلم، من حاكم متغلب، أو مجلس للثورة، أو برلمان منتخب، انتخاباً صحيحاً أو زائفاً، حتى يصبح الناس ويمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أي مادة، أو قاعدة قانونية، كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام.

ولكن الإسلام، الذي ختم الله به الشرائع والرسالات السماوية، أودع الله فيه عنصر الثبات والخلود، وعنصر المرونة والتطور، معاً، وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدين، وآية من آياته عمومه وخلوده، وصلاحيته لكل زمان وكل مكان.

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات، ومجال المرونة، في شريعة الإسلام ورسالته الشاملة الخالدة، فنقول:

إنه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.

---

(١) يلاحظ أن الشرائع السماوية قبل الإسلام كانت مرحلية، لزمن موقوت، ولقوم مخصوصين، فلم تكن في حاجة إلى المرونة، التي تؤهلها للعموم والخلود، بخلاف الإسلام، الذي بعث رسوله إلى الناس كافة، وختم به النبيون.

الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشؤون الدنيوية والعلمية.

الثبات والتطور في الحياة والكون:

وربما سأل سائل: لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟ لماذا لم يودعه الله المرونة المطلقة أو الثبات المطلق؟

والجواب: ان الإسلام بهذا، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبيعة الكون الكبير عامة، فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإنسان وفطرة الوجود.

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور.

فالإنسان اليوم، قد اتسعت مداركه، وارتقت معارفه، وازدادت قدرته على تسخير القوى الكونية من حوله، والانتفاع بها، حتى استطاع أن يصعد إلى القمر، ويعيش فوق ظهره أياماً معدودة، يكتشف مجاهيله ويحمل إلى أهل الأرض نماذج من ترابه وصخوره.

ولكن هل تغير جوهر إنسان اليوم، عن جوهر إنسان ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ؟

هل تغير جوهر الإنسان المعاصر، الذي صعد إلى كوكب القمر، عن الإنسان الذي لم يكن يعرف كيف يواري سوأة أخيه، حتى علمه الغراب؟

كلا. إن جوهر الإنسان واحد، وإن تطورت معارفه، وتضاعفت إمكاناته.

فالإنسان منذ عهد أبيه الأول إلى اليوم، يأكل ويشرب ويحب الخلود، ويضعف عزمه أمام دوافع النفس من داخله، أو وساوس الشر من خارجه، فيعصي ويغوي، ثم يصحو ضميره، ويشعر بالذنب فيرجع ويتوب، ليبدأ

صفحة بيضاء من جديد.

رأينا ذلك في قصة آدم أبي البشر، وأكله من الشجرة التي نهي عنها، بعد أن وسوس له الشيطان، ودلاه بغرور، وأوهمه أنها شجرة الخلد، والملك الذي لا يبلى: (وعصى آدم ربَّه فغوى. ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى)[1].

ويوجد في بني الإنسان «الشرير» الذي يحسد أخاه فلا يتورع عن قتله طغياناً بلا ذنب جناه.

كما يوجد الإنسان «الخير» المهذب، الذي لا يقترف الشر، ولا يفكر فيه، ولا يقابل السيئة بالسيئة! وقد رأينا ذلك في قصة ابني آدم، التي قصها الله علينا بالحق، حين حسد أحدهما أخاه فقتله، فأصبح من الخاسرين، على حين أبى الآخر أن يبسط يده إليه بسوء قائلاً:
(إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين)[2].

ولا زلنا نراها في ألوف وملايين من ذرية آدم، يتمثل فيها «قابيل وهابيل» ـ كما يسميان ـ وستظل البشرية تراها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا نظرنا إلى الكون من حولنا، وجدناه يحوي أشياء ثابتة، تمضي ألوف السنين وألوف الألوف وهي هي، أرض وجبال، وليل ونهار، وشمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمر الله، كل في فلك يسبحون.

وفيه أيضاً عناصر جزئية متغيرة، جزر تنشأ، وبحيرات تجف، وأنهار تحفر، وماء يطغى على اليابسة، ويبس يزحف على الماء، وأرض ميتة تحيا، وصحار قفر تخضر، وبلاد تعمر، وأمصار تخرب، وزرع ينبت وينمو، وآخر يذوي ويصبح هشيماً تذروه الرياح.

هذا هو شأن الإنسان، وشأن الكون. ثبات وتغير في آن واحد، ولكنه ثبات في الكليات والجوهر، وتغير في الجزئيات والمظهر.

(١) طه: ١٢١، ١٢٢.
(٢) المائدة: ٢٨.

فإذا كان التطور قانوناً قائماً في الكون والحياة، فالثبات قانون قائم فيهما كذلك بلا مراء.

وإذا كان في الفلاسفة من قديم، من قال بمبدأ الصيرورة والتغير باعتباره القانوني الأزلي الذي يسود الكون كله، فإن فيهم من نادى بعكس ذلك واعتبر الثبات هو الأساس، والأصل الكلي العام للكون كله.

والحق أن المبدأين كليهما من الثبات والتغير يعملان معاً، في الكون والحياة، كما هو مشاهد وملموس.

فلا عجب أن تأتي شريعة الإسلام، ملائمة لفطرة الإنسان وفطرة الوجود، جامعة بين عنصر الثبات وعنصر المرونة.

وبهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم، أن يعيش ويستمر ويرتقي، ثابتاً على أصوله وقيمه وغاياته، متطوراً في معارفه وأساليبه وأدواته.

فبالثبات، يستعصي هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء، أو الذوبان في المجتمعات الأخرى، أو التفكك إلى عدة مجتمعات، تتناقض في الحقيقة، وإن ظلت داخل مجتمع واحد في الصورة. بالثبات يستقر التشريع وتتبادل الثقة، وتبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة، وأسس راسخة، لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والاجتماعية ما بين يوم وآخر. وبالمرونة، يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمن، وتغير أوضاع الحياة، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية.

ولكن ما هي مظاهر الثبات والمرونة في شريعة الإسلام؟ وما دلائل ذلك؟ هذا ما نبينه في الصفحات التالية إن شاء الله.

دلائل الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه:

إن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى، نجدها في مصادر الإسلام، وشريعته وتاريخه.

يتجلى هذا الثبات في «المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع» من كتاب الله، وسنة رسوله، فالقرآن هو الأصل والدستور، والسنة هي الشرح النظري، والبيان العملي للقرآن وكلاهما مصدر إلهي معصوم، لا يسع مسلماً أن يعرض عنه: (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)[1]، (إنما كان قول المؤمنين إذا دُعموا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا)[2].

وتتجلى المرونة في «المصادر الاجتهادية» التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقال ومكثر، مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة، وشرع من قبلنا، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة[3] نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين:

قسم يمثل الثبات والخلود.

وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية الخمس، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي التي ذكرها القرآن في غير موضع كقوله: (ليس البرَّ أن تولوا وجوهَكُم قِبلَ المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)[4]، (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً)[5].

وفي الأركان العملية الخمسة من الشهادتين وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهي التي صح عن الرسول - ﷺ - أن

(١) النور: ٥٤.

(٢) النور: ٥١.

(٣) نريد بالشريعة هنا ما هو أعم من (الجانب القانوني) في رسالة الإسلام بل المراد: ما بعث الله به محمداً - ﷺ - من عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق وغيرها كما عرفها بذلك التهانوي في كتابه: «كشاف اصطلاحات العلوم والفنون».

(٤) البقرة: ١٧٧.

(٥) النساء: ١٣٦.

الإسلام بُني عليها .

وفي المحرمات اليقينية من السحر، وقتل النفس، والزنى ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والتولي يوم الزحف والغصب والسرقة والغيبة والنميمة وغيرها مما يثبت بقطعي القرآن والسنة.

وفي أمهات الفضائل من الصدق، والأمانة، والعفة، والصبر، والوفاء بالعهد، والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان.

وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج، والطلاق، والميراث والحدود، والقصاص، ونحوها من نظم الإسلام التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة فهذه الأمور ثابتة، تزول الجبال ولا تزول. نزل بها القرآن، وتواترت بها الأحاديث، وأجمعت عليها الأمة، فليس من حق مجمع من المجامع، ولا من حق مؤتمر من المؤتمرات، ولا من حق خليفة من الخلفاء، أو رئيس من الرؤساء، أن يلغي أو يعطل شيئاً منها، لأنها كليات الدين وقواعده وأسسه أو كما قال الشاطبي «كلية أبدية، وضعت عليها الدنيا، وبها قامت مصالحها في الخلق، حسبما بين ذلك الاستقراء. وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضاً، فذلك الحكم الكلي باق إلى أن يرث الله الأرض وما عليها»[1].

ونجد في مقابل ذلك القسم الآخر، الذي يتمثل فيه المرونة، وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام وفروعها العملية، وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان»:

«الأحكام نوعان:

نوع: لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة

(١) «الموافقات».

بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً، كمقادير التعزيزات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة، وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنة النبي - ﷺ - وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده - ثم قال:

«وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير، بالتعزيزات التابعة للمصالح وجوداً وعدما»[١].

الثبات والمرونة في هدي القرآن:

والذي يتدبر القرآن الكريم، يجد في نصوصه المقدسة دلائل جمة، على هذه الخصيصة البارزة، من خصائص الأمة المسلمة، وهي:

الجمع بين الثبات والمرونة جمعاً متوازناً عادلاً.

وإذا كان بالمثال يتضح المقال، فلا بأس أن نذكر هنا بعض الأمثلة التي توضح ما قلناه.

(أ) يتمثل الثبات في مثل قوله تعالى في وصف مجتمع المؤمنين: (وأمرُهم شورى بينهم)[٢] وفي قوله لرسوله: (وشَاوِرهُم في الأمر)[٣] فلا يجوز لحاكم، ولا لمجتمع، أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية، ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون، بالتسلط والجبروت.

وتتمثل المرونة، في عدم تحديد شكل معين للشورى، يلتزم به الناس في كل زمان وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدي، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال. فيستطيع

---

(١) اغاثة اللهفان جـ ١ ص ٣٤٦، ٣٤٩.
(٢) الشورى: ٣٨.
(٣) آل عمران: ١٥٩.

المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب حالهم وأوضاعهم، وتلائم موقعهم من التطور، دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد.

(ب) يتمثل الثبات في قوله تعالى: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[1]، (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك)[2]. فأوجب التقيد بالعدل والالتزام بكل ما أنزل الله، والحذر من اتباع الأهواء، وكل هذا مما لا مجال للتساهل فيه، فهو يمثل جانب الثبات قطعاً في مجال الحكم والقضاء. وتتمثل المرونة في عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضي. وهل يكون من درجة أو أكثر؟ وهل يسير على أسلوب القاضي المفرد أم على أسلوب المحكمة الجماعية؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات وأخرى للمدنيات.. الخ. كل هذا متروك لاجتهاد أولي الأمر، وأهل الحل والعقد في مثل هذه الأمور، وليس للشارع قصد فيه إلا إقامة العدل، ورفع الظلم، وتحقيق المصلحة، ودرء المفسدة.

لقد اهتم الشارع بالنص على المبدأ والهدف، ولكنه لم يعتن بالنص على الوسيلة والأسلوب، وذلك ليدع الفرصة، ويفسح الطريق للإنسان كي يختار لنفسه الأسلوب المناسب، والصورة الملائمة لزمنه وبيئته، ووضعه وحالته.

(ج) يتمثل الثبات في قوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء)[3].

وتتمثل المرونة في الاستثناء من هذا الحكم عند الضرورة إذ قالت

---

(١) النساء: ٥٨.
(٢) المائدة: ٤٩.
(٣) آل عمران: ٢٨.

الآية: (إلا أن تتقوا منهم تُقاة)[1] ومثله: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[2] ونحوه: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)[3].

فهذه الاستثناءات وأمثالها في كتاب الله أعطت فسحة لمن تقهره الظروف الشخصية والاجتماعية، فلا يقدر على الصمود والثبات على القاعدة الأصلية في السلوك، ولكن الخطر كل الخطر، أن تتحول الاستثناءات إلى قواعد، وتصبح هي الأصل في التفكير أو السلوك.

(د) يتمثل الثبات في قوله تعالى: (حُرِّمت عليكُم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخَنِقة والموقُوذة والمتردِّية والنَّطيَحةُ، وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكَّيتُم، وما ذُبِحَ على النُّصُب، وأن تستقسموا بالأزلام، ذلكم فِسق، اليوم يئس الذين كفروا من دِينكم، فلا تَخشَوْهم واخْشَوْن، اليومَ أكملتُ لكْم دِينَكُم، وأتممتُ عليكُم نِعمتي، ورضيتُ لَكُم الإسلام دينا)[4].

وتتمثل المرونة في قوله بعدها: (فمن اضْطُرَّ في مخمصةٍ غير مُتَجَانِف لإثم فإن الله غفور رحيم)[5] فقرر بذلك مبدأ «رعاية الضرورات» ولكنه لم يطلق فيه العنان لمن أراد، بل قيده بقوله: (غير متجانف لإثم)، أي: غير مائل للحرام والتوسع فيه كقوله في الآيات الأخرى: (غَيْر باغٍ ولا عَاد)[6]، أي: غير باغ على غيره، ولا متعد قدر الضرورة. وهذا مقيد لمبدأ الضرورة حتى لا يسترسل الناس في الحرام باسمها. ومن ذلك أخذ مبدأ «ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها»[7].

---

(١) آل عمران: ٢٨.
(٢) النحل: ١٠٦.
(٣) النساء: ١٤٨.
(٤) المائدة: ٣.
(٥) المائدة: ٣.
(٦) البقرة: ١٧٣، والأنعام: ١٤٥، والنحل: ١١٥.
(٧) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم ص ٤٣.

(هـ) يتمثل الثبات في التحريم البات للتخريب والإفساد في الأرض بمثل قوله تعالى: (ولا تُفسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها)[1]، (ولا تَعثَوا في الأرض مُفسدين)[2] وهذا مبدأ عام.

وتتمثل المرونة في استثناء الظروف الحربية ومقتضيات التنكيل بالعدو، وإجباره على التسليم بأقل الخسائر الممكنة، وذلك في قوله تعالى: (ما قَطعتم من لِينة أو تركتُموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليُخزيَ الفاسقين)[3]. وقد نزلت هذه الآية الكريمة في حصار النبي - ﷺ - ليهود بني النضير، وقطعه بعض نخيلهم، فشنع اليهود بذلك وقالوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على من يصنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ فكانت الآية رداً عليهم بأن ذلك بإذن من الله وليخزي الفاسقين.

(و) يتمثل الثبات في رفض القرآن الكريم للاجتهاد والرأي إذا كان في مقابلة نص محكم، لأن رأي المخلوق لا يقابل حكم الخالق... ولهذا أنكر الكتاب العزيز على الذين استحلوا الربا تشبيهاً له بالبيع، مع أن الله أحل هذا وحرم ذاك، فلا مجال لقياس ولا نظر حينئذ. وفي ذلك يقول تعالى: (ذلك بأنهم قالوا إنَّما البيعُ مِثْل الربا، وأحل اللهُ البيع وحرَّم الربا)[4].

على حين تتمثل المرونة في إقرار الاجتهاد في الأمور القضائية ونحوها مما تتفاوت في فهمه العقول، وتختلف التقديرات. وفي هذا جاء قوله تعالى: (وداوود وسليمان إذ يحكُمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهَّمناها سليمان، وكلاً آتينا حُكماً وعِلماً)[5]. فخص بالفهم أحدهما، وهو سليمان الذي وفق لإصابة المحز

(١) الأعراف: ٥٦.
(٢) البقرة: ٦٠، وهود. ٨٥.
(٣) الحشر: ٥.
(٤) البقرة: ٢٧٥
(٥) الأنبياء: ٧٨، ٧٩.

وأثنى على كل منهما بالحكم والعلم، وإن أخطأ أحدهما، لأنه تحرى واجتهد في قضية محتملة.

الثبات والمرونة في الهدي النبوي:

واذا تأملنا في السنة المطهرة ـ قولاً وفعلاً وتقريراً ـ وجدناها حافلة بشتى الأمثلة والدلائل التي يتمثل فيها الثبات والمرونة جنباً إلى جنب.

(أ) يتمثل الثبات في رفضه ـ ﷺ ـ التهاون أو التنازل في كل ما يتصل بتبليغ الوحي أو يتعلق بكليات الدين، وقيمه، وأسسه العقائدية والأخلاقية.

ومهما حاول المحاولون أن يثنوا عنانه عن شيء من ذلك بالمساومات، أو التهديدات، أو غير ذلك من أنواع التأثير على النفس البشرية، فموقفه هو الرفض الحاسم، الذي علمه إياه القرآن في مواقف شتى. فحين عرض عليه المشركون، أن يلتقوا في منتصف الطريق، فيقبل شيئاً من عبادتهم ويقبلوا شيئاً من عبادته، لو يعبد آلهتهم مدة، ويعبدوا إلهه مدة كان الجواب الحاسم يحمله الوحي الصادق في سورة قطعت كل المساومات وحسمت كل المفاوضات، وهي قوله تعالى: (قل يا أيها الكافرون. لا أعبُد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينُكُم ولي دين)[1].

ولما تلا عليهم آيات الله بينات، منكرة عليهم شركهم وعنادهم، ناعية ضلالهم وجحودهم. قالوا له ﷺ: (ائت بقرآن غير هذا أو بدِّلْه)[2] فكان الرد القاطع، تلقيناً من الله تعالى لرسوله: (قُل: ما يكون لي أن أبدِّلَهُ من تلقاء نفسي، إن أتَّبع إلا ما يوحى إليَّ، إني أخاف إن عَصَيتُ ربي عذاب يوم عظيم. قُل: لو شاء الله ما تَلوتُهُ عليكم ولا أدراكم به، فقد لَبثتُ فيكم عُمُراً من قَبلِهِ، أفلا تَعقِلُون؟)[3].

---

(١) سورة الكافرون.
(٢) يونس: ١٥.
(٣) يونس: ١٥، ١٦.

وهكذا تعلم - ﷺ - من وحي الله: أن لا تنازل ولا تساهل في أمور العقيدة وما يتصل بها.

ولما جاءه عتبة بن ربيعة، يتحدث بلسان قريش، ويعرض عليه أموراً يحرص عليها طلاب الدنيا لعله يقبلها أو يقبل بعضها، ويتنازل عن دعوته التي أقضت مضاجعهم، وقال له فيما قال: إن كنت تريد يا ابن أخي فيما جئت من هذا الأمر - الذي فرق جماعتنا - مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك.

فلما فرغ من عرضه، قال له النبي - ﷺ - أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: فاسمع مني. فتلا عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقُل: أنذرتُكم صاعِقة مثل صاعقة عاد وثمود)[1]. فما أن سمعها الرجل، حتى خيل إليه أن الصاعقة تكاد تنزل عليه وعلى قومه، فقال: أنشدك الله والرحم يا ابن أخي أن تكف عن هذا.

ويوم حاولت قريش الضغط على عمه أبي طالب مرة بعد مرة، ليضغط هو بدوره على ابن أخيه، عسى أن يثنيه عن دعوته، أو يخفف من حماسه وحرارته، حتى إنهم هددوه مرة أن ينازلوه وبني هاشم وجهاً لوجه، إلى أن يهلك أحد الفريقين، أو يكف محمد عن الآلهة، وتضليل الآباء، وتسفيه الأحلام. وضعف أبو طالب يوماً أمام هذا التهديد، فعرض على ابن أخيه أن ينظر في مطالبهم ويسمع منهم، وقال له: لا تحملني من الأمر ما لا أطيق. وظن رسول الله - ﷺ - من لهجة عمه أنه خاذله، وتاركه لقريش، فاغرورقت عيناه بدموع كانت تعبيراً عن الإصرار والثبات الفارع، وقال كلمته التاريخية:

«والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

---

(١) فصلت: ١٣.

ومثل ذلك موقفه من بعض قبائل العرب - بني عامر بن صعصعة[١] حينما عرض عليهم دعوته في مكة، في أحد مواسم الحج، فقبلوا أن يدخلوا في دينه وينصروه ويمنعوه، على أن يكون لهم الأمر من بعده، فرفض هذا الإيمان التجاري الرخيص قائلاً: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء». فقال قائلهم: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك: فأبوا عليه. ولم يبال - ﷺ - بإبائهم - ومثل ذلك أيضاً، موقفه - ﷺ - من كذاب بني حنيفة (مسيلمة بن حبيب)، الذي ادعى النبوة في قومه، وكتب إليه (من مسيلمة إلى محمد رسول الله، سلام عليك أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك. وإن لنا نصف الأرض. ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون).

فكتب إليه رسول الله - ﷺ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين)[٢].

وهذا هو الثبات العقدي الصلب الذي لا يقبل غيره في باب العقائد والمبادىء.

وفي مقابل ذلك، نجد مرونة واسعة في مواقف السياسة و «التكتيك» ومواجهة الأعداء، بما يتطلبه الموقف المعين، من حركة ووعي وتقدير لكل الجوانب والملابسات، دون تزمت أو تشنج أو جمود.

نجده في يوم الأحزاب مثلاً يأخذ برأي (سلمان) في حفر الخندق حول المدينة، ويشاور بعض رؤساء الأنصار في إمكان إعطاء بعض المهاجمين مع قريش جزءاً من ثمار المدينة، ليردهم ويفرقهم عن حلفائهم، كسباً للوقت إلى أن يتغير الموقف.

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والأبياري وشلبي جـ ٢ ص ٦٦ ط ثالثة، دار إحياء التراث.
(٢) المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٤٧.

ويقول لنعيم بن مسعود الأشجعي - وقد أسلم، وأراد الانضمام إلى صفوف المسلمين - إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت فيقوم الرجل بدور له شأنه في التفريق بين قريش وغطفان ويهود بني قريظة.

وفي يوم الحديبية تتجلى المرونة النبوية بأروع صورها.

تتجلى في قوله ذلك اليوم: «والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»

وفي قبوله - ﷺ - أن يكتب في عقد الصلح: «باسمك اللهم» بدل (بسم الله الرحمن الرحيم) وهي تسمية رفضها قريش.

وفي قبوله - ﷺ - أن يمحو كلمة «رسول الله» بعد اسمه الكريم، على حين رفض (علي) رضى الله عنه أن يمحوها بعد كتابتها.

وفي قبوله من الشروط ما في ظاهره إجحاف بالمسلمين، وإن كان في عاقبته الخير كل الخير.

والسر في هذه المرونة هنا، والتشدد في المواقف السابقة: أن المواقف الأولى تتعلق بالتنازل عن العقيدة والمبدأ، فلم يقبل فيها أي مساومة أو تساهل، ولم يتنازل قيد أنملة عن دعوته. أما المواقف الأخيرة فتتعلق بأمور جزئية، وبسياسات وقتية، أو بمظاهر شكلية، فوقف فيها موقف المتساهل.

(ب) يتمثل الثبات والمرونة معاً في موقفه - ﷺ - من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام - ولكنهم سألوه أن يدع لهم (الطاغية) - وهي (اللات) التي كانوا يعبدونها في الجاهلية - ثلاث سنين فأبى رسول الله - ﷺ - ذلك عليهم. فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها.

وقد كانوا سألوه مع ترك (الطاغية)، أن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أوثانهم بأيدهم فقال رسول الله - ﷺ -: «أما كسر أوثانكم

بأيديكم فسنعفيكم منه وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه »[١].

فهو ﷺ أمام العقائد، والمبادىء لا يتنازل ولا يترخص ولا يتسامح، كما في أمر (الطاغية) وأمر الصلاة. وأما في الكيفيات والجزئيات ففيها متسع للترخص والمسامحة كما في كسر الأوثان بأيديهم فهو أمر لا يتعلق بالمبدأ، بل بطريقة التنفيذ.

(جـ) يتمثل الثبات في موقفه - ﷺ - من القرشية المخزومية التي سرقت، ومحاولة قريش تخليصها من العقوبة عن طريق الوساطة، والشفاعة، وتوسلهم إلى الرسول بحبه وابن حبه «أسامة بن زيد» وغضبه - ﷺ - في ذلك، وقيامه بينهم خطيباً: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» رواه الشيخان.

وتتمثل المرونة في قوله ﷺ فيما رواه أبو داوود: «لا تقطع الأيدي في الغزو» رعاية لحال الحرب، خشية أن يفتن الجاني ويلحق بالكفار والعياذ بالله.

ومثل ذلك قوله: «ادرؤوا الحدود ما استطعتم، ومن وجدتم له مخرجاً فخلوا سبيله، ولأن يخطىء الإمام في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[٢].

(د) يتمثل الثبات في تشديده ﷺ في أداء فرائض الله، وإقامة شعائره التعبدية من الصلاة والزكاة والصيام وغيرها. حتى إنه ليجعل الفارق بين الإسلام والشرك ترك الصلاة، وحتى إنه ليعلن: «إن من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»، بل إن من تهاون في بعض شروط الصلاة - وهو يؤديها - يعذب في قبره، كذلك الذي لم يكن يستبرىء من بوله. كما روى ذلك الشيخان.

ونجد أنه يهم أن يحرق على قوم بيوتهم يتخلفون عن الجماعات ويسأله

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والابياري وشلبي جـ ٤ ص ١٨٤، ١٨٥ طبعة ثالثة دار احياء التراث.
(٢) رواه الحاكم.

رجل أعمى ليأذن له بالصلاة في بيته فيقول له: «أتسمع النداء»؟ فيجيب: نعم. فيقول: «لا أجد لك رخصة» رواه مسلم.

وفي الصيام يروي عنه ابن عباس: «ثلاث هن عرا الدين، وقواعد الإسلام، عليهن أسس الإسلام، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم: شهادة إلا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان» رواه أبو يعلى بإسناد حسن.

ويروي عنه ابو هريرة: «من أفطر من رمضان من غير رخصة ولا مرض، لم يقضه عنه صوم الدهر، وإن صامه» رواه أصحاب السنن وابن خزيمة في صحيحه.

وفي مقابل هذا التشدد، نجد مرونة سمحة، تتمثل في تشريع الرخص في الصلاة والصيام، مثل رخص: المرض والسفر، والخطأ والنسيان والإكراه، وعموم البلوى.. وغير ذلك.

ومن ذلك قصر الصلاة الرباعية ـ بأن تصلى اثنتين ـ في السفر. ومثله الجمع بين الصلاتين، كما فعل ﷺ في غزوة تبوك وغيرها، وكذلك الجمع في حالة المطر أو الخوف.

وأكثر من ذلك الجمع في غير سفر ولا مطر، كما روى ذلك ابن عباس عنه ﷺ. فلما سئل عن سبب ذلك أو حكمته، قال: أراد ألا يحرج أمته. فالحكمة إذن هي رفع الحرج.

ومن ذلك تشريع التيمم عند فقد الماء، أو التضرر باستعماله. ومن ذلك إباحة الفطر للمريض والمسافر وكذلك للحامل والمرضع، والشيخ الكبير، والمرأة العجوز، وأمره المجاهدين إذا واجهوا العدو أن يفطروا ليكون ذلك أقوى لهم.

ومنه أمره لمن أكل أو شرب ناسياً صومه: أن يتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه. ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: «بينما نحن

جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله... هلكت قال: مالك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم فقال: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال لا. قال: هل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا قال. اجلس. فأتي النبي ﷺ - بفرق فيه تمر، قال: أين السائل؟ قال: أنا. قال: خذ هذا فتصدق به. فقال: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي - ﷺ - حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك».

فهنا نجد النبي - ﷺ - راعى حال الرجل، فتحمل عنه الإطعام كفارة لجنايته ثم رخص له في النهاية أن يطعمه أهله. وبهذا عاد يحمل بدل العقوبة مكافأة، تقديراً لظروفه الشخصية والعائلية وبخاصة أنه جاء تائباً نادماً معترفاً بذنبه.

(هـ) يتمثل الثبات في إنكاره - ﷺ - على من اشترط شرطاً مخالفاً لحكم الشرع في عقد، قال: «ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، فأيما شرط كان ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مئة شرط»[1].

وتتمثل المرونة في إقرار كل شرط يتفق عليه المتعاقدان أو المتعاقدون ما دام لم يخالف نصاً أو قاعدة شرعية.. وبعبارة أخرى لم يحل حراماً أو يحرم حلالاً - وفي هذا جاء الحديث:

«المسلمون على شروطهم»[2]. وفي هذا يدخل كل عقد يستحدثه المسلمون إذا لم تكن فيه مخالفة للشريعة. كما هو اتجاه الحنابلة واختيار ابن تيمية وابن القيم.

(و) يتمثل الثبات في رفض القضاء إذا كان على جهل وإن أصاب

---

(١) رواه البخاري في كتاب «العتق» من صحيحه عن عائشة.

(٢) رواه أحمد، وأبو داوود، والحاكم عن أبي هريرة قال ابن حجر: ضعفه ابن حزم، وعبدالحق، وحسنه الترمذي (الفيض جـ ٦ ص ٢٧٢).

صاحبه الحق اعتباطاً. لأنه لم يأت الأمر من بابه، وإنما هي رمية من غير رام، ومثل ذلك القضاء بما يخالف الحق، اتباعاً للهوى، وحباً للدنيا، وفي هذا جاء الحديث: «قاضيان في النار، وقاض في الجنة: فرجل عرف الحق وقضى به فذلك في الجنة. ورجل عرف الحق وقضى بغيره، فذلك في النار، ورجل قضى على جهل فذلك في النار».

وتتمثل المرونة في إقراره - ﷺ - لمعاذ على اجتهاده في القضاء بعد أن لا يجد نصاً في الكتاب ولا السنة. وفي إقراره لأصحابه على اجتهادهم في قضية صلاة العصر في بني قريظة، وأخذ فريق بظاهر الأمر، وفريق بالمقصود منه، وعدم تعنيفه لأي منهما.

وفي قوله «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فقرر بذلك مبدأ «الاجتهاد» لاستنباط الحكم الشرعي لكل واقعة تحدث، إما من نص أو من قياس عليه، أو غير ذلك من اعتبار المقاصد والمصالح التي جاء بها الشرع، كما قرر أن المجتهد في ذلك مأجور مثاب عند الله، وإن أخطأ محز الصواب.

(ز) يتمثل الثبات في رفضه - ﷺ - للابتكار والاختراع، وكل فنون الابتداع فيما يتعلق بالعبادات، وصور التقرب إلى الله تعالى، لأن الأصل في العبادات الحظر والتوقيف، فلا يعبد الله إلا بما شرعه وأذن به، لا بما تستحسنه العقول، وتسيغه الأهواء. فهذا هو باب الغلو وأصل التحريف والتزييف في الأديان.

ولا غرو أن أغلق الرسول - ﷺ - هذا الباب بإحكام وإصرار، بمثل قوله فيما رواه الشيخان عن عائشة: «من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد» وفيما رواه أحمد ومسلم وعلقه البخاري عنه أيضاً: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» وفيما رواه أحمد، وأبو داوود والترمذي وقال: حسن صحيح، من حديث العرباض بن سارية: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

وتتمثل المرونة في تشجيع الابتكار والاختراع في أمور الدنيا، مثل وسائل المواصلات التي يشير إليها قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير: (ويخلُق ما لا تعلمون)[1] ومثل أدوات الحرب التي تدخل في قوله تعالى (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة)[2] ومثل صناعة السدود العظيمة التي تشير إليها قصة (ذي القرنين) في سورة الكهف، وسائر الصناعات الحربية والمدنية، التي تشير إليها الآية الكريمة (وأنْزلنَا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس)[3].

ولهذا رأيناه - ﷺ - يحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب، ويستخدم المنجنيق في غزوة الطائف، ويحث على الإنتاج الحربي حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامي به في استحقاق المثوبة عند الله، ويحذر الأمة أن تكتفي بالزرع وتتبع أذناب البقر. كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأي أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة، التي لم ينزل الوحي ليعلمها للناس، وإنما تركت لعقولهم وتجاربهم، يتعلمونها بدافع حاجتهم وحرصهم على مصالحهم ومعايشهم.

وأظهر مثل لذلك قصة (تأبير النخل وتلقيحه) حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة، وهم أهل نخل وزرع، فسألهم النبي - ﷺ - عن صنيعهم فأخبر به، فقال: ما أراه يصلح. فبلغهم قوله عليه السلام وظنوه وحياً وتشريعاً، وتركوا التلقيح، فلم يصلح الثمر. فلما علم بذلك النبي - ﷺ - قال: «إنما أنا بشر. إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر» وفي رواية: «إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم» رواه مسلم.

(ح) يتمثل الثبات في رفضه - ﷺ - الغلو في الدين، وإخراج الإسلام عن وسطيته واعتداله إلى التطرف والتنطع، سواء أكان في العقائد أم في العبادات أم الأخلاق أم الشرائع.

---

(١) النحل: ٨.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الحديد: ٢٥.

ومن ثم رأيناه ـ ﷺ ـ يحذر من الغلو بعبارات شديدة مؤكدة غاية التأكيد فيقول: «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» رواه مسلم.

ولهذا رفض الغلو في تعظيمه، حماية لحمى التوحيد من أية شائبة للشرك ولما قال له بعض الناس: ما شاء الله وشئت، قال:« بئس الخطيب أنت. قل: ما شاء الله وحده».

وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، ولكن قولوا: عبدالله ورسوله» متفق عليه.

ولم يكن يتهاون أدنى تهاون فيما يتعلق بالتوحيد والشرك، ومن ثم حمل على تعليق التمائم وقال: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له». وقال «من تعلق تميمة فقد أشرك».

وفي مجال السلوك يقول: «هلك المتنطعون. هلك المتنطعون. هلك المتنطعون» ـ والمتنطعون هم المتزمتون المتطرفون.

ولما بلغه أن رهطاً من أصحابه اتجهوا إلى الغلو في التعبد لربهم، على حساب حقوق أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، حتى إن أحدهم عزم أن يصوم الدهر فلا يفطر، والثاني أن يقوم الليل فلا ينام، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج ـ غضب لذلك، وأنكره بقوة وخطب فيهم قائلاً: «أما إني أتقاكم لله، وأخشاكم له، ولكن أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» رواه البخاري.

وقد أراد بعض الصحابة أن يخصوا أنفسهم، قطعاً لشهوة الجنس، واستأذنوه في ذلك فلم يأذن لهم.

وتتمثل المرونة في طريقة الدعوة، وسياسة الناس، وتعليم الخلق، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، ولهذا أمر بالتيسير والتبشير، ونهى عن التعسير والتنفير، فيقول في الحديث: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

وفي حادثة الأعرابي الذي جاء بسذاجة البداوة، يريد أن يبول في جانب

من المسجد، فهمَّ به الصحابة وأفزعوه، قال لهم ﷺ: «لا تزرموه - أي: لا تقطعوا عليه بوله - وصبوا عليه ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين».

وكان من أخلاقه التي وصف بها - ﷺ - أنه: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما. فإذا كان إثماً كان أبعد الناس عنه».

ومن ذلك انه كان يجيب عن السؤال الواحد، باجابات مختلفة رعاية لحال السائلين، وظروف كل منهم.

ومن ذلك رعايته للضعف البشري في الناس، ومعاملتهم على أنهم آدميون خطاءون، لا ملائكة مطهرون. ولهذا حينما جاءه حنظلة شاكياً من نفسه، ومن تغير حاله في بيته وبين زوجه وأولاده عن حاله عند النبي - ﷺ - متهماً نفسه بالنفاق، قال له: يا حنظلة، لو دمتم على الحال التي تكونون عليها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات، ولكن يا حنظلة.. ساعة وساعة.

ومن ذلك سماحه بالغناء في بيت عائشة، ونهيه أبا بكر عن انتهار الجاريتين المغنيتين وقوله: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد».

ومن ذلك إتاحته لعائشة أن تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بالحراب في مسجده - ﷺ - حتى تكون هي التي تنصرف، تقديراً لعواطفها وصغر سنها، حتى كان يسرب إليها من بنات الأنصار من يلعب معها ويسليها.

ومن مرونته - ﷺ - تقديره لكل وجهة نظر يبديها ذو رأي من أصحابه. وإن خالفت رأياً له - ﷺ - أو أمراً صدر منه، كما في إذنه - ﷺ - لأبي هريرة أن يبشر الناس، أن: «من قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة» فلما عارض ذلك عمر خشية أن يتكل الناس، أقره على وجهة نظره، وألغى إذنه السابق لأبي هريرة، كما في صحيح مسلم.

الثبات والمرونة في هدي الصحابة والراشدين:

وإذا طالعنا هدي الصحابة - رضي الله عنهم - وهم تلاميذ مدرسة

النبوة، وأفقه الناس للإسلام، وأحرصهم على تطبيقه، والوقوف عند حدوده وبخاصة الخلفاء الراشدين، الذين أمرنا أن نستن بسنتهم[1] ونعض عليها بالنواجذ - وجدنا صحائف مشرقة تتضح فيها مزية الجمع بين الثبات والمرونة بلا غلو ولا تقصير

(أ) يتمثل الثبات في موقف (أبي بكر) - رضي الله عنه - ممن امتنعوا عن أداء فريضة الزكاة، وقالوا: نصلي ولا نزكي، ورفضه أن يفرق بين العبادة البدنية (الصلاة)، والعبادة المالية (الزكاة)، وهما قرينتان في الكتاب والسنة. وفي هذا قال كلمته الخالدة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها لرسول الله - ﷺ - لقاتلتهم على منعها .

وتتمثل المرونة في موقفه من سيف الله، «خالد بن الوليد»، حين أخطأ فقتل مالك بن نويرة، ومن معه في حروب الردة، ولم يسمع لغضبة عمر وأبي قتادة الأنصاري، وثورتهما على خالد في قتله قوماً كانوا مقرين بالإسلام.

وحين ألح (عمر) على (أبي بكر) في شأن خالد، قال له: هبه يا عمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد. ولم يكف عمر هذا الجواب، وظل يلح على أبي بكر، فلما ضاق ذرعاً بالحاحه قال: يا عمر، ما كنت لأشيم «أغمد» سيفاً سله الله على الكافرين.

فقد يبدو أن أبا بكر كان يرى أن خطأ خالد، قد يهون في جانب ما له من فضائل، وما أجرى الله على يديه من انتصارات بالأمس، وما لا يزال يتوقع أن يتحقق على يديه من معارك الغد، والأخطار لا زالت تحدق بالجماعة المسلمة. وقد قال الرسول - ﷺ - في شأن «حاطب بن أبي بلتعه» في فتح مكة، حين نقل أخبار تحركات الرسول بجيشه إلى المشركين وهو عمل يعد

(١) ليس المراد بسنة الراشدين: أقوالهم الجزئية: وآراءهم الفردية، في الفقه، أو التفسير، أو ما شابه ذلك بل «منهجهم العام» في فهم روح الإسلام، وتطبيق أحكام القرآن والسنة، أي: اتباع المنهج الفكري، والعملي لهم. وهو كما سنرى منهج متوازن، يقوم فيما يقوم - على الثبات على الأصول والغايات، والمرونة في الفروع والوسائل.

من أعمال الخيانة: ما يدريكم؟ لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم.

فدل هذا الموقف النبوي أن السوابق المشرفة تشفع لأصحابها. فهذا هو سر مرونة أبي بكر في هذا الموقف، على عكس تشدده وصلابته في قتال مانعي الزكاة.

لأن الموقف الأول، يتصل بفريضة أساسية لا يجوز التنازل عنها، أو المساومة عليها.

أما الآخر فيتصل بموقف جزئي محتمل للتأويل، وفي ظروف غير عادية.

(ب) يتمثل الثبات في موقف «عمر» - رضي الله عنه - من «جبلة بن الأيهم» الأمير الغساني حين لطم رجلاً من سوقة المسلمين، وأبى الرجل إلا أن يقتص منه، فطلب منه عمر أن يرضيه أو يقبل القصاص ولا بد، وفر الأمير المستكبر مرتداً، حتى لا يقتص منه واحد من عامة الناس. ولم يبال به عمر، لأن التفريط في مبدأ العدل والمساواة أمام الشرع أضر من ارتداد شخص ما عن الإسلام، واحترام هذا المبدأ وتطبيقه أهم من كسب واحد إلى الإسلام مهما كان مركزه الاجتماعي.

وتتمثل المرونة في تأخير (عمر) فريضة الزكاة عن أرباب الماشية من الإبل والبقر والغنم في عام الجدب، تيسيراً على الناس، على أن يأخذها منهم بعد أن تتحسن ظروفهم، وفي إيقافه قطع يد السابق في المجاعة، عملاً بمبدأ «درء الحدود بالشبهات» وقد أخذه من السنة النبوية.

ومثل ذلك مرونته في موقفه من نصارى بني تغلب، وقد قيل له: إن القوم لهم بأس وشدة، وهم عرب يأنفون من الجزية، فلا تعن عليك عدوك بهم، وخذ منهم الحزية باسم الصدقة، وكانوا هم طلبوا أن تؤخذ منهم الصدقة مضاعفة، على ألا تسمى جزية. وقد امتنع (عمر) عن ذلك أول

الأمر، ثم وافق عليه، لما فيه من جلب المصلحة ودرء المفسدة[1].

وروي عنه أنه قال: هؤلاء حمقى، رضوا بالمعنى وأبوا الاسم[2]، ومثل ذلك من عمر موقفه من بعض من ارتدوا عن الإسلام لظروف خاصة، فقد روى البيهقي في (السنن الكبرى) بسنده عن أنس بن مالك، قال: لما نزلنا على (تستر) فذكر حديثاً في الفتح وفي قدومه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال عمر: يا أنس، ما فعل الرهط الستة من بكر بن وائل، للذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين؟.

قال أنس: فأخذت به في حديث آخر - أي ليشغله عنهم -.

قال: ما فعل الرهط الستة الذين ارتدوا عن الإسلام، فلحقوا بالمشركين من بكر بن وائل؟

قال أنس: يا أمير المؤمنين، قتلوا في المعركة.

قال: إنا لله وإنا إليه راجعون!

قلت: يا أمير المؤمنين، وهل كان سبيلهم إلا القتل؟

قال: نعم، كنت أعرض عليهم الإسلام، فإن أبوا استودعتهم السجن.[3]

ومعنى هذا الأثر: أن (عمر) لم ير عقوبة القتل لازمة للمرتد في كل حال، وأنها يمكن أن تسقط أو تؤجل، إذا قامت ضرورة لإسقاطها أو تأجيلها، والضرورة هنا، حالة الحرب، وقرب هؤلاء المرتدين من المشركين وخوف الفتنة عليهم، ولعل عمر قاس هذا على ما جاء عن النبي - ﷺ - في

---

(١) انظر: الخراج، لكل من أبي يوسف:١٤٣ ،يحيى بن آدم ٦٦ ، ٦٧ ، السلفية، والأموال لأبي عبيد ص: ٥٤١.

(٢) المغنى جـ ٩ ، ص:٣٣٦ ط العاصمة بالقاهرة

(٣) السنن الكبرى للبيهقي جـ ٨ ص:٢٠٧ ، وتلخيص الحبير للحافظ ابن حجر جـ ٤ ص ٥٠ ، والمحلي لابن حزم جـ ١١ ص ٢٣١ ط الإمام، وقد ذكر ابن حزم هذا الأثر حجة لقول من قال: يستتاب المرتد أبداً دون قتل.

قوله: «لا تقطع الأيدي في الغزو» وذلك خشية أن تدرك السارق الحمية فيلحق بالعدو.

وهناك احتمال آخر. وهو أن يكون رأي (عمر) أن النبي - ﷺ - حين قال: «من بدل دينه فاقتلوه» قالها بوصفه إماماً للأمة، ورئيساً للدولة، أي: أن هذا قرار من قرارات السلطة التنفيذية، وعمل من أعمال السياسة الشرعية، وليس فتوى وتبليغاً عن الله، تُلزم به الأمة في كل زمان ومكان وحال. فيكـون قتل المرتد وكل من بدل دينه، من حق الإمام، ومن اختصاصه وصلاحية سلطته، فإذا أمر بذلك نفذ، وإلا فلا.

على نحو ما قال الحنفية والمالكية في حديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وما قال الحنفية في حديث «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[1].

لعل الاحتمال الأول هو الأرجح، ولعل الاحتمال الثاني هو ملحظ ما نقل عن الفقيه التابعي إبراهيم النخعي في حبس المرتد أبداً حتى يتوب.

هذه دلائل شتى، وأمثلة متنوعة، من نصوص الإسلام وأحكام شريعته، وهدي كتابه، وسنة نبيه، وسيرة خير القرون من أجياله، يتجلى فيها الثبات والمرونة جنباً إلى جنب، فلا تعارض ولا اصطدام، لأنه ثبات فيما يجب أن يبقى ويدوم، ومرونة فيما ينبغي أن يتغير ويتطور، ولا يجمد على حال واحدة.

الفقه الإسلامي بين الثبات والتطور:

ولا عجب بعد ما ذكرنا من هدي القرآن، وسنة الرسول، ومواقف الصحابة، من الثبات والمرونة - أن نجد الفقه الإسلامي، بمختلف مدارسه ومذاهبه، يسير في نفس هذا الاتجاه ثابتاً على الأصول والكليات، مرناً متطوراً في الفروع والجزئيات.

---

(١) انظر في ذلك: الأحكام في تمييز الفتاوي من الأحكام للقرافي ٨٦-١٠٦ بتحقيق عبدالفتاح أبي غدة، والفروق للقرافي ايضاً جـ ١، ص: ٢٠٥، ٢٠٩.

إنه لا يعطي المسلم حرية مطلقة في تنظيم حياته ولو على حساب عقائده وقيمه ومفاهيمه، كما أنه لا يقيده في كل شئونه بتشريعات مفصلة دائمة، لا يستطيع الفكاك منها.

فالفقيه المسلم، مقيد حقاً بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسنة. وهي المجزوم بثبوتها، القواطع في دلالتها، التي أراد الشارع الحكيم أن تلتقي عندها الأفهام، ويرتفع عندها الخلاف، وينعقد عليها الإجماع، فهي أساس الوحدة الفكرية والسلوكية، للمجتمع المسلم، وهي للأمة كالجبال للأرض تمسكها أن تميد، وتحميها أن تضطرب وتتزلزل، وهذا النوع من النصوص قليل جداً بالنسبة إلى سائر النصوص.

ومع هذا التقيد الملزم، يجد الفقيه المسلم نفسه في حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين، من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأي والنظر.

منطقة الفراغ التشريعي:

أما المنطقة الأولى، فهي ما يمكن تسميته: «منطقة الفراغ التشريعي» تلك المنطقة التي تركتها النصوص ـ قصداً ـ لاجتهاد أولي الأمر والرأي. وأهل الحل والعقد في الأمة، بما يحقق المصلحة العامة، ويرعى المقاصد الشرعية، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهي. وهي المنطقة التي يسميها بعض الفقهاء «العفو» تبعاً لما جاء في بعض الأحاديث «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. وتلا: (وما كان ربك نسيا)[1].

وفي حديث آخر: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[2].

---

(١) رواه البزار والحاكم وصححه ـ والآية من سورة مريم: ٦٤.

(٢) رواه الدارقطني، وحسنه النووي في الأربعين، ونوزع في ذلك كما في شرح هذا الحديث لابن رجب الحنبلي في كتاب (جامع العلوم والحكم).

فالحدود التي قدرها الشرع، لا يجوز اعتداؤها، مثل تحديد الطلاق الذي تجوز بعده الرجعة بمرتين، وتحديد عدة المطلقة بثلاثة قروء أو بوضع الحمل، وتحديد أنصبة الورثة في تركة الميت، وتحديد نصاب الزكاة ومقدار الواجب فيها، وكذلك العقوبات المقدرة بمئة جلدة، أو بثمانين، أو بقطع اليد ونحوها.

فلا يجوز لمجتهد ولا سلطان أن يغير هذه المعالم، ويتجاوز هذه المقدرات الشرعية.

ومثل ذلك الفرائض التي أوجبها الله كالعبادات الأربع التي هي أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ومثل ذلك الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وأداء الأمانات، والحكم بالعدل وغيرها.

فلا يجوز لأحد أن يسقط أو يلغي شيئاً من هذه الفرائض، أو يتساهل فيها، ففرضيتها ثابتة في شريعة الإسلام، لا تقبل نسخاً ولا تجميداً ولا تطويراً ولا يجوز أن تضيع في مجتمع مسلم.

وكذلك المحرمات اليقينية، التي أشرنا إليها من قبل، مثل: الشرك والسحر، والقتل، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، والزنى وشرب الخمر، والسرقة، وشهادة الزور، ونحوها.

فهذه كلها ثابتة، لا تلين للعصور، ولا يتهاون فيها يوماً، فيفتي بحلها مجتهد، أو يُرخص فيها حاكم، ولا يجوز أن تنتهك في مجتمع مسلم.

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات، فهي أمور مسكوت عنها، متروكة للاجتهاد، رحمة بالأمة، وتيسيراً وتوسعة عليها، وبهذا تجد أمامها مجالاً رحباً مرناً، تتحرك فيه بيسر وسهولة دون أن تشعر بالإثم في دينها، أو الحرج في دنياها.

أما كيف تملأ الأمة هذا «الفراغ التشريعي» أو «منطقة العفو» التي تركتها النصوص قصداً، كما قلنا، فهناك طرائق ومسالك عديدة يختلف في تقديرها وفي الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض، ومطلق ومقيد، ومقل ومكثر.

هناك القياس بقيوده وشروطه وإن خالف فيه بعض المعتزلة والظاهرية والإمامية.

هناك الاستحسان الذي أخذ به الحنفية والمالكية وجاء عن بعضهم: إنه تسعة أعشار العلم.

هناك الاستصلاح أو اعتبار المصلحة المرسلة، وهي التي لم يجىء نص خاص من الشارع باعتبارها ولا بإلغائها، واشتهر الأخذ بها عند المالكية، وإن كانت المذاهب الأربعة كلها قد أخذت بها عند التحقيق والتطبيق، كما يتضح ذلك بالقراءة والاستقراء لكتب كل مذهب.

هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه، ولهذا كان من القواعد الكلية الشرعية: أن العادة محكمة، وأن المعروف عرفاً كالمشروط نصاً. وقد قال أحد الناظمين في الفقه:

والعـرف في الشرع لـه اعتبـار لـذا عليـه الحكـم قـد يُدار

وهناك مصادر وأدلة أخرى لاستنباط الحكم الشرعي فيما لا نص فيه، يرجع إليها في كتب أصول الفقه.

منطقة النصوص المحتملة:

والثانية: منطقة النصوص المتشابهات، التي اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات، تتسع لأكثر من فهم، وأكثر من رأي، ما بين موسع ومضيق، وما بين قياسي وظاهري، وما بين متشدد ومترخص، وما بين واقعي ومفترض.

وفي كل هذا فسحة وسعة لمن أراد الموازنة والترجيح وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع، فقد يصلح رأي لزمن ولا يصلح لآخر، أو يصلح لبيئة ولا يصلح لأخرى، أو يصلح لحال ولا يصلح لغيره.

وهكذا نجد في النظام الإسلامي مواضع إجماعية لم يختلف فيها اثنان من علماء الأمة وهي الأسس الثابتة، التي يرتكز عليها بناء النظام الإسلامي، مثل ملكية الأرض للأفراد، وجواز استغلالها وشرعية توارثها، فهذا مما لم يخالف في ثبوته ومشروعيته أحد من فقهاء المسلمين.

ولكن إذا جئنا إلى طريقة استغلال الأرض، وجدنا مذاهب وأقوالاً شتى، يستند كل منها إلى أدلة شرعية محتملة للتضعيف والترجيح.

فهناك من يقول بمنع المزارعة، وبإباحة المؤاجرة استناداً إلى ما ورد في ذلك من آثار، وإلى المشروعية العامة للايجار والاستئجار في سائر الأشياء. ومنهم من عكس فأباح المزارعة لما صح من معاملة النبي لأهل خيبر على أساسه ولما فيها من المشاركة في المغنم والمغرم، ولكنه منع المؤاجرة لما فيها من مخاطرة بالبذور والنفقة والجهد دون فائدة محققة للمستأجر مع الربح المحقق للمالك، أما المزارعة ففيها اشتراك في الغنم والغرم قل أو كثر.

وهناك من يجيز المزارعة والمؤاجرة جميعاً، بشرط ألا تشتمل المزارعة على شرط فاسد، لأنه لم يصح عنده نهي مطلق عن هذه أو تلك.

وبعضهم يوجب في المؤاجرة أن يضع المالك من الأجرة في حالة الجوائح والآفات تصيب الزرع وفقاً لقدر الخسارة، لما جاء في الحديث أن النبي - ﷺ - أمر بوضع الجوائح.

وهناك من لا يجيز المزارعة ولا المؤاجرة جميعاً، ويوجب على المالك أحد أمرين:

إما أن يزرع أرضه بنفسه وأدواته.

وإما أن يعيرها لغيره ليزرعها بدون مقابل. أخذاً بحديث: «من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه». متفق عليه.

أية مرونة، وأية سعة، يجدها الفقيه المسلم، وبالتالي المجتمع المسلم إزاء هذه الآراء المتنوعة، وهذه الخصوبة الفقهية المثرية؟

إن لكل رأي من هذه الآراء مستنده الفقهي، ودليله الشرعي، ولكل منها وجهة معتبرة.

ويمكننا أن نأخذ بما نراه أرجح وأقوى وأدنى إلى تحقيق المصلحة بالنظر إلى ظروف مجتمعنا وعصرنا، دون أن ينكر علينا فقيه واحد، لأن من المتفق عليه: أنه لا إنكار على مجتهد في المسائل الاجتهادية.

فهذه هي شريعة الإسلام: لو شاء الله لجعل أحكامها كلها منصوصاً عليها نصاً قطعي الثبوت قطعي الدلالة، وبذلك لا يكون هناك مجال لاجتهاد أو استنباط، ولاختلاف المشارب وتعدد المدارس، وتطور الآراء، وتغير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والحال، وإنما هو حكم واحد ثابت مؤيد.

ولو شاء أيضاً، لجعل النصوص الشرعية كلها ظنية الثبوت، أو ظنية الدلالة، أو ظنيتها معاً، وبذلك لا يوجد حكم واحد ثابت مقطوع به، فضلاً عن الأمور التي لا نص فيها أصلاً. وفي هذا من البلبلة ما فيه، وهو مناف لحكمة إرسال الرسل، الذين أرسلهم الله بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويهدوهم إلى صراط مستقيم.

ولكن شاء الله أن يكون من مصادر هذا الدين وأدلته، القطعي اليقيني الذي لا يقبل النقاش ولا التغيير، ولا يحتمل أكثر من وجه، ولا يسع مسلماً أن يهمله أو يعرض عنه، وإلا كان ذلك طعناً في إيمانه بكتاب ربه، وسنة نبيه: (وما كان لمؤمِن ولا مُؤمِنة إذا قضى الله ورسُوله أمراً أن يكون لهم

الخِيَرةُ من أمرِهِم)[1]، (إنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا)[2].

كما شاء ـ سبحانه ـ أن يكون بجوارها المصادر الاجتهادية، والأدلة الظنية، ليتسع المجال للنظر والترجيح، وتتعدد مآخذ الاجتهاد، وطرائق الاستنباط، ومدارس الفكر، وفي ذلك كله نجد متسعاً أيَّ: متسع للتطور المحمود، بفضل هذه المرونة العجيبة التي تضمنتها مصادر الشريعة.

تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد:

ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين، في مختلف العصور أي غضاضة أو حرج في إعلان وجوب تغير الفتوى، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال.

يقول الإمام ابن القيم في فصل تغير الفتوى واختلافها بحسب ما ذكرناه:

«هذا فصل عظيم النفع جداً، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ـ ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»[3].

وكذلك كتب الإمام القرافي المالكي في كتابه «الأحكام» مبيناً أن استمرار الأحكام، التي مدركها العرف والعادة ـ مع تغير تلك العوائد ـ خلاف الإجماع وجهالة في الدين.

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) النور: ٥١.

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ٣.

كما عالج ذلك في كتابه (الفروق) بهذه الروح نفسها.

وفي القرن الثالث عشر الهجري، كتب علامة متأخري الحنفية «ابن عابدين» رسالته المشهورة (نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف) مستخلصاً أحكامها مما قرره علماء المذهب أنفسهم وأفتوا به في مختلف الأعصار.

وقد ذكر في هذه الرسالة النافعة: أن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولاً، للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد.

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد (إمام المذهب) في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه، لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم لقال بما قالوا به، أخذاً من قواعد مذهبه[1].

ومن أمثلة ما تغيرت فيه الفتوى والحكم بتغير البيئات، والأزمان، والأحوال:

ما وقع من عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ إذ كان والياً على المدينة، فكان يحكم للمدعي بدعواه، إذا جاء بشاهد واحد، وحلف اليمين، فيعد يمين المدعي قائمة مقام الشاهد الثاني فلما ولي الخلافة، وأقام في عاصمة الدولة بالشام لم يحكم إلا بشهادة رجلين، أو رجل وامرأتين فسئل في ذلك. فقال: لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة[2].

وما فعله عمر في الشام لا ينافي ما جاء عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قضى بشاهد ويمين، فإن قضاء النبي ـ ﷺ ـ بذلك يدل على جوازه ومشروعيته، ولا يدل على الوجوب والإلزام. فيجوز القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين في

(١) مجموعة رسائل ابن عابدين جـ ٢ ص: ١٢٥.

(٢) انظر: اصول التشريع للاستاذ علي حسب الله، ص: ٨٤، ٨٥، وراجع فصل اختلاف الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة في أعلام الموقعين جـ ٣ ص ٢٧ وما بعدها.

بعض الحالات، وتركه في حالات أخرى بناء على اعتبارات صحيحة كما فعل عمر بن عبدالعزيز.

كما أنه من المجازفة ـ وقد صح حديث الشاهد مع اليمين ـ أن يرد الحديث رداً مطلقاً، ويمنع العمل به في أي حال من الأحوال.

ومن الأمثلة أيضاً: ما ذكره شمس الأئمة (السرخسي) أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ كان يجوز القضاء بشهادة مستور الحال في عهد تابعي التابعين، اكتفاء بالعدالة الظاهرة، أما بعد هذا العصر فقد منع الصاحبان (أبو يوسف ومحمد) القضاء بشهادته، لانتشار الكذب بين الناس[1].

ويقول فقهاء الحنفية في مثل هذا الخلاف بين الإمام وصاحبه (اختلاف عصر وزمان، لا اختلاف حجة وبرهان).

وكان أبو حنيفة في أول عهد الفرس بالإسلام، وصعوبة نطقهم بالعربية، يرخص لغير المبتدع منهم بقراءة ما لا يقبل التأويل من القرآن في الصلاة باللغة الفارسية، فلما لانت ألسنتهم من ناحية. وانتشر الزيغ والابتداع من ناحية أخرى، رجع عن هذا القول[2].

ورووا عن العلامة الفقيه «أبي محمد بن أبي زيد القيرواني» صاحب الرسالة المشهورة في فقه المالكية، وشيخ المذهب في وقته، أنه اتخذ كلباً للحراسة في داره. فأنكر عليه بعضهم قائلاً: كيف تتخذه وقد كرهه مالك؟ فكان جوابه: لو كان مالك في زماننا لاتخذ أسداً ضارياً!

وفي كل مذهب من المذاهب المتبوعة، يجد الباحث أمامه أمثلة عديدة تغيرت فيها الفتوى من علماء المذهب، بتغير موجباتها، من الأمكنة والأزمنة والأحوال والعوائد.

وليس هذا بدعاً من قائليه، معاذ الله! بل له أصله من هدي رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه من بعده.

---

(١) نفس المصدر السابق نفس الملاحظة.
(٢) نفس المصدر السابق نفس الملاحظة.

روى ابن أبي شيبة بسنده[1] أن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال: ألمن قتل مؤمناً توبة؟ قال: لا، إلى النار. فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، فما بال هذا اليوم؟ قال: إني أحسبه مغضباً يريد أن يقتل مؤمناً. فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك.

رأى ابن عباس في عيني هذا الرجل الحقد، والغضب، والتوثب للقتل، وإنما يريد فتوى تفتح له باب التوبة بعد أن يرتكب جريمته، فقمعه وسد عليه الطريق، حتى لا يتورط في هذه الكبيرة الموبقة، ولو رأى في عينيه صورة امرىء نادم على ما فعل، لفتح له باب الأمل.

وقد روى سعيد بن منصور عن سفيان قال: كان أهل العلم إذا سئلوا عن القتال قالوا: لا توبة له. وإذا ابتلي رجل، (أي: قتل بالفعل) قالوا له: تب[2].

وفي هذا المعنى ما أخرجه أبو داوود عن أبي هريرة: أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - عن المباشرة للصائم - فرخص له.. وأتاه آخر فسأله عنها فنهاه، فإذا الذي رخص له شيخ، وإذا الذي نهاه شاب[3].

وأشهر من ذلك أن النبي - ﷺ - كان يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة. وذلك لاختلاف أحوال السائلين فهو يجيب كل واحد بما يناسب حاله، ويعالج قصوره أو تقصيره.

فقد وجدنا من يسأله عن وصية جامعة فيقول له: «لا تغضب».

وآخر يقول له: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

وآخر يقول له: «كف عليك لسانك».

وهكذا يعطي كل إنسان من الدواء ما يرى أنه أشفى لمرضه، وأصلح لأمره.

---

(١) قال الحافظ في التلخيص جـ ٤ ص: ١٨٧: رجاله ثقات.

(٢) «تلخيص الحبير» جـ ٤ ص: ١٨٧ بتعليق السيد عبدالله هاشم اليماني.

(٣) المصدر نفسه.

فهذا وما سبق أصل في تغيير الجواب، أو الفتوى بتغيير أحوال السائلين.

ومن هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: سئل النبي - ﷺ - «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[1].

فجعل الجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال بعد الإيمان.

وفي هذا المعنى جاءت أحاديث شتى تجيب السائلين بأن الجهاد لا يعدله عمل آخر إلا من استطاع أن يصوم الدهر فلا يفطر، ويقوم الليل فلا ينام.

ولكن البخاري نفسه روى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله.... نرى الجهاد أفضل العمل. قال: «لكن أفضل الجهاد حج مرور»[2] زيدت كلمة «لكن» بضم الكاف، وهو الأكثر على أنها خطاب تفسره وبكسرها مع مد اللام على أنها للاستدراك، والمراد واحد وهو أن الجهاد إن كان أفضل العمل فذلك في حق الرجال، أما النساء فأفضل جهاد لهن الحج المبرور. فهنا تغيرت فتواه وجوابه - ﷺ - لما كان السائل امرأة. إذ الشأن في حمل السلاح أن يكون للرجال. وهذا كله - وغيره كثير - أصل في تغيير الجواب أو الفتوى بتغير أحوال السائلين فكيف إذا تغير الزمان والمكان؟

موقف المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى:

بهذا كله، يظهر لنا وجه المجتمع المسلم، بين الملامح، واضح القسمات مميزاً بهذه الفضيلة البارزة في حياته، وهي: الجمع بين الثبات الذي يمنحه الاستقرار فلا يتزحزح عن مبادئه ولا يتحول عن أصوله، وبين المرونة التي يواجه بها سير الزمن، وسنة التطور.

فهو يجمد في بعض الأمور كالصخر، ويلين في بعض الأمور كالعجين!

---

(١) «تلخيص الحبير» جـ ٤ ص: ١٨٧ بتعليق السيد عبدالله هاشم اليماني.

(٢) صحيح البخاري كتاب الحج: باب فضل الحج المبرور.

أو كما قال شاعر الإسلام في الهند (محمد اقبال) في وصف المسلم: «يجمع بين نعومة الحرير، وصلابة الحديد».

وعلى ضوء ما ذكرناه نستطيع أن نتبين موقف هذا المجتمع من المجتمعات الأخرى، المخالفة له في العقيدة والوجهة والمبدأ.

إنه لا يذوب فيها، ولا يتبع أهواءها، ولا يقلدها ويتشبه بما فيما هو من خصائصها، فيفقد بذلك أصالته وشخصيته المتميزة، ويسير وراءها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. وهذه هي التبعية التي يرفضها الإسلام لأمته، التي بوأها الله مكان الأستاذية للبشرية كلها.

ومع هذا لا ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات. بل يستطيع أن يقتبس منها، وينتفع بما لديها، من معارف وخبرات ومهارات، لا تضر بكيانه المادي والمعنوي، لأن العلم المحض وما يتفرع عنه من مكتشفات وأجهزة، وأدوات ومختبرات، لا جنسية له، ولا لون له.

إنه كالماء، يأخذ لون الإناء الذي يوضع فيه.

فعنصر الثبات يتجلى هنا في رفض المجتمع المسلم للعقائد، والمبادىء، والأفكار، والقيم، والشعارات التي تقوم عليها المجتمعات الأخرى غير المسلمة وتميزها، لأن مصدرها غير مصدره، ووجهتها غير وجهته، وسبلها غير صراطه، فهو مجتمع متميز في المصدر والوجهة والمنهج، بل في السمة والشعار أيضاً.

ولهذا حرص رسول الله - ﷺ - على تميز المسلمين في كل شئونهم عن مخالفيهم من المشركين واليهود والنصارى، فرفض البوق والناقوس للإعلام بالصلاة، واختار الأذان.

ووردت عبارة «خالفوهم»[1] في أمور كثيرة، مما يدل على أن تميز

(١) مثل حديث ابن عمر عند الشيخين «خالفوا المشركين: احفوا الشوارب وأوفروا اللحى»، وحديث شداد ابن أوس عند أبي داوود والحاكم والبيهقي «خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم».

المجتمع المسلم أمر مقصود للشارع[1].

ولهذا جاء القرآن يحذر الرسول - ﷺ - من اتباع أهواء الذين كفروا من أهل الكتاب - والمشركين أو التأثر بدسائسهم ووساوسهم، فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه. قال تعالى: (ثم جَعلنَاكَ على شريعةٍ من الأمْر فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً، وإن الظالمين بعضُهم أولياء بعض، والله ولي المتقين)[2].

هذا في مكة. وفي المدينة قال: (وأن احكُم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهُم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) - إلى أن قال (أفحُكْم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يُوقنون)[3].

وهذا هو موقف الفرد المسلم، والمجتمع المسلم من أحكام الكفار، إنه يرفضها رفضاً حاسماً، ولا يقبل إلا أحكام الله. لأن من لم يقبل حكم الله، سقط في حكم الجاهلية، ولا ثالث لهما.

إن شعار المسلم إزاء كل ما يعرض عليه من مبادىء، وأفكار ومذاهب هو هذه الكلمة الموجزة: (إن كان فيها ما في الإسلام فقد أغنانا الله بالإسلام. وإن كان فيها ما يخالف الإسلام، فنحن لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب).

وفي مقابل هذا الثبات نجد مرونة وسماحة في الناحية العملية والتطبيقية في الحياة، مما يتصل بالطرائق، والأساليب، لا بالمبادىء والأهداف.

فإذا كان لدى مجتمع غير مسلم نظام حسن في تعبئة الجيوش، أو في تنظيم المواصلات، أو في توزيع البريد، أو في تحسين الإنتاج، أو في ترقية الصناعة أو الزراعة، أو في تخطيط المدن والقرى، أو في حفظ الصحة العامة، ومقاومة

---

(١) لابن تيمية كتاب قيم عالج فيه هذا الموضوع، سماه «اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم» يجب أن يقرأ.
(٢) الجاثية: ١٨، ١٩.
(٣) المائدة: ٤٩، ٥٠.

الأوبئة، أو في تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، أو نحو ذلك من كل ما يتعلق بالجانب العلمي (التقني)، والإبداع المادي، والتنظيم العملي. فالإسلام يرحب به، ويعمل على اقتباسه في مجتمعه، بشرط ألا يصطدم بأحكام الإسلام وقد جاء الحديث «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[1].

لقد رأينا النبي - ﷺ - يخطب على جذع نخلة في أول أمره بالمدينة، فلما كثر المسلمون، واستقر له الأمر، استدعى له نجار رومي فصنع له منبراً من ثلاث درجات. فكان يخطب عليه في الجمعة والمناسبات، وفي غزوة الأحزاب أشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة يحميها من الغزاة المشركين، وهذا من أساليب الفرس الدفاعية، فأعجب به ونفذه ولم يقل: هذا من أساليب المجوس لا نأخذ به.

بل رأينا الصحابة - رضي الله عنهم - يقتبسون بعض التنظيمات الإدارية، والمالية الصالحة من الفرس، أو الروم وغيرهم، ولم يجدوا بذلك بأساً، مادام يحقق لهم مصلحة، ولا يصادم نصاً ولا قاعدة، كما في نظام الخراج، وهو نظام فارسي الأصل، ونظام الديوان، وهو نظام روماني الأصل.

المسلمون في العصور الذهبية:

ولقد استطاع المسلمون في العصور الذهبية أن يحتفظوا بشخصيتهم الإسلامية، ثابتين على عقائدهم، وشعائرهم، وأخلاقهم، وشريعتهم، وأن يقتبسوا مع هذا من مدنيات الفرس، والروم، والهنود وغيرهم من القدماء ما ينفعهم، ويلائم أوضاعهم، وأن ينتفعوا بتراث الإغريق «العلمي» بعد أن عربوه وهذبوه، وأضافوا إليه، وأيد ذلك فقهاؤهم وأئمة دينهم - بل ساهموا وشاركوا فيه - ولم يتوقفوا إلا فيما رأوه معارضاً لعقيدتهم وفكرتهم عن الله والوجود، أو لمنهجهم الفكري. وذلك يتمثل في الجانب «الميتافيزيقي» من

---

(١) رواه الترمذي عن أنس في كتاب «العلم» وابن ماجه في كتاب «الزهد» من سننهما وفي سنده كلام.

الفلسفة الإغريقية، كما تمثل في منطق أرسطو الذي عارضه جماعة من أكابر العلماء مثل ابن الصلاح، والنووي، وابن تيمية الذي ألف في نقضه على أساس عقلي وعلمي بحت، كتابين صغيراً وكبيراً. وسبق بهذا النقض العصر الحديث الذي أقام نهضته على الاستقراء، لا على القياس الذي هو محور المنطق الأرسطي.

على أن من فقهاء المسلمين من نصر هذا المنطق وتبناه، واجتهد ان يستدل على صحته من آيات القرآن، مثل أبي حامد الغزالي الذي سماه «معيار العلوم». والمهم أن المسلمين كانوا في غاية من المرونة أمام الجانب العلمي بتعبير عصرنا. وكذلك الجانب الإداري، والتنظيمي، والعمراني، والصناعي. ولم يجدوا أي حرج ديني في اقتباس ذلك من غيرهم، والزيادة عليهم والتفوق فيه ما استطاعوا. بخلاف الأمور الأخرى المتصلة بالفكرة والعقيدة، فقد رفضوا هذا الجانب من فلسفة الإغريق، وخطأوا من اعتنقه وأيده من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، بل كفرهم الغزالي وغيره في مسائل معروفة خالفوا فيها المعلوم من الدين بالضرورة، كما يتضح ذلك في كتابه «تهافت الفلاسفة» وإن رد عليه العالم الفيلسوف القاضي ابن رشد في كتابه «تهافت التهافت».

ولقد أثبت مؤرخو الحضارة الإسلامية أن المنهج العلمي الحديث الذي يتميز به الغرب قد اقتبس من المسلمين، الذين سبقوا إلى اكتشاف هذا المنهج كاملاً قبل نهضة أوروبا بعدة قرون. وقد شهد بذلك جورج سارتون، وغوستاف لوبون، وبريفولت، وغيرهم من الغربيين المنصفين[١].

وما زال تاريخ العلم يحتفظ بأسماء لامعة لعلماء مسلمين في الطب، والكيمياء، والفيزياء، والفلك وغيرها، كما يحتفظ بأسماء كتب علمية، ظلت مراجع عالمية فذة في موضوعها لعدة قرون.

---

(١) انظر: في ذلك كتاب «مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» للدكتور: علي سامي النشار. وانظر: كذلك: حضارة العرب لغوستاف لوبون فصل: مناهج العرب العلمية ـ ترجمة عادل زعيتر.

طبيعة واضحة للمجتمع المسلم:

أحسب أن طبيعة المجتمع المسلم لم تعد خافية علينا بعد ما قدمناه من أدلة وأمثلة متنوعة من أوثق مصادر الإسلام، وبعد ما طالعنا من هدي القرآن الكريم، وهدي رسوله العظيم، وهدى الصحابة والراشدين، ومن تبعهم بإحسان من أئمة المسلمين وفقهائه المجتهدين.

وأحسب أنه لم يعد ثمة مجال للجدل أو التساؤل عن هذا المجتمع:

هل هو مجتمع ثابت جامد؟ أم مجتمع مرن متطور؟

فقد رأينا أنه مجتمع يلتقي فيه الثبات والتطور، كما تلتقي فيه كل المعاني المتقابلة، التي يظن كثير من الناس، أن التقاءها في مجتمع واحد ضرب من المحال، أو تحليق في سماء الخيال: كالمادية والروحية، والواقعية والمثالية، والعلم والإيمان، والدين والدولة، والحضارة والأخلاق.

المجتمع المسلم مجتمع متوازن، ولهذا اجتمعت فيه المتقابلات، وأخذ كل منها مكانه بالعدل، وهذا هو وضعه بين الثبات والتطور.

إنه ـ كما لخصناه في مطلع هذا الفصل ـ الثابت على الأصول والأهداف، والتطور في الفرعيات والأساليب.

المجتمع المسلم مجتمع ثابت متحرك في آن واحد.

إنه أشبه بالنهر الجاري المتدفق، الذي لا يقف عن الحركة والتجدد والجريان، ولكن في مجرى مرسوم، واتجاه معلوم، ولغاية معروفة.

وإذا كانت طبيعة هذا المجتمع قد اتضحت، وتجلت في هذا التوازن المعجز، فإن الحكمة في ذلك قد بدت ماثلة للعيان أيضاً.

وذلك لأنه إذا اتخذ الثبات المطلق ديدنه في كل الأمور، الدينية والدنيوية، المعنوية والمادية، الكلية والجزئية، الأصلية والفرعية، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف، تجمدت الحياة وتحجرت، ولم يستفد الناس من

الملاحظة والتجربة التي هي أساس العلم الكوني، وهي أمر واقع حتمي في حياتهم، وهذا ضد قوانين الكون، وضد قوانين الفطرة: فطرة الإنسان وفطرة الأشياء.

كما أنه لو اتخذ المرونة المطلقة مبدأ له، وشعاراً لحياته، لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قيم ولا ضوابط، وأفلت زمامه من يد الدين، أو يصبح الدين خاضعاً لظروفه، وتابعاً لحياته يستقيم إذا استقامت، وينحرف إذا انحرفت، والمفروض في الدين أن يحكم الحياة، لا أن تحكمه، وأن يخضعه لمثله وهداه، لا أن تخضعه لواقعها وهبوطها.

ولو لان المجتمع المسلم في أفكاره ومفاهيمه وأخلاقه وتقاليده وشرائعه، للتطور المطلق حسب البيئة والعصر والأحوال الطارئة، لفقد هذا المجتمع وحدته، وأصبح في كل قطر مجتمع مغاير للمجتمعات المنتسبة إلى الإسلام في أقطار أخرى، فلا توجد الأمة الواحدة التي أرادها الله. وإنما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة، كما يريد أعداء الإسلام[1].

ومن أراد أن يعرف نعمة الله على المجتمع المسلم الذي حفظ له الإسلام توازنه بين الثبات والتطور، فلينظر إلى مجتمعات أخرى - كالمجتمعات الغربية اليوم - كيف فتحت الباب على مصراعيه للتطور المطلق في كل شيء. فلم يبق في حياتها شيء ثابت تستند إليه، وترتكز عليه، فلا عقيدة، ولا فضيلة، ولا تقليد، ولا تشريع، ولا أي قيمة من القيم العليا التي ورثتها الإنسانية من كتب السماء، وتعلمتها على أيدي الهداة من رسل الله وورثتهم بحق.

وكانت ثمرة هذا التطرف اضطراب الحياة كلها: من قلق نفسي، إلى تخبط فكري، إلى تحلل خلقي، إلى تفسخ أسري، إلى تفكك اجتماعي.

وقد قابل هذا التطرف تطرف مضاد، يتمثل في أولئك الشباب الذين رفضوا تطور مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادية وآلية، فاختاروا لأنفسهم

(١) لمزيد من المعرفة بقيمة (الثبات) في نظام الإسلام ومجتمعه، انظر خصائص التصور الإسلامي للمرحوم سيد قطب ص ٨٣ - ١٠٦.

حياة غريبة شاذة مثل «الهيبيين»، ومن كان على شاكلتهم. والتطرف لا ينتج إلا تطرفاً مثله.

أمران يعرضان المجتمع الإسلامي للخطر:

وإنما يتعرض المجتمع الإسلامي للخطر نتيجة لأحد أمرين:

الأول: أن يُجمِّد ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم والجمود، وتصبح كالماء الراكد الآسن الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات.

وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم، والأصالة في الأدب، والابتكار في الصناعة، والافتنان في الحرب وغيرها.. وضربت الحياة بالجمود والتقليد في كل شيء، وأصبح المثل السائر الذي يعبر عن وجهة النظر السائدة «ما ترك الأول للآخر شيئاً»!

على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة - التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي - تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم، ثم تزحف غازية مستعمرة، والمسلمون في غمرة ساهون.

الثاني: أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث، أن فئة من أبناء المسلمين، يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله باسم التطور.

يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة، والانسلاخ من الشريعة والتحلل من الفضيلة.

كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد «التطور».

إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه، لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب، من عقائد وأفكار، وقيم وموازين، وأنظمة وتقاليد، ومثل وأخلاق.

وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبيها. لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا.

أما أن يصبح الدين خاضعاً لتقلبات الحياة وظروفها، يستقيم إذا استقامت، ويعوج إذا اعوجت، فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

إن الإصلاح الحقيقي: أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شئون الحياة، فنبذل جهودنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين.

كما نعرف ما يجب أن يبقى ثابتاً راسياً، من القيم، والأفكار، والعقائد والأخلاق، والآداب، والشرائع التي تزول الجبال الشم ولا تزول.

بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجهه، فنفوز بالحسنيين، ونربح الدنيا، ولا نخسر الدين، ونظفر برضوان الله، وإعجاب العقلاء من الناس.

محتوى الكتاب

الفصل الثاني: الإنسانية
(٥٧ - ١٠٤)

الفصل الثالث: الشمول
(١٠٥ - ١٢٥)

الفصل الرابع: الوسطية
(١٢٧-١٥٦)

الفصل الخامس: الواقعية
(١٥٧ - ١٨٦)

الفصل السادس: الوضوح
(١٨٧ - ٢١٣)

الفصل السابع
الجمع بين التطور والثبات
٢١٥ - ٢٥٨